شبابيك المدن البعيدة

شبابيك المدن البعيدة

إدريس لفريك

رواية

الطبعة الأولى: 2022

رقم الإيداع:

ردمك:

0660020214

Daragora2020@gmail. com

أڭورا
AGORA
Editions منشورات

أڭورا للنشر والتوزيع AGORA

العنوان: 34، شارع المملكة العربية السعودية

تجزئة العنبر، الإقامة 58، رقم 6، طنجة، المغرب

تصفيف وإخراج: منارات للتصميم والتحرير والتدقيق والترجمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذه الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية، أو ميكانيكية، أو أي وسيلة أخرى بدون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

إدريس لفريك

شبابيك المدن البعيدة

رواية

تأثير الفراشة . .

"التفاصيل الصغيرة يمكنها إحداث الفارق دائماً . "

إهداء

إلى الذين معهم تكون الحياة أكثر صدقاً واتساعاً . .

شرف وعثمان وزوغة

إلى الشاعر الذي رمى بنفسه خارج الزمن، ورسم لنفسه أبجدية جديدة خارج حدود اللغة. .

جواد المومني.

إدريس لفريك

الفصل الأول

ناصر بن علي

الخميس 22 نوفمبر 2018 .

طنجة

مستشفى الرازي للأمراض العقلية.

أُدْرِك أن ذلك كان جنوناً، ولكن الحياة أحياناً تحتاج إلى الكثير من المغامرة. فهل أنا عاقل أم مجنون؟ سؤال سيظل عالقاً أمام عيني. لقد ضاق بي الحال وصار مزرياً. فقدتُ القدرة على الحلم، وربما سأفقد القدرة على مواصلة الحياة، إذا استمر هذا الوضع الذي تُغَشِّيه الأوجاع والقهر لأيام أخرى. أشعر بالإحباط والانطفاء والتعب. أحس بأنني على بعد خطوة واحدة من الجنون هذا إن لمْ أكن قد جننتُ وانتهى الأمر.

يلفني الصمت، يحيط بي من كل الجهاتْ. أرى العالم عبر نافذة صغيرة. أصوات متداخلة تجيء من الخارج. أحدق بالسقف وأخال أنه سيسقط على وجهي في أية لحظة. عدلتُ من وضع الوسادة أتهيأ للنوم، لكن قدمي اليسرى المربوطة مع جانب السرير الحديدي منذ ثلاثة أيام أو ربما أكثر بددتْ تلك الرغبة في النوم. على الرغم من العياء الشديد الذي كان يتملك كامل جسدي. أرتعش بشدة ولا أكاد أقوى على ضبط حركة جسمي.

تحركتُ فكسر صوت الحديد صمت المكان. نظرتُ إلى السقف مرة أخرى ولا أفهم ما الذي يجري، ولا كيف وصلتُ إلى هذه الغرفة الضيقة؟ لا أتذكر سوى تلك اللحظة الضبابية التي تلقيتُ فيها ضربة قوية من الخلف على رأسي، قبل أن أغيب عن الوعي، وأستيقظ هنا وسط هذا الفراغ المترامي الذي يثْقِلُ النفس، ويجعل العقل في حالة تشتت لا نهائي.

على الأقل ما زلتُ أتذكر من أكون. وهذا الأمر بحد ذاته يدعو للإطمئنان. اسمي ناصر بن علي، عمري خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر. ولدتُ بمدينة الحسيمة. وعدتُ إليها قبل ثلاثة أشهر ويومين بالضبط، وتركتُ الحياة بكل تفاصيلها الجميلة في الضفة الأخرى من العالم. عدتُ بعد أن نهش السرطان جسد أمي وماتت.

يوم وفاة أمي، رأيتُ أبي يبكي بصمت وقد صار وجهه متعباً فجأة وقامته هزيلة. كان يوماً طويلاً مليئاً بالخوف والحزن. احتجتُ أن أضع رأسي على كتف أبي، ولكنه كان بعيداً جداً رغم أنه كان يقف على بعد خطوة مني. لمْ يحدث أن ضمني إليه، أو حتى لمس رأسي ولو مرة واحدة. ما زلتُ أتذكر نظرته الجافة إليّ، بعينيه المرتخيتين. كان يعاند البكاء وكأنه لا يريد أن يكشف ضعفه وحزنه ويتمه. ولا أنسى كلمات أمي الأخيرة التي قالتها بصعوبة بالغة وهي على فراش الرحيل الأبدي، لا أنسى عينيْها الذابلتيْن وهي تتمتم بصوت مُتهدّج وتنادي باسم أخي مروان الذي رُمي في السجن قبل سنتين من ذلك اليوم المشؤوم بسبب ورطة سياسية. في تلك اللحظة المشحونة بالألم غمرتُ رأسي بصدرها وبكيتُ بحرقة وفهمتُ ماذا يمكن أن يفعل الفراق بالإنسان.

كانت أمي تقول كلما ألمت بها الأحزان وأصابها اليأس. إن الحياة مجرد لحظة عابرة من الضروري أن تنتهي يوماً وينتهي معها الحزن والألم. وبعد مرضها صارت تعد الأيام على أصابع اليد. وتنتظر تلك اللحظة التي تذهب فيها نحو الأبد بدون أن تودع أحداً.

كانت أمي امرأة هادئة الطباع إلى حدود اليوم الذي اعتقل فيه أخي مروان بتهمة زعزعة النظام العام واستيلام أموال من جهات خارجية معادية للوطن ولوحدته. ثم تغيرتْ دفعة واحدة وصارت عصبية لأتفه الأسباب. تبدلتْ بشكل كلي، أصبحتْ قاسية على نفسها وعلى كل من يحاول التقرب منها ومواستها في حزنها على فراق ابنها الذي حُكم عليه بعشرين سنة.

ما زلتُ أتذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي زرتُ فيه مروان في السجن. كان حينها يحاول أن ينسى من يكون، ومن أين أتى، وينسى المصير البائس بسبب حماسه الزائد. لمْ يكن يدرك يوم قرر أن يخرج في مظاهرات مغضوب عليها أن الوقوف في وجه الدولة سيكلفه كل هذه السنوات الطويلة التي سيقضيها وراء القضبان الحديدية. لمْ يكن يعرف أن الاعتقال والموت في هذا الزمن مسألة وقت لا أكثر. كان على قدر كبير من البله، وينقصه الكثير من الوعي كي يفهم قوانين اللعب مع الأشباح. عندما رأيته في تلك الدقائق المعدودة كانت ملامحه تقول إنه ما عاد يخاف شيئاً وأن الزنزانة لمْ تعد مخيفة كما كانت في السابق. وأنه لمْ يعد يكترث لأمر.

كان يحاول أن يتناسى بؤس الزمن وبرودة الجدران وجفاء الأرض المترعة بالريبة والخوف التي ولد فيها بعد أن أدرك فجيعته، وفطن إلى حجم الكارثة التي لحقت به. أدهشني يومها قلقه العميق على صحة أمي،

رغم أنه لمْ يكن يعرف بموضوع مرضها الخطير. كأن قضية اعتقاله شرّعت كل أبواب الخطر، وخصوصاً في وجه أمي. وباتت في مرمى سهام الموت من شدة الحرقة والحزن.

شعرتُ أنه لمْ يعد يهمه في هذا الوطن شأن، ولا يحزنه عليه أمر. صار بارداً وجافاً مثل صخرة قذفها تيار النهر بعيداً. أما أمي في تلك الفترة فقد كانت تعيش آخر أيام حياتها بصمت ومكابرة إلى حدود اللحظة التي تحررتْ روحها من سجن الجسد، ودُفِنت في بقعة منسية على حدود القرية التي ولدتْ فيها.

انحفرتْ أحداث تلك اللحظات في روحي وفي ذاكرتي. وأعرف الآن أن أحاسيس شتى كانت تتناوب علي في تلك الأيام، وأنني كنت أنمي غضبي وأقتات على ذكرياتي، لكنني ظللتُ قوياً وباقياً ولنْ أقول حياً، لأنني مت بطريقة ما في ذلك الصباح الذي ماتت فيه أمي، ودفنت معها في التراب كل أحلامي البسيطة.

أما أبي الذي أشك أن الله سيسامحه لما فعله بنا. فقد أصبح يعيش وسط قوقعة صمته وعزلته وفق ما تُمليه عليه أفكاره ونزواته ولا يرضيه شيء، ويكفيه قضاء اليوم بكامله في الشكوى والصراخ والغضب كي يخفي ذلك الحزن الذي يسكن عينيه وروحه، قبل أن يهجر البيت نهائياً ذات مساء دون أن يخبرني بشيء ويهيم في القرى المحيطة بمدينة الحسيمة باحثاً عن ماضي أجداده بين الكلمات والنغمات و"العيوط".

في ذلك الزمن، كان أبي مغرماً بفن "العيطة[1] " والأغاني الأمازيغية. مفتوناً "بالدربوكة[2] " و"النويقسات[3] " و"التعريجة" و"الطار" والكمان. ينتقل خلف الشيخاتْ[4] في القرى والنجوع المجاورة. تاركاً عمله وكل شيء خلفه، حارماً إيانا من دراهم قليلة كانت تطعمنا بالكاد، فتنكفئ أمي على ماكينة الخياطة حتى أحدودب ظهرها كي تتمكن من الحفاظ على نار الموقد في مطبخها مشتعلاً.

أبي عندما كان يلتهب غضباً من أمي، يقاطع الكل لمدة أسبوع أو أكثر ويتحول البيت إلى معتقل. ويصير الوضع قاسياً ولا يحتمل. يتفرغ لنا كلياً ولا شغل له إلا مراقبة الأخطاء الصغيرة التي قد تصدر مني أو من أخي مروان. أحياناً كنت أعطف عليه عندما أراهُ يصرخ بأعلى صوته، أعطف عليه وأخاف أن يفقد عقله أو يصاب بمرض ما. كان يقول لأمي كأنه يعاتبها، إنه يشعر بالحرج من فشلنا في الدراسة أنا وأخي. وعندما تجادله، يضحك بسخرية قبل أن ينفجر.

---

[1] يعود أصل كلمة **"عيطة"** في العاميَّة المغربيَّة إلى "العياط"، وتعني النداء والاستغاثة بصوت عال، وبالتالي عندما يغني شيوخ فن العيطة كأنهم ينادون على أسلافهم من أجل مد يد العون إليهم والتبرُّك بهم، كما شكّل ذلك الفن إطاراً تعبيرياً عن الواقع القروي البسيط ومعاناته في بنيَّة جغرافيَّة تعاني الإقصاء وصعوبة العيش.

الدربوكة، التعريجة، الطار. آلات موسيقية إيقاعية. [2]

النويقسات: إيقاع معدني يصنع من النحاس ويضيف رنيناً إلى النغمة العامة. [3]

الشيخات لمفردة «شيخات» بالمغرب معنى شديد الخصوصية.فهي لا تحيل على شريحة عمرية ولا على سلطة دينية أو سياسية كما في [4] الخليج العربي بقدر ما تؤشر على خبرة فنية لشريحة من النساء يحفظن الشعر الشعبي، يجدن الرقص ولهن حس موسيقي مميز وصوت طروب. يتقن في الغالب العزف على الآلات الإيقاعية وأحيانا يجدن العزف على الآلات الوترية كما يحفظن المقامات والطبوع الموسيقية الشعبية. نساء ارتبطن بفن العيطة.

اليوم عندما أتذكر حروبي الصغيرة مع والدي، أحزن كثيراً. كل مجهوداتي أفرغتها عبثاً في محاولة الظهور أمامه بأنني شاب طموح ويعول عليه. لكنه ظل كالحجر الأصم كما فتحتُ عليه عيني لأول مرة. اليوم أدرك أنني ضيعتُ وقتاً كثيراً وأني لا أنا صرتُ ذلك الشاب الذي كنت أطمح إليه، ولا هو تغير. طرقنا كانت متناقضة. أمي ظلت تحاول بالعقل أحياناً وبالقوة أحياناً أخرى أن تحمينا من كلماته القاسية ومن غضبه. أصبحت تقاطعه كثيراً ولا تنام معه في الفراش نفسه. وفي المساء الذي تلين فيه، يعود كما كان، يشتم ويلعن الدنيا وأحياناً الرب الذي لمْ يكن عادلاً والذي رزقه بهذه الحياة البائسة وأقحمه مع زوجة عصبية.

في طفولتي كان يحلو لي كثيراً، الجلوس أمام أمي ومراقبتها وهي تقطع الخيط بأنيبها الحادة بعدما تنتهي من الخياطة، فيما تبرطم بلعنات لا أتبين كنهها. وإن كنت أعلم علم اليقين لمن توجهها. في تلك الأوقات كان يروقني مباغتتها بقبلة خفيفة على جبهتها، ثم أركض خارج الغرفة. في ساعات صفوها النادرة كانت تطاردني راغبة في الإمساك بي. لابدَّ أنها ارتاحتْ حين ماتت، وها هي الآن حاضرة في مخيلتي وتأبى الاختفاء. لا تزورني في الأحلام فقط، بل تنبسط أمامي في أثناء صحوي في لحظات بعينها، في تلك اللحظات أقسم إنني أكاد ألمسها بأصابع يدي.

عندما ذهبتُ نحو الحياة، أبحث عن طريقي، بدون أن أسأل أو أهتم بردة فعل أبي. شعرتُ يومها أنني بالفعل حققتُ شيئاً ضد القدر. أمي كانت الوحيدة التي فرحتْ لي لأنها كانت تعرف كم كنت موجوعاً ومخنوقاً ومنطفئاً.

في موقعي الحالي، على السرير الحديدي، أتذكر بشيء من الحسرة الخفية تفاصيل ذلك اليوم الذي غامرتُ فيه بنفسي صوب البحر. وركبتُ الأمواج العاتية فارغ البطن والقلب، وتركتُ خلف ظهري أمي وأبي وأخي مروان الذي كان عمره حينها عشر سنوات. أما أنا فكنت على بعد أيام قليلة من الدخول في عامي السابع عشر. تخليتُ عن الدراسة في السنة أولى ثانوي وكغيري من أبناء الأحياء الهامشية تكونت لدي قناعة لا تحتمل ذرة من الشك تقول إن الجنة في الأرض مرادفها "أوربا". بدأتُ المحاولات أنا وصديقي الذي تمكنت أسرته من حجز مكان له مع أحد سماسرة الهجرة عن طريق قوارب الحلم والموتْ ليأخذه صوب الضفة الأخرى حيث الحياة ممكنة وحيث الفرح. وصل صديقي إلى إسبانيا وكان هذا أكبر حافز لي لطلب دعم أمي بعد تعبي من المحاولات الكثيرة الفاشلة. لمْ توافق أمي على فكرة الهجرة خوفاً علي من المصير المجهول الذي تخفيه أمواج البحر وأسماكه المفترسة. لكنني أقنعتها بعرض قصص أقراني من أبناء الحي الذين وصلوا إلى أوربا ومع ازدياد الأوضاع سوءاً في الوطن قررتْ أخيراً مساعدتي بمبلغ من المال كان بحوزتها، كانت تدّخره تحسباً لقسوة الزمان وللحياة ومفاجأتها.

كانت تلك المرة الأولى التي سأنطلق فيها في رحلة مبرمجة، والمخاطرة بحياتي، والهجرة للنجاة من الفقر والبؤس الممتد على طول البصر. كنت أعلم إمكانية أن ألقى حتفي في رحلة العبور غير الشرعية إلى الضفة البعيدة ورغم كل ما وصل إلى مسامعي من حالات غرق للمهاجرين إلا أن ذلك لم يردعني عن مواصلة المجازفة، بل في المقابل كنت أرى بقائي في المغرب مصيراً أسوأ. اجتمعنا في مكان اختاره السمسار وكنا في المجموع

أربعين شخصاً بين قاصرين وراشدين يافعين وكان معنا بعض الأفارقة أيضاً. كان علينا دفع ثمن الرحلة للمهربين قبل الصعود إلى الشاحنة. دفعتُ لهم عشرة ألاف درهم وهذا السعر لمْ يكن موحداً، كان يختلف حسب الشخص وحسب الجنسية. وأعتبر نفسي محظوظاً لأنني دفعتُ هذا المبلغ، هناك من تجاوز ثمن رحلته ثلاثين ألف درهم. أوصلتنا تلك الشاحنة عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل إلى مكانٍ يقع بين أصيلة وطنجة يسمى قنطرة تهدارت، ثم واصلنا الرحلة سيراً على الأقدام حوالي عشر دقائق، لنجد في انتظارنا زوارق مطاطية.

ما زلتُ أذكر تلك اللحظة التي ركبنا فيها الزورق وانطلقنا وسط الظلمة الدامسة، شعرتُ لحظتها وكأنني أعبر المسافة الفاصلة بين الجحيم والجنة. كان الطقس بارداً والظلام حالكاً، خيم الصمت على المهاجرين، الكل يفكر في مصيره وفي نهاية هذه المغامرة، الكل يعانق أحلامه، وبين الحين والآخر يرتفع صوت أحدهم بالدعاء وبقراءة آيات من القرآن.

وبعد أن قطعنا مسافة طويلة في عمق البحر قلتُ لنفسي بصوت مرتعش حينها: لنْ أعود إلى تلك الأرض القاحلة قبل أن أجمع الكثير من المال. وما كدتُ أنهي هذه العبارة حتى انقلب بنا الزورق بعد أن غلبته أمواج البحر العالية التي كانت أشبه بالجبال.

خابت الآمال وبلغت القلوب الحناجر، صرخنا وبكينا وصار الموت مسألة وقت لا أكثر. حاولتُ أن أتشبث بالزورق المقلوب، وفي تلك اللحظة بالضبط سمعتُ أحدهم يقول بنبرة باكية: أنا آسف يا أمي لأن القارب غرق بنا ولن أستطع الوصول إلى هناك، كما لنْ أتمكن من إرسال

المبالغ التي استدنتها لدفع أجر الرحلة. لا تحزني يا أمي إن لمْ يجدوا جثتي، فماذا ستفيدك؟ عدا مضاعفة تكاليف النقل والدفن والعزاء.

بقى الزورق مقلوباً في البحر ساعات طويلة، فقدتُ الأمل في الحياة وكدتُ أستسلم للموت كما فعل عدد كبير من المهاجرين الذين طفت أجسادهم الهزيلة فوق الماء وأذاب ملح البحر ملامحهم بسرعة. وفي تلك الثانية التي قررتُ فيها أن أمنح جسدي للموج دون مقاومة، جاءت قوارب النجدة من إسبانيا وقامت بالتدخل وإسعافنا وإنقاذِنَا في آخر لحظة.

قصصنا متشابهة، مليئة بالمآسي والأحزان، فهي حالة هروب دائم من جحيم حياة عشناها داخل الوطن إلى جحيم آخر مجهول، ويكون الهروب هو نقطة النهاية بدل أن يكون نقطة البداية. مات عدد كبير منا وانتهت أحلامه قبل أن يصل إلى الضفة الأخرى ويعانق هواء الجنة التي كان يركض صوبها لاهثاً.

الرحلة التي بدأتها من المغرب قادتني إلى ثلاث دول أوربية، وصلتُ في أول مرحلة إلى إسبانيا، حيث قبضت علي الشرطة وقامتْ باحتجازي لأسابيع طويلة، لكنني تمكنتُ من الفرار برفقة بعض المهاجرين الآخرين، واضطريتُ التوجه إلى الشارع، الذي قضيتُ فيه ثلاثة أشهر مشرداً في الحدائق العامة، أو تحت أسقف المنازل المهجورة بعيداً عن أعين الشرطة، قبل أن أسافر إلى ألمانيا على متن القطار، لينتهي بي المطاف في مركز للاجئين. لكنني هذا المرة لمْ أرغب في البقاء في ذلك المكان، وأكملتُ رحلتي إلى بروكسيل، هناك حيث عشتُ ظروفاً قاسية أكثر، نمتُ في الشوراع في درجة حرارة تتدنى أحياناً إلى ما تحت الصفر، وفي مرات

عديدة نمتُ جالساً على مقعد في محطات النقل العمومي، وآذاني دائماً متوجسة حتى لا أقع في يد الشرطة. لمْ أكن وحدي، لقد كنا بالعشرات، مهاجرين من عدة جنسيات، نتفرق في النهار بحثاً عن الطعام الذي تقدمه الجمعيات الخيرية، لنلتقي عندما يسدل الليل خيوطه في سماء تلك المدينة الباردة. وغالباً ما كنا نجتمع في الحدائق، نستغل المقاعد لننام عليها، أو نفترش علب الكرتون، وبعضنا كان يمتلك أغطية.

السنوات الأولى التي قضيتها في بروكسيل كنت كالمعلق بين السماء والأرض، عشتُ لحظات من اليأس والإحباط، شعرتُ بالندم. نعم، ورغبتُ بالعودة إلى المغرب وإلى حضن أمي، إلى أن أبتسم القدر في وجهي أخيراً وجاءت اللحظة التي حصلتُ فيها على أوراق الإقامة، وتخلصتُ من حياة التشرد والهرب التي عشتها مدة سنتين ونصف تقريباً.

***

الآن أنا في مكان ما لا أعرفه. وكل ما أعرف هو أنني تلقيتُ ضربة على رأسي حينما كنت عائداً إلى البيت في حدود الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل.

أشعر بصداع خفيف، لكنه متواصل بدرجة يشعرني بأن هناك من يدق رأسي من الداخل بمطرقة ثقيلة. أشعر أن لساني مشلول تماماً، والصهد يتصاعد إلى ذماغي، والعرق ينهمر على جبيني بارداً مثل برودة الثلج، وغصة ما تسد حلقي. الخوف يزحف في ثبات فوق صدري، والألم يختبر آخر ما تبقى من صبري وتماسكي. أراقب في هدوء جدران الغرفة الضيقة

وبداخلي ألف سؤال. ماذا أفعل هنا؟ من أتى بي إلى هذا المكان البارد؟ هل هذه زنزانة أم قبو أم غرفة بائسة في مستشفى؟

أبحثُ عمن يقدم لي تفسيراً عما جرى معي، ويجيب عن تلك الأسئلة الحارقة التي تأكلني من الداخل. فجأة علا صوت أحدهم وهو يفتح باب الغرفة المغلق من الخارج، اقتحمتْ أذنيَّ قلقلة المفتاح. دخل الرجل إلى الغرفة بخطوات بطيئة، نظر إليّ دون أن يتفوه بكلمة، اقترب مني قليلاً وهو يمسك بين أصابع يده اليمنى إبرة حقن. وفي يده اليسرى قارورة صغيرة بداخلها شيء يشبه الكحول الطبي والقليل من القطن الأبيض. طلب مني أن أميل على جانبي الأيسر. فرفضتُ ذلك قائلاً بنبرة غاضبة:

– لن أميل إلى أي جهة.

رد ببرود شديدٍ:

– لا تجعلني أستعمل معك العنف.

أزال غطاء الإبرة، ثم ضرب بخفة عليها لإخراج فقاعات الهواء. حاول أن يضع كفه على وركي. لكنني دفعته بيدي بقوة كبيرة حتى سقطتْ من يده القارورة الزجاجية وتكسرت فوق الأرض. كانت هذه هي الطريقة المُثلى للتعبير عن غضبي.

رجع ذلك الرجل خطوة إلى الخلف ثم أعاد الغطاء إلى الإبرة. وغادر الغرفة وهو يصفق الباب بقوة. وبعد دقائق قليلة دخلت امرأة أربعينية نحيلة القامة دون أن تصدر أي صوت، مشت نحوي وتفحصتني بعينين يلوح عليهما التعب. جلست بقربي. ثم قالت بلهجة ودودة:

– أنا هنا لمساعدتك.

رددتُ دون أن أرفع رأسي:

- أين أنا؟

- أنت هنا بمستشفى الرازي للأمراض العقلية.

صمتت للحظة ثم واصلت:

- سأحاول مساعدتك بكل الطرق الممكنة، لكن يجب عليك أن تساعدني في المقابل وتتناول أدويتك. وأعدك بمغادرة هذه الغرفة في أقرب وقت.

لحظتها أحسستُ أن العالم كله قد تلاشى أو أختزل في كلمة واحدة ومشهد واحد. رفعتُ بصري صوبها ثم سألتها: لماذا أنا هنا؟ هل أنا مجنون؟ هل أنا مريض؟ لمْ ترد علي وكأني لمْ أقل شيئاً. اكتفت بابتسامة عريضة، لا مبرر لها على الإطلاق أمام ما يحيط بنا من أسئلة وخوف ورهبة وارتباك.

كانت تلك اللحظة من أقسى لحظات حياتي، تجمدت كل الكلمات في حلقي، واستحال كل شيء إلى فراغ مفزع، لفني الصمت وأحاط بي من كل الجهات، وصرتُ أتأرجح بين النوم والصحو. ورأيتُ، بل وأدركت أن المسافة بيني وبين تلك المرأة تعادل مسافة عمري. أحدق بالسقف وأستجدي النوم لأهرب من هذا الكابوس المفزع.

صار كل شيء في هذه الغرفة ضيقاً مثل النعل. واكتشفتُ أن الجنون الذي كانت أمي دوماً تحذرني منه صار حقيقة، القدر أحياناً يحوّل سخريتنا إلى حقائق. في حياتي لمْ أكن أتصور أن أجد نفسي في مكان كهذا ذات يوم.

يأتيني هسيس السيارات من الشارع، مصحوباً بالأنين المكتوم. ثم جاءني صوت بكاء مشبعاً بالوجع، وأصوات كثيرة ومتداخلة تجيء من الخارج، لكن كان صوت المطر هو الأعلى في تلك اللحظات، وقد أظلمت السماء في الخارج تماماً. جاءني صوت "عالية" ثم اختفى سريعاً. جاءتني صورتها لكنها كانت غير واضحة الملامح، ثم اختفتْ بنفس السرعة وتحولتْ إلى رماد.

اشتهيتُ حينها أن أقول لها بصوت عال: يا عالية خذيني إلى بيتك. أريد أن أقضي العمر كله بين ذراعيك، وأغوص في رائحة جسدك. كنت أريد أن ألومها على غيابها الطويل لكن لمْ أجد أمامي إلا حفنة من الرماد.

ياه !!

لا أدري إذا ما كان عليّ أن أنام أم أظل مستيقظاً وأواجه هذا المصير المبهم؟ لو أن عالية هنا ما كان ليحدث كل هذا الارتباك والضياع والفوضى.

عالية الحكيم

الخميس 22 نوفمبر 2018 .

بروكسيل

للمرة الأولى أطيل النظر في عيني رجل وأرى لونها وعمقها. وللمرة الأولى أيضاً يقترب مني رجل فيقشعر جسمي بهذا الشكل ويرتجف، ويزلزلني قبل أن يلمسني. نظرة خاطفة من "كمال الشرقاوي" كانت قادرة على أن تروي عطشاً قديماً كان يحتل عروق جسدي. يجذبني إليه فأنكمش كقطة خائفة بين ضلوعه. تتهدج أنفاسي كلما اقترب وجهه مني أكثر. جبهته على جبهتي. أنفه على أنفي. يشدني نحوه برفق، نتبادل الشهيق والزفير الخافتْ. القبلة الأولى هادئة دافئة مباغتة مربكة ناعمة، هكذا تماماً كما تمنيتها وإشتهيتها. صدره يلامس نهدي، وكفه تتحس جسمي ببطء، مروراً بعنقي ثم كتفي ثم ثَدْيَيَّ. يعيد تشكيل تضاريس جسمي. يقبلني بلهفة في كل المواضع. يخلع قميصه الأبيض وكأنه يتخلص من أسر ما كان يكبل شهوته. ثم يخلع لي ملابسي قطعة قطعة. أدور معه في رقصة طالما تمنيتها. راقصني بالطريقة نفسها التي يرقص بها كلماته. لدرجة أنني لمْ أعد أميز جسمي من جسمه، أنفاسي من أنفاسه، صوتي من صوته.

ينحدر بيديه فتنزلق كفه على خصري. يضم كفيه فيضيق الخصر بينهما. لسانه يرسم على جسدي خطوطاً متقاطعة، يلثم أذني،، وجنتي، عنقي،

صدري، وبطني. إعتصرني حتى صرتُ خفيفة كريشة تتهادى مع نسيم شهوة الإنشطار. انسبنا فوق الفراش فانْزَلَقَ بجسمه بين فخذي. نظر في عيني مباشرة فملتُ قليلاً بوجهي، لكن عيناي لمْ تُفارِقَا عينيْه. أبتسم في غنج مثير بينما وجهه غارق في عبوس الشهوة. يلتحم الجسم بالجسم أصعد معه ثم أهبط. وعيناي تشهقان، تبتهلان عينيه أن يتوقف، بل أن يستمر، أن يستمر للأبد. أفتح كل أبوابي السرية ليغوص أينما وكيفما أراد. يتعالى صوتي تدريجياً، فينتشي حين أنطق اسمه ببحة الأنين. تتحشرج أنفاسنا والجسمان ينتفضان. أتلوى تحته بلا شعور. يجذبني إليه أكثر. لأجد نفسي فوقه، رأسي يرتفع وعنقي يمتد. يرفعني بيديه فأشعر بخفتي. يغوص بوجهه في صدري فيعتصر جسمي في جسمه. وأنطق بكلام لمْ أنطق به في حياتي كلها. كلام مفعم باللذة. ويفيض الجسدان بنشوة مرهفة. وتخور كل القوى دفعة واحدة. لمْ أشعر في حياتي بهذا الإمتلاء الذي شعرتُ به اليوم في هذا اللقاء الذي لم يكن مخططاً له.

***

بعد أن انهيتُ المعرض الذي أقمته بمركز الفن البديل الذي يقع وسط المدينة والذي عرضتُ فيه مجموعة من لوحاتي التشكيلية الأخيرة. التقيتُ بكمال، الرجل الذي اكتشفتُ تفاصيل جسدي معه وكأنني أكتشفها لأول مرة. فهل كنت جائعة إلى هذا الحد؟

في الحقيقة لمْ أكن أتصور أن تسير الأمور على هذا المنوال. ويتحول لقاء عابر إلى علاقة حميمية صاخبة. لمْ أكن أظن أنه من الممكن أن يدفعني ذلك الغريب إلى لمس الأشياء من حولي بتلك السرعة، ويجعلني أنظر إلى ألوان أسماء وأتنفس بعمق، وكأنه كان يريد أن يقول لي إن الصدفة وحدها قادرة

على أن تمنحنا بعض الوقت المسروق للفرح. فهل كان ضرورياً أن تجمعني به الأقدار أمام لوحة رسمتها خلال الأسبوع الأول الذي وضعتُ فيه قدمي على أرض هذه المدينة الممطرة قبل خمس عشرة سنة من الآن؟

***

الطقس بارد جداً هنا في ضواحي بروكسيل. حين كنت أقيم في بغداد أثناء طفولتي وشبابي، لمْ أكن أشعر بمثل هذا البرد. هذا البرد يذكرني بتفاصيل ذلك اليوم الإستثنائي الذي هربنا فيه من جحيم الغزو الأمريكي على العراق بحجة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل. رغم أن الكل كان يعلم أن النفط هو السبب الحقيقي وراء هذه الحرب.

في ذلك اليوم خرجنا من بيتنا دون أن نحمل معنا أي شيء. وتوجهنا شمالاً صوب الحدود التركية أنا وأمي بعد أن رفض أبي مغادرة العراق وفضل أن يسقط مع سقوط بغداد، ويموت في مرسمه وبين لوحاته. وكفراشة أحرقها حبها لضوء المصباح، أبي أحرقه حبه المجنون لبغداد. كان رساماً مبدعاً وموهوباً بالفطرة. وبالصدفة وجد نفسه يحمل الريشة ويرسم شوارعَ وأبواباً وشبابيك المدينة التي تسكنه قبل أن يسكنها.

كان يستيقظ حَواليْ الثامنة، يشرب قهوته، ويتناول فطوراً خفيفاً تكون أمي قد وضعته على الطاولة قبل خروجها للعمل: فنجان شاي، مربى الكرز وجبنة بيضاء، وأحياناً تعد بيضتين مسلوقتين وحبة بندورة، يرش عليهما الكثير من الفلفل الأسود المطحون. يأخذ حمامه اليومي، ويرتدي ثيابه ثم يغلق على نفسه باب المرسم ويغرق لساعات طويلة في ألوانه وأشكاله. وبعد أن يتمكن منه التعب. يتوقف عن الرسم ويقوم بجولة

يتفقد أزهار الحديقة الخلفية وهو يأكل بعض العسل والجبن مع خبز الحنطة وربما حبة فاكهة، ثم يرتدي بدلته بلا كرافات ويذهب لتفقد محلاته التي ورثها عن جدي ومستأجريه. أذهب معه أحياناً في جولته تلك. وبعد العصر يعود ليجلس في المقهى القريب من بيتنا، فيجتمع حول طاولته الذين يأتون له بأخبار البلد، ويشربون شايَهُم وقهوتهم على حسابه، ويستذكرون الأيام الخوالي، ويقولون له "نعم" على كل شيء، مادام قد يفك دينهم ويهتمّ بهم.

كان أبي يستمتع بكل ثانية من حياته ويترك أمي ترفل بين كتبها ومجوهراتها وعطورها وفساتين نومها المهجورة ولا ينقصها شيء سواه.

أمي كانت تقضي نصف يومها في العمل بأحد المدارس الثانوية التي تدرس فيها مادة التاريخ، رغم أنها لمْ تكن في حاجة إلى عمل وإرهاق نفسها بالوقوف لأربع ساعات متواصلة كل يوم أمام ثلاثين تلميذاً أو أكثر، فقد كانت تملك ثروة كبيرة ورثتها عن أبيها هي أيضاً. أما النصف الثاني من اليوم فكانت تقضيه بين مكتبها الذي يطل على نافورة الماء الصغيرة التي تزين الحديقة وبين المطبخ. كنت ألمح من مكاني تلك الفجوة التي تزيد كل يوم بينها وبين أبي، والتي لمْ يفلح أيّ منهما في ترميمها أو رأب صدوعها.

أمي كانت دائماً أنيقة وكأنّها خارجة من إحدى مَجَلاَّتْ الأزياء التي تطالعها بانتظام. حين تذهب إلى مناسبة مسائية ترتدي فساتين الموسلين، وتتزين بعقد اللؤلؤ ذي الأدوار الثلاثة، أو تضع قلادتها الماسيّة التي كانت هدية خطبتها، وفي كل مرة تلقي فيها جاكيت الفرو على كتفيها، أعجب كيف يثبت عليهما فلا يسقط حين تحرك ذراعيها. حين تلبس البيجاما،

أتأمل ذلك المدى المرمري بين رقبتها وأعلى نهدها، متسائلة عن تلك الأشياء المعتمة التي تحجب عن أبي رؤية هذا الحسن الباهر.

كانت أمي تعتقد بشدة أنها لمْ تُخلق لتكون في تلك البلاد، لذلك ما إن تبدأ الإجازة الصيفية حتى نسافر إلى إسطنبول ومنها إلى بلغاريا ورومانيا، في حين يبقى أبي يمارس غرامياته ويرسم لوحاته بعد أن يزودنا بالمال الكافي للرحلة.

في تلك الليلة البائسة التي سقطت فيها بغداد، وجدت أمي الفرصة التي طالما انتظرتها وقررتْ أن نغادر البلاد نهائياً دون رجعة. كان القصف تلك الليلة ينزل على المدينة المحاصرة براً وجواً، غزيراً كالأمطار الشتوية وهي تتشلأ على الأسطح الملساء. وكان علينا أن نفلت بأرواحنا قبل أن تسقط علينا قذيفة جوية وتهدم البيتْ فوق رؤوسنا.

استطعنا الوصول إلى تركيا رغم أن الرحلة لمْ تكن سهلة بالمطلق. وفي اليوم التالي نقل التلفاز على الهواء مباشرة لحظة وقوف جندي أمام تِمْثَال الرئيس في ساحة الفردوس في قلب بغداد، واضعاً علماً مُرَقّطاً على وجه التمثال، معلناً سقوط بغداد، قبل أن تأتي عربة مدرّعة وتقتلع تِمْثَال البرونز من جذوره. وبعدها بأيام قليلة سقطت الموصل وكركوك.

كانت تلك المشاهد من أكثر الصور القاسية التي مرت في حياتي. والتي إلى اليوم ما تزال مطبوعة في ذاكرتي، ولا أقدر على التخلص منها. الآن بعد كل هذه السنوات الطويلة التي مرتْ أستطيع أن أعود إلى تلك الفترة وإلى قصة أبي الذي مات في قصفٍ صاروخي في نفس اليوم الذي وصلنا فيه إلى الحدود التركية.

من تركيا إلى اليونان ثم إيطاليا، وصولاً إلى بلجيكا. مررنا على كل هذه الدول في أقل من شهر. ولحسن الحظ أن أمي كنت تملك رصيداً بنكياً لابأس به في البنك المركزي اليوناني ساعدنا في السفر بسهولة من دولة إلى أخرى قبل الاستقرار بشكل نهائي في بروكسيل.

بغداد التي تعذبني باستمرار وتسرق مني اللذة اليومية. تعود إلي في أكثر لحظات انخطافي بالرسم غارقة في الدم والضياع والفوضى. ووجه أبي الذي كلما تذكرته أثار في أحزاناً ومخاوف، والذي كلما حاولتُ رسمه صار باهتاً وجافاً وبعيداً جداً بطول المسافة بين بغداد وبروكسيل. وأمي التي يوم غلبها الحنين إلى الوطن فجأة وقررت أن تزوره، ماتت في حادثة سير وهي في طريقها إلى المطار قبل سنتين، ولمْ يمنحها القدر فرصة أن تشم رائحة تراب العراق الغارق في الحروب الطائفية والصراعات السياسية، وتتنفس هواءَهُ المثقل بالمرارة للمرة الأخيرة.

***

كانت الأسابيع الماضية مملة وباردة، جعلتني أدرك أنني مشتاقة إلى كثير من الأشخاص والأشياء. في الحقيقة ليس كثيراً، شخص ومدينة، هل هذا كثير؟ لا أظن.

اشتقتُ إلى حبيبي ناصر "الشيوعي الأخير" كما أحب أن أناديه. مرت ثلاثة أيام دون أن يتصل بي على الواتس أب أو يبعث برسالة على المسنجر. حاولتُ أنْ أبادر وأتصل به لكن هاتفه مغلق. اختفى فجأة وكأن الأرض بلعته، وليس من عادته أن يغيب دون أن يخبرني بشيء. منذ عاد إلى وطنه قبل ثلاثة أشهر أو أكثر وهو في حالة إنزعاج دائم من كل شيء. من

الطقس والأرض والناس ومن الصخب والغبار ومن نفسه أيضاً. في آخر إتصال بيننا طلبتُ منه أن يرجع إلى بروكسيل وينسى أمر تلك البلاد التي لا تقدم له شيئاً سوى المشاكل. ويتخلى عن فكرة إقامة ذلك المشروع الذي سرق عقله، لكنه رفض رفضاً تاماً وأغلق المكالمة في وجهي بعد أن صرخ بهياج: لنْ أعود قبل أن أكسر رأس إبن الزانية الذي يقف في طريق مشروعي وأشق مؤخرته العفنة بالعرض.

ضحكتُ من كلامه البذيء، لّما تخيلتُ في ذهني شكل المؤخرة وهي مقسومة إلى أربعة أجزاء. وقلتُ لنفسي: الشيوعي هش كالقصبْ ولا يقدر على فعل أي شيء سوى الكلام الفارغ والثرثرة. فمنذ عرفته قبل سنتين تقريباً وهو تابث، لمْ يتبدل ولو قليلاً. ما زلتُ أتذكر تفاصيل ذلك الحوار الذي دار بيننا على الفيسبوك في بداية علاقتنا، حين كتب لي بالحرف الواحد "الشيوعية هي الحل المناسب للأزمات الممتدة على طول الخريطة العربية. وصار من الضروري أن نستبدل نظام السلطة على أساس تحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح، بنظام جديدٍ يشجع على الملكية العامة لكافة القطاعات، وأن تهيمن سلطة الشعب على كافة وسائل وقطاعات الإنتاج الرئيسة في الدولة، كالمطاحن والمناجم والمصانع، بالإضافة إلى كافة الموارد الطبيعية التي توجد ضمن الدولة". ثم أرسل لي بعد ذلك كتاب مبادئ الشيوعية لفرديريك انجلز بصيغة إلكترونية. وطلب مني أن أطلع عليه في أقرب وقتْ. أجبته حينها بثلاث كلماتٍ: إنك تُهَتِّرُ أيها الشيوعي الأخير.

في صباح اليوم التالي اتصل بي على الهاتف ليفصح عن رغبته في التعرف عليّ أكثر، وطلب مني أن أحدد موعداً لنلتقي. في حقيقة الأمر لمْ تكن لدي نفس الرغبة في التعرف عليه عن قرب، خصوصاً وأن الإنطباع الأول

الذي كونته عليه في تلك اللحظات القليلة التى كنا نلتقى فيها صدفة، يقول؛إنه شاب حالم وغير واقعي كما أنني أكبره بخمس سنوات تقريباً. لكنني كنت أريد فقط أن أمنح نفسى فرصة الخروج من ظلمة الغرفة التي سجنتُ فيها نفسي مدة طويلة ونسيان موت أمي ولو للحظات قليلة.

***

إلتقينا في نفس ذلك اليوم الذي طلب فيه رؤيتي.

حصلت الأمور بسرعة، كما تحصل عادة في الأفلام والروايات. ناصر مهاجر مثلي، جاء من الضفة الأخرى للعالم لكي يبحث عن حياة كريمة في بروكسيل. الشيوعي نحيف لدرجة لافتة للنظر، وهذا ما يجعله يبدو طويلاً رغم أنه مربوع أو يميل للقصر، أبيض، عيناه واسعتان حزينتان، خاصة عندما يصمت أو وهو يتأمل، وما يزيد من حزن العينين أكثر، الهالات التي تبدو من بعيد مثل الكدمات القديمة.

هكذا تعارفنا. وخلال أيام قليلة أصبحنا أصدقاء، وما كادت تمضى أسابيع حتى أصبح كل واحد يعرف الآخر وعن الآخر كل شيء. خاصة بعد أن اكتشف كل واحد منا أنه يحتاج بطريقة ما وجود الآخر في تفاصيله اليومية، كما أصبحنا قادرين على أن نخوض في عدد غير محدود من المواضيع، بما في ذلك الأمور المتعلقة بالجسد والجنس.

في إحدى الأمسيات وبدون تمهيد قال لي بانفعال:

– يبدو أني أحببتك يا عالية.

وحين بحلقت عيني باستغراب، تابع وهو يهز رأسه بحزن:

– وأعرف تماماً أنك غير مسؤولة عن هذا الشعور الذي صار يتملكني فجأة.

إلى حين تلك اللحظة كان جالساً على طرف الأريكة ونحن نتحدث، نهض واتجه إلى النافذة، بعد فترة من التأمل والصمت، قال بنبرة أكثر جدية:

– أفكر بالعودة إلى وطني.

قلت بدون تفكير وبنبرة ساخرة:

– أما أنا فحين أستعيد في ذهني قصتي مع الوطن ينتابني الغضب، ولا أعرف كيف أتجاوز الحرقة التي تشتعل في صدري كلما مرت بي الذكرى.

نظر إلي وكأنه يستنجد برأيي. كان صامتاً يتأمل مشهداً سُرْيَالِيّاً، ثم تمتم وهو يقف عند الباب:

– على كل، في الوقت الحالي، سأحاول أن أمنحك بعض الوقت للتفكير في علاقتنا. أعلم أنك تحتاجين إلى رجل يشعر بك ويبادلك الرغبة نفسها في الحياة ويقودك نحو أجمل الحواس المخبأة فيك.

لم أرد وكأنني غير معنية بما كان يدور من حولي. أقولها بيقين، ومع مرور الأيام أصبحتُ أشعر أن كل ذلك الضجيج الذي كنت أسمعه حولي هو في رأسي فقط، لا أدري هل كان من الضروري أن يغيب كل تلك الفترة فقط لكي يمنحني وقتاً للتفكير؟

أغبط ناصر أو كما أحب أن أناديه أحياناً "الشيوعي الأخير" على قدرته العجيبة في التعامل مع الحياة على أنها مجرد إحتمال يومي لا أكثر، جننتُ ذات مساء وكتبتُ له رسالة قصيرة، فقد خطر ببالي أن رجلاً مثله بعلاقاته

الكثيرة متعود على السفر من عشيقة صوب أخرى دون الالتفات إلى الخلف، أردت أن أذكره بوجودي لا أقل ولا أكثر.

عاد بعد أسبوع وأخبرني أنه كان في زيارة سريعة للمغرب، وأنه يفكر جدياً في استثمار الأموال التي جمعها طول السنوات التى قضاها في الغربة بالمدينة التي ولد فيها، كان شارد الذهن وعلى وجهه كثير من التعب، لمْ أرغب في أن أسأله عن سبب ذلك الحزن الخفي الذي يظهر على ملامحه التي كانت جامدة، ولا عن الدمعة التي كانت تقف على حواف رموشه.

ساد بيننا الصمت لنصف دقيقة أو ربعها، وضعتُ رأسي على ركبتي ونظرتُ إليه بعينين ذابلتين، وكل ما فعلته هو أنني استسلمتُ للبكاء ولا أعرف سبب ذلك، في تلك اللحظة التي كان يلفها المبهم وتحاصرها المشاعر التي لا تفسر إلا بالدموع، ضمني إلى صدره دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

اليوم أكتب إليه رسالة أخرى، لكن لا جواب منه، اختفى ناصر فجأة. كيف تركني على هذا النحو، قلت هذا الكلام بصوت مسموع كأنني أحدث أحداً في الغرفة، استلقيتُ في سريري وغفوت. حين صحوت بعد مدة لا أعرف إن كانت قصيرة أم طويلة، كان قد اتصل بي كمال.

لمْ أتصل به بل توجهتُ إلى مرسمي الصغير، إلى عالمي المغلق الذي أشعر خارجه بالكثير من الخوف. الرسم هو الشيء الوحيد الذي انتقل إلي عبر الوراثة من أبي، وقررتُ مجازفة أن أفرغ عمري كله له، وأمنحه أجمل سنواتي ليمنحني بالمقابل شعوراً بالنخوة، حين أكون أرسم أشعر وكأنني أمشي فوق قطع السحاب العالية، أو كأنني أسبح في الأفق البعيد الذي لا

تصله يد البشر. الرسم يجعلني حرة ومفعمة بالحركة والإبداع، ولا أتصور أبداً أن يأتي يوم وليس في يدي فراشة. الرسم يؤمن لي كل ما أحتاج إليه، راحة، حرية، مال، نشوة، شهرة، كل شيء تقريباً.

أنا أعيش لكي أرسم وأرسم وأرسم...

كمال الشرقاوي

الخميس 22 نوفمبر 2018

حانة المبرادور

سالامانكا

أشياء كثيرة تغيرتْ، ومرت عليها أوقات وأزمنة صعبة، الدنيا دوارة ومخادعة، اسألوا الذين مروا من هنا وستسمعون الجواب المفجع. أشعر أن وجهي صار منهكاً بالرغبات المدفونة، وأنني فقدتُ القدرة على الكتابة. في الحقيقة لمْ أعد قادراً على الجلوس أمام شاشة الحاسوب. ذاكرتي سرقت مثلما تسرق البيوت، وبدأت تتآكل، وكأن رصاصة ما شقتْ رأسي وحولته إلى غصن يابس تتهاوى منه الأوراق الجافة.

قبل سبع سنوات من هذه اللحظة التي يمتزج فيها الهواء البارد بالساخن ويتسع فيها الفارغ المليء بالتشوهات، حصلتُ على جائزة البوكر للرواية العربية. وتحولتُ من كاتب مغمور حد الغرق لمْ يسمع أحد به من قبل، إلى كاتب كبير بحجم الجائزة التي يتهافت عليها كل الكتاب. في تلك اللحظة تغيرتْ حياتي كلياً، وصرت في الصفوف الأمامية لصناع الرواية وفن الحكي.

اليوم أحس أنني مكبل ولا أقوى على الحركة، وتلك الأضواء التي خلقت دهشتي بالكتابة أضحتْ الآن مجرد ظلام حالك واندثرت. كل هذا حدث، وأنا أقف مكاني ولمْ أتزحزح خطوة واحدة، وكل ما فعلته هو أنني تركتُ وطني وسافرت إلى مدينة لا تعير أهمية كبيرة لأشيائي الصغيرة التي سحبتها ورائي من غرفتي. تلك الشهرة الواسعة لمْ تقف في وجه الدنيا التي تضطهدني في ما تبقى من كبريائي. وتلك الرواية التي أسميتها "سوط السلطان" والتي سرقت من عمري عشر سنوات من التفكير والتخطيط والسهر والتعب والكتابة. غدت في هذه الثانية مجرد نص مستهلك على حافة الموت.

جئت إلى سالامانكا لأبحث عن نصى الأجمل وعن رواية العمر والحكاية التي تعيدني إلى عالم الكتابة التي تتحول يوماً بعد آخر إلى شيء صعب التحقيق. أنا هنا لأفتش عن قصة تستحق أن تكتب. أريد قضية كبيرة تليق بكاتب كبير مثلي. أنا هنا لأنبش عن ذاتي التي ضاعت مني في زحمة الحياة ومنعطفاتها الضيقة. قبل كل شيء سأكتبُ لأفهم نفسي على الأقل.

كلما نظرت إلى هذا الفراغ الشاسع بداخلي إلا وشعرت بنوع من الخوف، إنقباض في بطني ورغبة في القيء والبكاء. اكتشفتُ الآن مدى غرابة أن تتجمد المخيلة وتفرغ الذاكرة، ويصير القلب قاسياً كالحجر. وغرابة أن يتبدل الشغف بالكتابة إلى خمول وعجز، ثم موت، ثم لا شيء. اكتشفتُ من هذه الحانة التي تطل على سالامانكا من فوق كم أن الحياة بائسة إن لمْ نعشها كما نشتهي، وكم أن الجو بارد جداً وأنا بعيد عن طاولة

الكتابة وعن الأبطال الذين كنت أشكلهم بأصابع يدي نقطة نقطة. وحرفاً حرفاً.

من هذه الزاوية يبدو المنظر جميلاً ومناسباً للكتابة، ولكن ماذا يمكنني أن أكتب؟ من أين أنطلق؟ وأين يجب أن أنتهي؟ عَمَّنْ سأكتب ولمن؟ بعد مرور سنوات طويلة عن آخر نص كتبته، لستُ أدري لماذا أصر على ملاحقة اللغة التي ترفض الانصياع وتكون في متناول يدي وقلبي، لستُ أدري السبب الذي يجعلني متمسكاً بالوهم، وهم كتابة رواية التي من المؤكد أنها ستكون روايتي الأخيرة.

أشتهي أن أكتب آخر نص لي هنا في هذه المدينة التي كلما شعرتُ أنني فهمتها وعرفتها صارت أكثر غموضاً والتباساً. بالنسبة إلي صار كل شيء واضحاً، ولا يمكنني أن أنكر أنني أعيش أزمة كتابة.

***

رجعتُ إلى البيت في حالة سكر طافح ذلك المساء.

هكذا وجدتني في نهاية المطاف محملاً بالكثير من الأشياء التي يجب أن أحكيها عن نفسي وعن عاداتي الجديدة، لن أحكي عن طفولتي وعن أسرتي ولا عن المدينة التي كبرت فيها، لسببين رئيسين. أولهما لأنني غير قادر على العودة إلى تفاصيل الماضي البعيد وثانيهما لأن ما يهم في هذه الحكاية هو الحاضر وما يقع الآن.

***

مضى وقت طويل وأنا أتجسس على أنخيل وإميلدا، جيراني في العمارة. في البداية وبالصدفة سمعتُ حواراً قصيراً كان يدور بينهما، حينما كنتُ في

الحمام. ومنذ تلك اللحظة وأنا أراقبهما من نافذة المطبخ التي تطل على مطبخهما، أو أسترق السمع من خلف الجدار الذي يفصل حمام شقتي عن غرفة النوم الخاصة بهما.

أنخيل شاب في حدود الأربعين سنة وإميلدا هي أيضاً في نفس العمر تقريباً لكنها تبدو أصغر منه وأكثر منه حيوية. أنخيل وإميلدا مهاجرين من الأرجنتين جاءا إلى سالامانكا منذ ثلاث سنوات، هي تشتغل في محل لبيع الملابس النسائية وهو نادل في حانة صغيرة تقع في قلب المدينة، لهما طفل في عمر التسع سنوات واسمه خافير.

في ذلك المساء كانت إميلدا مخنوقة ببكاء تحاول أن تكتمه، وأنخيل، يحكي أحداث سنوات بعيدة وكأنها جرتْ بالأمس، كان يتكلم بحرقة.

– ندمتُ كثيراً يا إميلدا على ترك بوينس آيرس، لمْ أكن أتوقع أن تكون الأمور صعبة بهذه الطريقة في سالامانكا، يوم قررتُ الهجرة كانت كل أحلامي مربوطة بهذه المدينة، لكن الواقع شيء آخر غير الذي تمنيناه.

ردتْ إميلدا بنبرة مخنوقة:

– فتش عن عمل آخر يا أنخيل.

بعد صمت طويل قال:

– أفتش بشكل يوميّ، لكن لمْ أجد إلى الآن عملاً أفضل. مصاريف مدرسة خافير غالية جداً. يجب أن نجد له مدرسة أرخص.

تصمت، لا ترد عليه الرد الذي كان ينتظره، فيكرر كلامه مرة أخرى بخصوص المدرسة، في تلك اللحظة قالت:

– طلب مني مديري في العمل أن أشتغل عنده في تنظيف البيت كل يوم أحد وبهذه طريقة نستطيع دفع مصاريف خافير دون اللجوء إلى تغيير المدرسة.

صمتت للحظة ثم أردفت:

– ما رأيك؟

ضحك بصوت مرتفع ضحكة متقطعة مستفزة ثم رد:

– أتوقع أنه يقصد مضاجعتك كل يوم أحد.

ساد صمت لثوانٍ قليلة قبل أن أسمع صوت الباب وهو يفتح ثم يغلق بقوة تعبيراً عن الغضب، في تلك اللحظة رن هاتفي فتركتُ الحمام وتوجهت إلى غرفة النوم للرَّدِّ على المتصل. كانت على الخط نورة. الفنانة التشكيلية التي تعرفتُ عليها قبل يومين في بروكسيل، وصارت بيننا حينها علاقة حميمة لمْ أستوعب إلى هذه اللحظة كيف حصلت.

قبل أن أنطق بأي كلمة قالتْ بنبرة يغلب عليها المزاح:

– أتوقع أنك مشتاق إليّ، ولذلك اتصلت بك في هذا الوقت.

شعرتُ أنني بحاجة إلى بعض الكلمات التي قد تبدو لها قاسية كي أوقف هذه العلاقة التي لا أقدر على المضي فيها أكثر. شيء ما في داخلي كان يدفعني إلى التصدي لهذه المرأة التي تنوي اقتحام حياتي دفعة واحدة. قلت لها ممازحاً بعد لحظة من الصمت والتفكير:

– أتوقع أن ما حدث بيننا لمْ يكن إلا خطأ علينا تصحيحه بأي شكل من الأشكال. وأنا شخص سوداوي لا يصلح للرُّفقة أو الحوار، وكما

كانت تلقبني أمي دوماً بـ"الجحش" أتوقع أنني وصلت إلى مرحلة بغيضة لمْ أعد أشتاق فيها إلى أحد. قد أكون فعلاً مشتاقاً إلى جسدك لا غير، لكن هذا لا يعني أنني مشتاق لك ككل.

صمتت للحظات طويلة قبل أن ترد بنبرة فيها الكثير من الإحراج:

– طوال هذه السنواتْ لَمْ يستطِعْ أي رجل أن يجعلني أصل إلى منتهى لذة الجنس، إلى الأورجازم الذي لمْ أحققه إلا بالعادة السرية حتى اعتقدتُ لوقت طويل أن يدي هي العضو الوحيد القادر على فهم شفرات جسمي، وحدك من استطاع أن يمنحني حق اكتشاف جسدي ذرة ذرة. لا أريد أن أثقل عليك مادام الوضع عندك هكذا.

قالت هذه العبارات ثم أغلقتْ الهاتف.

أدهشتني حد الصمت الجرأة التي تكلمت بها. وأدهشني أكثر ذلك التصالح الكبير الذي بينها وبين جسدها ورغباتها. لمْ يسبق لي أبداً أن صادفت امرأة بهذا الإندفاع.

عالية، أكثر من مجرد صدفة عابرة في معرض للفن التشكيلي، هي أكثر من مجرد دهشة تملكتني في تلك اللحظة التي وقفتُ أمامها من أجل أن أخبرها أنني معجب بلوحاتها، في الحقيقة لمْ أكن أتوقع بتاتاً أن تشدني بتلك السرعة المخيفة، وتحولني من زائر فضولي يبحث عن قصة مهمة ترجعه إلى عالم الكتابة، إلى رجل مشتهى ومرغوب، وكأنني كنت أنتظر امرأة تهتم بتفاصيلي الصغيرة وتتدفق صوبي دون تفكير أو تخطيط، وتسحبني إليها دفعة واحدة. لا أتذكر متى كانت أخر مرة شعرتُ فيها أنني شخص على هذا القدر من الفتنة والدهشة.

في وقت الذروة تماماً، ولسبب لا أدركه بوضوح، حاصرتني صورة زوجتي نورة وأنا بين أنفاس عالية وارتعاشاتها. رأيت نورة بعين خيالي تضع يدها بين فخذي ثم تمسك بقوة خصيتي وتضغط عليها وكأنها تريد أن تنتزعها من مكانها، نورة التي نفرتُ منها وقتذاك، وكدتُ أقتلها في أكثر من مناسبة، صارت تطارد خيالي لتحتل براحتها الكريهة أغلب أحلامي.

***

تعرفتُ على نورة في نفس السنة التي حصلتُ فيها على جائزة البوكر، التقيت بها حين كنتُ في زيارة لأحد المستشفيات الخاصة بالأمراض العقلية، بغرض كتابة نص عن مرضى الفصام، وكانت هي الطبيبة المسؤولة عن ذلك القسم، تبادلنا أرقام الهواتف بحجة مساعدتي في فهم طبيعة المرض، ولكي تقربني أكثر من العالم الذي تعيشُهُ الحالات التي تعاني من الفصام.

ومع مرور الشهور تحولت العلاقة بيننا من علاقة بين روائي يجمع المعلومات اللازمة لمشروعه الجديد وبين طبيبة تقدم أجوبة على كل الأسئلة التي تطرح عليها، إلى علاقة بين رجل وامرأة جمعت بينهما الأقدار وكبر بداخلهما الحب. في تلك البداية الشاهقة أحببت نورة كما لمْ أحب امرأة من قبل، وأتوقع أنها أحبتني أيضاً بنفس العمق وربما أكثر.

بعد مرور سنة من دوخولنا في علاقة رسمية، تزوجنا رغم كل الأشياء التي كانت تقف في وجهنا، رغم اختلاف اهتماماتنا التي كانت تجعل المسافة بيني وبينها أكبر، رغم فارق السن، رغم اعتراض أمها على زواج ابنتها الوحيدة من رجل عاطل عن العمل، وأكبر همومه في الحياة هو أن

يكتب قصصاً ويصدر كتباً ويحضر معارض وندوات، رغم أنني لا أستطيع أن أنجب منها أطفالاً بسبب تشوه في الحيوانات المنوية، رغم كل هذه المعيقات تزوجنا ولكن فرحنا لمْ يدم طويلاً.

فجأة تبدلت الحياة، وكل التفاصيل التي كنا نتوقع أنها لا تموت مهما قستْ الدنيا علينا ماتت، وكل الأحلام التي رسمناها معاً تبخرتْ وصارتْ مجرد ذكرى حُبّ جميل، تلك الأحلام أصبحت الآن مثل الإثم. القصة التي جمعتنا ثم رمتنا كل واحد في زاوية صارت اليوم مجرد ذكرى بائسة وسخيفة.

اعتقدتُ لوقت طويل أن الحب وحده كافٍ لنعيش الحياة التي نشتهي، لكن الواقع اليومي كان له وجهة نظر أخرى. مرتْ علاقتنا من أزمة قاسية لمْ نعرف كيف نتجاوزها، وقعنا في صراع سخيف وتصادم دائم لعدة أسباب قد لا يكفي الوقت لذكرها جميعاً لكن أبرزها، كان؛ إنزعاجها الكبير من جلوسي طيلة اليوم خلف طاولة الكتابة، ومن انشغالي المتواصل بالقصص التي أنسجها في خيالي، ومن الأبطال الذين أعيش بينهم على الورق، كانت تقول من حين لآخر أنني شخص مهووس ومريض بالقصص التي لا يمكن أن تحدث في واقعنا، وأنني صرتُ بارداً مثل قطعة ثلج، وأن الحياة صارت معي بلا طعم ولا لون ولا تحتمل.

أما أنا فصرتُ أحسها ثقيلة على القلب والخاطر، وبعيدة بطول المسافة بين ما أكتبه وما تراه هي في نصوصي التي كانت تقرأها في السنة الأولى قبل الزواج، فمنذ تزوجنا لمْ تمنح نفسها فرصة أن تحمل بين يديها ورقة من بين تلك الأوراق التي كانت تتكدس فوق سطح المكتب. لمْ أعد أشعر معها بالشغف، وكأن شيئاً ما تحطم بيننا بعد أن سقط من علو شاهق، ولا حتى

بذلك الإرتياح البسيط الذي يمكن أن يمنحني بعض الصبر لأستمر معها في نفس البيت وأنام بجانبها على نفس السرير.

تجمدت مشاعري وأعلنتُ العصيان على نفسي وعليها، هجرتها لما يقارب العام وعزفتُ عن مضاجعتها، وهذا الأمر سبب لها شرخاً نفسياً قاسياً وجعلها تشعر بأنها لمْ تعد امرأة مرغوب فيها وهي لمْ تتعدَ الخامسة والثلاثين بعد، ولمْ أعد أمنحها شيئاً على الإطلاق.

كنت أتلذذ بالنظر إلى جسدها المنسى وأحاسيسها المقبورة، أردتُ أن أجرب فيها أكثر الأسلحة فتكاً بالنساء "البرود وعدم الإهتمام". كنت أحاول أن أخرج أسوء ما فيها، وأدفعها إلى طلب الطلاق أو الخيانة، لكنها لمْ تفعل أي شيء من الأمرين، لم تطلب الطلاق ولا أعرف لماذا، فلو كنتُ مكانها لما بقيتُ مع شخص لا يكلف نفسه عبء النظر في وجهي ثانية واحدة، ولمْ تخُني أيضاً، أنا متأكد من هذا الأمر، لأنني كنتُ أراقبها بإستمرار، وأتبعها كل صباح إلى مكان عملها، وأتجسس على مكالماتها وعلى بريدها الإلكتروني وعلى حسابها في الفيسبوك. وكـأنني بهذا التصرف كنت أبحثُ عن شيء قبيح فيها أبرر به فداحة ما أفعله، في تلك اللحظات كنت أتمنى لو أنها فعلاً تخونني وتستغفلني ولو مرة واحدة، كنت أتمنى لو أنها تقفز فوق الحواجز الحمراء وتفعل بي مثل ما أفعل بها، فقد خُنْتُها بعدد شعر رأسي. خُنْتُهَا مع الشغالة التي كانت تأتي كل يوم جمعة لتنظيف البيت، ومع صديقتها المقربة التي كانت تزورنا من وقت لآخر، ومع بائعة الخبز وبائعات الهوى. خنتها مع الكاتبات والشاعرات ومع كل امرأة كنت أصادفها في طريقي.

في البداية كنت أهمس في سري أن تلك الرغبة في الإنتقام لنْ تصل إلى درجة الخيانة، وأنني سوف أتراجع عن كل شيء في اللحظة الأخيرة، لكنني تماديتُ تحت سقف رد الإعتبار لنفسي التي أهانتها أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة، لمْ أكن أستحمل نظرة الشفقة التي كانت ترمقني بها كلما فتح موضوع الإنجاب والأطفال، حتى استفقتُ لأجد نفسي في شقة صغيرة في عري تام بصحبة امرأة قالت لي عبثاً إنها معجبة بكتاباتي، متورط في الفعل الذي كنت موقناً أنني لنْ أنزلق إليه مهما حدثْ. اكتشفتُ حينها أن بعض الخيانات تقع دون رغبة كاملة. أغراني إكمال التجربة رغم شعوري بقلق ورهبة وخوف، وتوقعتُ دخول نورة حاملة خنجراً وستغرزه في صدري، وتخلفني جثة ستتجمع عليها الغربان بعد حين، ثم تجر تلك المرأة التي كانت بين أحضاني من شعرها بقميصها الداخلي القصير ماسحة بها أرضية الشارع، غامسة جسمها في كل أوحال وقاذورات الطريق، كل هذا فكرتُ فيه، لكن شيئاً لمْ يخفني أو يوقفني، سرتُ كالمغيب. الغريب أنني لمْ أعد أذكر هذه المرأة التي اقترفتُ معها الخطيئة الأولى.

لمْ أكن أخطط لكل هذا صراحة، تحولنا في غفلة من الحياة إلى حيوانين يتصارعان لنعرف من يمكنه أن يمرغ أنف الآخر في الأرض، وتحول البيت إلى زنزانة ضيقة وبائسة، آلَ الوضع إلى معركة دامية تدور أحداثها بين أربعة جدران، لكنني لمْ أستمر طويلاً في تلك المعركة التي كنت أحسها ثقيلة ومتعبة ولا تستحق كل ذلك الجهد، انسحبتُ بهدوء تام دون أن أقول أو أفعل أي شيء، تركتها معلقة على أسئلتها التافهة الكثيرة التي لمْ أكن أملك جواباً لها في تلك الفترة، والتي كانت أصعب بكثير مما كنت

أظن. سافرتُ إلى سالامانكا بعد أن حصلتُ على منحة وإقامة أدبية لأكتب روايتي الجديدة.

خشيتُ من نفسي على نفسي، خشيتُ أن تحاصرني دواخلي بأسئلة أكثر، تركتُ كل شيء خلفي وقررتُ الإنفراد بذاتي في مدينة لمْ أزرها من قبل. كنتُ أعلم أن ذلك الهروب الجبان من البيت والمدينة والوطن لنْ يحل المشكلة بيني وبين زوجتي نورة، بل على العكس من ذلك سيعجل بالنهاية. لمْ أتصور أبداً أن تتغير نظرتي في هذه اللحظة بالضبط إلى نورة، وكل ما كنت أراه فيها قبيحاً ولا يطاق بات الآن شيئاً جميلاً، حتى خيل إلي أنني أنا المهووس والمريض والقبيح الذي لا يحتمل.

لمْ أعد أجد في نفسي أيّ قدرة على تذكر تفاصيل تلك المرحلة الموجعة التي جمعتني بنورة، صرتُ أكتفي بمراقبة الجيران من النافذة الزجاجية الصغيرة، هذه المرة وقفتُ وراء النافذة ووضعتُ أذني على الزجاج وأطفأتُ نور المصباح كي لا يلمحني أحدهم. كان أنخيل لحظتها يجلس على كرسي خشبي بالقرب من إميلدا التي كانت تغسل الأواني. دار بينهما حوار سريع، قال أنخيل بعد أن أشعل سيجارته:

– هل أزعجك كلامي؟

إستدارتْ نحوه ثم قالتْ:

– يزعجني الوضع ككل.

سحب نفساً عميقاً ثم نفث الدخان عالياً ورد:

– سيمضون في تسريح العمال.

– لا يا أنخيل.. أرجوك لا تَقُلْ هذا الكلام.

– هذا ما أخبرني به صاحب الحانة.

صاحت بغضب شديد:

– لا أريد العودة إلى الأرجنتين.

– من ذكر أي شيء بشأن العودة؟ !

واصلتْ بنفس النبرة:

– أنا جادة.

– لا تقلقي سأجد محامٍ وأطلب منه مراجعة عقد عملي.

قال هذه الجملة ثم قام من مكانه وغادر المطبخ، بعدها شعرتُ أنني بحاجة ماسة للكتابة، شعرتُ أنني مزدحم من الداخل ويجب أن أفرغ دواخلي دفعة واحدة، توجهتُ إلى طاولة الكتابة وقررتُ أن أفعل مثل ما فعل فيكتور هيجو ذات مرة، خلعتُ ثيابي كلها وبقيتُ عارياً تماماً، وكتبتُ أول جملة خطرتْ ببالي حينها، "***لم أجد كلماتي فقد هربتْ كلها مني حتى كدتُ أصاب بالبكم، التبس علي كل شيء***"، ثم أخذتُ نفساً عميقاً وكأنني عدتُ إلى الحياة فجأة، كانت هذه هي أصعب مرحلة من وجهة نظري، أول جملة دوماً ما تكون صعبة الولادة وعسيرة، أحسستُ أنني وضعتُ أول قدم في مشروعي الروائي الجديد، ولمْ يتبقَّ أمامي سوى المواصلة بنفس الشغف الذي يجتاحني في هذه اللحظات. قررتُ فجأة أن أكتب قصة أنخيل وإميلدا لما فيها من أحداث مشوقة، سأكتبها بتزامن مع ما يقع لهما خطوة بخطوة، ويمكن أن أتدخل بطريقة ما لأغير مسارها حتى يتناسب مع الخط الدرامي الذي سيمكنني من شد القارئ وإثارةِ فضوله. أخيراً وجدتُ شيئاً يمكن أن أكتب عنه، وأكسر جدار الصمت

الذي يزداد سمكاً كل يوم أكثر. نعم أستطيع أن أقول في هذه اللحظة أنني وجدتُ حكاية تستحق أن تكتب.

رن جرس الباب لأول مرة منذ انتقلتُ للعيش هنا، وأنا لا أملك في هذه المدينة أي أحد، ليس لي أصدقاء ولا معارف، حينها لمْ أفكر كثيراً فتحتُ الباب، كانتْ تقف عند العتبة السيدة أماندا مشرفة البناية، احتبستْ الكلمات في حلقي قبل أن أقول بصعوبة:

– مرحبا سيدة أماندا.

قلت هذه الجملة وقد اتسعتْ عيناي في خوف شديد، وشعرتُ حينها أنني في ورطة حقيقية ومن المؤكد أن الجيران قد لمحوني وأنا أتجسس عليهم، وأن هذه المرأة السمينة التي تقف أمامي جاءت لتوبخني على هذا الفعل المشين الذي أقوم به بعد أن وصلتها الشكوى من أنخيل وإميلدا.

رفعت بصرها صوبي بتثاقل ثم قالت بصوت خافتْ كأنما تخاطب نفسها وهي تمسك بين يديها علبة صغيرة:

– أعتذر على إزعاجك في هذا الوقت المتأخر، لكنني أحببتُ أن أقدم لك هذه الشكولاطة.

صافحتها مبتسماً ثم أخذتُ منها العلبة، فبادلتني نفس الابتسامة، صمتُ للحظات ألقيتُ خلالها نظرة على السلالم ثم طلبتُ منها أن تتفضل بالدخول. دلفتُ إلى الشقة دون تردد، سألتها ونحن نجلس على الأريكة جنباً إلى جنب عمّا تريد أن تشرب، فقالت أنها تريد كأس ويسكي إن كان موجداً عندي، أحضرت لها الويسكي مع القليل من الثلج، وأحضرتُ لنفسي زجاجة بيرة، أخذتْ أول رشفة من كأسها ثم قالت:

– أتمنى أن تكون مرتاحاً بالإقامة في هذه البناية.

لمْ أكن أتخيل في أسوء الأحوال أن تفتتح النقاش بيننا بهذا السؤال، أحسستُ لحظتها أنها تخفي شيئاً ما خلف كلامها، ضحكتُ بصوت مسموع ثم أجبرتُ نفسي على الرد:

– أكيد مرتاح جداً.

"حسناً"، قالت هذه الكلمة وهي تتجول ببصرها في زواية الشقة وكأنها تبحثْ عن شيء ما، ثم أردفت:

– شقتك أنيقة رغم أثاثها القليل.

صمتت للحظات طويلة وهي تتأمل المكتب الذي أضع فوقه جهاز الحاسوب، ثم واصلت كلامها:

– سمعتُ أنك كاتب.

استغربتُ كيف عرفتْ أنني كذلك، أتذكر جيداً أني لمْ أخبر أي أحد عمّن أكون، ولا عن طبيعة عملي ولا جنسيتي، لا أنكر أنني شعرتُ ببعض الخوف من تلك المرأة التي اقتحمتني بتلك الطريقة دون سابق إنذار، لكنني لمْ أود أن أسألها عن مصدر المعلومة، وغيرتُ دفة الحديث بالقول:

– منذ متى وأنت مشرفة على هذه البناية؟

فهمت من سؤالي أنني لا أرغب في الكلام بخصوص موضوع الكتابة، فردتْ بسرعة كأنما هي أيضا تتهرب من الإحراج الذي سببته لها دون قصد مني:

– منذ ثلاث عشرة سنة.

ضاقتْ عيناها وهي تضيف:

– حين مات زوجي بسبب فشل كلوي حاد، تركتُ مدريد وجئتُ إلى هنا، ومن عمل إلى آخر وجدتُ نفسي مشرفة على هذه البناية...

قاطعتها بحركة من يدي دون أن أشعر، وطرحتُ عليها سؤالاً خطر ببالي لحظتها:

– هل لك أولاد؟

لمْ ترد بل غرقتْ في تفكير عميق حتى خيل إلي أنها نامت جالسة وكأس الويسكي في يدها. استدارت نحوي بكامل جسمها. تأملتني قليلاً، ثم قالت بنبرة فيها الكثير من الحسرة والألم الخفي:

– أنا لا أستطيع الإنجاب.

ضحكت وهي تحاول أن تخفي الدموع التي كانت تقف على حافة رموشها، ثم أردفت بنبرة امتزجتْ فيها السخرية بالمرارة:

– لحسن الحظ طبعاً، فالعالم يكاد ينفجر من كثرة البشر.

لحظتئذٍ شعرتُ بأنني كنت مخطئاً بطرح هذا السؤال، وقد فتحتُ عليها كل أبواب الماضي الذي من المؤكد أنها ترفض الرجوع إليه، لمْ تمهلني حتى أجد الكلمات المناسبة لهذا الموقف الذي وضعتُ نفسي فيه عبثاً، ورغم صعوبة الموقف إلا أنها حافظت على هدوئها وباغتتني بسؤال ربما كان متوقعاً بالنسبة لي:

– هل أنت متزوج؟

وقبل أن أجيبها وأريح فضولها، اجتاحتني نوبة ضحك هستيري، ثم إرتجف صوتي فجأة وانتقلتْ الرجفة إلى يدي وأنا مُمسك زجاجة البيرة، حاولتُ التماسك لكن ارتجاف يدي ضاعف من صعوبة المهمة. رمقتني أماندا بنظرات خاوية كانت تحمل بين طياتها الكثير من المعاني، إلا أنني تجاهلتُ النظر إليها عن عمد، إذْ لمْ يكن يهمني ساعتئذٍ سوى أن أجيب دواخلي التي كانت تطرح نفس السؤال هل أنا متزوج أم مطلق؟ داعبتُ خصلاتْ شعري بيدي اليسرى، ثم أجبتها بلهجة حازمة:

– أنا مطلق، منذ فترة قصيرة.

اتسعت عيناها في دهشة وهي تهتف:

– أفضل لك.. صدقني.

تراقص على محياها شبح ابتسامة خفيفة، لكنها تداركتْ الأمر بسرعة وأضافت:

– أعتذر منك على هذا الكلام، لكنني صرتُ أكره الزواج بسبب جيرانك في الشقة رقم خمسة.

– أتعنين السيدة ذات الشعر البني؟

– إميلدا نعم، وزوجها أنخيل.

صمتت لثوانٍ قليلة ثم أردفتْ وعلامات الإنزعاج واضحة على ملامح وجهها الذي أنهكته الوحدة وتمكنت منه التجاعيد التي تفرضها قسوة الزمان على أي امرأة في عقدها الخامس:

– مثل كل المهاجرين هنا، ينفقان ما يتعدى إمكاناتهما، لا أقصد انتقادهما، ولستُ عنصرية، لكن يحب أهل أمريكا الجنوبية الشراب بشدة، ويصرخون كثيراً. وهذا الصراخ المتواصل يسبب إزعاجاً لنا جميعاً.

كنت على وشك أن أقول لها إن الأمر لا يشكل لي إزعاجاً، بل على العكس من ذلك فقد منحني فرصة أخرى للغوص في جحيم الكتابة من جديد، لكنني التقطتُ أنفاسي بصعوبة، ثم قلتُ:

– أسمعهما أحياناً يتحدثان، لا أقصد أن أكون فضولياً لكن ليس بيدي حيلة، أكون في الحمام وتصلني بعض الكلمات المتقاطعة، فهمت من خلال ما سمعتُ أن الزوج سيطرد من عمله، وهذا أمر مؤسف للغاية.

صمتتُ للحظاتْ قبل أن أضيف:

– في الحقيقة أود مساعدتهما، لكن لا أعرف كيف.

استوقفتي بحركة من يدها، ومن الواضح أن ملامح عدم الفهم قد رسمتْ خطوطها على وجهها المتعرق، وكأنما تبحث عن كلمات مناسبة لتبدأ بها الكلام، قالت بدون مقدمات بعدما أخذتْ رشفة أخرى من كأسها:

– في الطابق الخامس، الشقة رقم عشرة، يسكن عجوز ثري جداً اسمه أرتورو، كان قبطاناً سابقاً في القوات الجوية، يعيش وحده، ويحتاج من وقتْ لآخر لامرأة تساعده في تنظيف البيت، وأقترح عليك أن تتعرف عليه، ثم تقترح عليه بدورك إميلدا لتعمل عنده في البيت، رغم أنه إنسان نرجسي ولا يفتح المجال لأي كان أن يتقرب منه، لكن يمكن أن تجد طريقة مناسبة للتعرف عليه.

ضحكت بنبرة عالية ثم واصلت:

– أنت كاتب أليس كذلك. إذن باستطاعتك أن تجد كذبة على مقاس ذلك العجوز النرجسي بسهولة.

أومأتُ برأسي إشارة على الفهم، وقلتْ:

– ولماذا لا تقومي أنت بهذه المهمة وتفاتحينهُ في الموضوع؟

ضحكت مرة أخرى ثم ردت:

– ببساطة يا عزيزي لا أقدر. لأنني كنتُ أعمل عنده في فترة سابقة، لكن الحقير اتهمني بسرقة عشرين ألف أورو من خزانته، ومنذ ذلك الوقتْ لمْ أعد أطيق النظر إلى وجهه النحيف.

ثرثرتْ أماندا طويلاً، قالتْ أن ذلك الكهل يضع كل ثروته في خزانة حديدية قرب سريره، ويضع تحت مخدة نومه مسدساً وسكيناً خوفاً من أن يتسلل سارق إلى بيته.

ورغم أهمية الموضوع، كنتُ أستمع لها بسهوٍ، على غير عادتي، فحالتي النفسية لمْ تكن تسمح لي بالإنصات الكامل، ظللتُ كل نصف دقيقة أومئ برأسي أو أسأل أسئلة مقتضبة بطرح أداة السؤال فقط من نوعية: لماذ؟ وكيف؟ التي تتطلب إجابات مسهبة لكي يتسنى لي أن أرتب أفكاري كما أريد.

قاطعتْ كلامها أصوات متداخلة وصراخ قادم من شقة أنخيل وإميلدا، في تلك اللحظة مالت على أذني هامسةً:

– نكمل النقاش غداً، سأزورك مرة أخرى إن لمْ تمانع طبعاً.

- يسرني ذلك.

- اه... نسيتْ أن أسألك. أنت تتقن اللغة الإسبانية بشكل مدهش. متى تعلمتها؟

ضحكتُ ضحكة طويلة وقلتْ:

- غداً سأجيبك عن هذا السؤال المهم.

غادرتْ شقتي بعد جلسة مرهقة لكنها في ذات الوقت كانت مفيدة بالنسبة لمشروعي الروائي. هرولتُ بعدها مباشرة إلى المطبخ لكنني لمْ أسمع الحوار بشكل جيد، كانت الكلمات تأتي متقطعة وغير واضحة، لأن الصوتْ كان قادماً من غرفة النوم الخاصة بهما، فتوجهتُ بعدها إلى الحمام، وضعتُ أذني على الحائط، فسمعتُ أنخيل يسأل إميلدا بنبرة باكية:

- هل أسطو على بنك أم أنتحر يا إميلدا؟

حينها خطر ببالي أن أسجل الحوار الذي يدور بينهما على الهاتف، حتى أتمكن من الإستفادة منه بطريقة تسهل علي الكتابة. وضعتُ الهاتف في مكان مناسب ثم ضغطتُ على زر التسجيل وخرجتُ من الحمام مسرعاً لكي لا أشوش على الصوت الذي سأسجله. الآن بدأت الحكاية التي سأطلق عليها اسم تأثير الفراشة. حكاية التفاصيل الصغيرة والهامشية والزائدة.

تمددتُ على الأريكة كعادتي كل مساء، وأخذت أستحضر ملامح نورة وكلماتها. من أين يأتي كل هذا الكم من الذكريات التي تنحدر بي نحو مهاوي الفقدان؟ من أين يأتي كل هذا الوجع وهذه الأشواق التي تأكل أطرافي يومياً؟ هل بدأنا الحكاية؟ أم مازلنا على حافة التفاصيل الزائدة؟ لا

أيها القارئ، لا توجد تفاصيل زائدة. بل تفاصيل ذهنية اختلطت عليّ مشاهدها.

نورة خير الدين

الخميس 22 نوفمبر 2018

أصيلة

سبعة أيام، سبع ليالٍ مضتْ، على وفاة أمي.

أنظر صوب الجدار، إلى آخر صورة التقطتها لها، تظهر بفستان أبيض وأساور ذهبية وكفين صبغتْ باطنهما بالحناء، ذهبتْ أمي في ذلك الفجر البارد ولمْ تترك خلفها سوى صورة المرأة الطيبة الهادئة. تركتْ نفسها تنزلق بسرعة نحو فجوة الغياب الذي لا قرار لنهاياتها. كنتُ دائماً أتمنى أن أموت قبلها حتى لا أراها تنطفئ أمامي أو تتألم. ها هي ذي أمي تغادر وتدخل عالماً يشبه الضباب الذي كلما رأيناه، ينتابنا خوف مبطن فينا. غسلتُ وجهي بملامحها وبَكَيْتُ. ومن يومها وأنا أتدرب على ابتلاع الألم جرعة واحدة، لكي لا أشعر بمرارته. لمْ يكن الأمر سهلاً ولكن كان علي مواجهة كل شيء لوحدي. انطفأت أمي ومعها انطفأت مرحلة من حياتي.

بقيتْ أمي بالمستشفى شهراً كاملاً تصارع المرض، لمْ أرها لحظة واحدة تتأوه ألما. كنت كلما دخلتُ عليها انفرجت أساريرها وزالت عنها الزرقة المخيفة التي تجتاح وجهها. وظلت بين الآلات وعلب الأدوية ومن جراحة إلى أخرى حتى تمكن منها ذلك المرض الخبيث الذي ينهش الجسد ويفتته من الداخل ولا نفطن له إلا بعد فوات الأوان. ما الذي دفع تلك

الخلية إلى التحول إلى كائن قاتل يمزق كل الخلايا المحيطة به فجأة؟ الأمر كله يحصل في ثانية. المدة الفاصلة بين الموت والحياة ثانية. بين الحب والكراهية ثانية. بين الضحكة والابتسامة ثانية. بين الخير والشر ثانية.

أمي لمْ تفقد ألق عينيها حتى في أقسى اللحظات وأكثرها ألماً وخوفاً، لمْ يستطع المرض منعها من رؤية الحياة كما تشتهيها، ولا حتى أن ينزع من عينيها تلك الشعلة الزرقاء رغم أنه فتك بجسمها فتكاً كبيراً. أمي كانت تستطيع أن تواجه حرقة الشمس وقسوتها مفتوحة العينين. وتواجه تقلبات الحياة بصبر وتحدٍ.

أغمضتْ أمي عينيها قليلاً لمقاومة الدمعات والارتجافات التي ارتسمت في المحجرين. ماتت أمي وأنا الذي كنت أظن أنها ستقاوم المرض وتتغلب عليه وترجع إلى الحياة منتصرة على الموت الذي يأتي فجأة، اليوم صار لزاماً علي أن أقبل بفكرة أن أمي كذلك يمكن أن تموت مثل الآخرين. اليوم كلما حاولتُ أن أنسى تلك اللحظة التي غابت فيها نهائياً عن الدنيا، أخفق.

ههنا تماماً بين السحاب والبحر، أقف على هامش الحياة أرفع نظري إلى السماء، كانت الرياح تكشح الغيوم بعيداً. منكسرة أمشي. أدور على نفسي داخل هذا الصمتْ المطبق، البحر جميل بغواياته الكثيرة، في هذه المدينة الساحِلية التي لا تشبه إطلاقاً باقي المدن. الليل قصير في هذه المدينة الشتوية التي تتحول فجأة إلى كتلة من السحاب المثقل بالماء والضباب في المساءات الباردة، يحدث أن نبكي ونحن نبحث عن دفء نادر بين شوارعها الضيقة، وكلما مشينا أكثر ازددنا صغراً وعندما يختلط صوت

أقدامنا بثرثرة القطط والكلاب النائمة عند عتبات الأبواب القديمة نرى أنفسنا نجري تحت الأمطار الغزيرة.

في هذه المدينة شيء ما عصى على الفهم، ومع كل ذلك أشعر دائماً أنني أنتمي لهذه الجدران والشبابيك والأبواب التي تعكس زرقة البحر وفتنته. أحس وكأنني ولدتُ فيها وكبرتُ فيها وعشتُ فيها أحلى أيام طفولتي، ثمة ذاكرة ما تربطني بها رغم أنني جئتُ إليها منذ سبع سنوات لا أكثر. هذه المدينة التي تحاول جاهدة أن تقف على تاريخها القديم الذي منحها كثيراً من الحروب والفن والفتنة. مدينة ليست ككل المدن، تحتضن بسرعة غرباءها، هذه هي أصيلة التي أحببتها بدون أن أسألها عن رأيها، لمْ يكن يهمني كثيراً أن أعرفها. كان يكفيني أني كلما حزنت أو انكسرت، منحتني بحرها وباراتها وشوارعها الضيقة وزواياها الدافئة.

لهذا كله أشعر دائماً أنني محظوظة بهذه المدينة التي صارت فيَّ بسرعة. وجعلتني أدرك بشكل من الأشكال أنه ما يزال لدي متسع من الوقت لكسر الخوف الذي أنبتته الأزمنة الفائتة، وأنني مازلتُ قادرة على الحب، وأنني لمْ أَتَهَاوَ بشكل نهائي. وأن ثمة شيئاً ما يستحق أن أعيش من أجله. وأواصل الركض رغم جروحي الدامية.

***

بعد زواجي من الروائي المعروف كمال الشرقاوي، والذي قرر فجأة وبشكل فردي ودون أن يسألني عن وجهة نظري حتى، الانتقال بشكل نهائي للعيش في أصيلة وترك طنجة. في البداية صدقاً لمْ أكن أحبذ فكرة الانتقال إلى هذه المدينة التي تبدو وكأنها مهجورة لأكثر من سبب. لكنني

فضلتُ أتباع رغبته دون اعتراض وأن لا أقف في وجه حلمه بالسكن في بيت يطل على البحر في مدينة هادئة ستمنحه كما قال. فرصة للإبداع والغوص في خياله بعيداً عن ضجيج طنجة الذي بات لا يحتمل خصوصاً في السنوات الأخيرة، ولكي يتفرغ أيضاً للكتابة بشكل كلي.

أتساءل اليوم هل كان ضرورياً أن ينسحب كمال مخلفاً وراءه بخار كأس القهوة الأخيرة ودخان السيجارة التي كادت أن تحرق الأوراق التي كان يكدسها أمامه من كثرة انغماسه في الكتابة عن الحياة والخوف والهوية والزواج.

حتى وهو في أقسى حالات الشطط والعزلة كنتُ أشتهي أن أرى وجهه الذي أتعبته الأسئلة القاسية التي لا إجابات لها، والمنحدرات والمهاوى التي رمى نفسه فيها دون أن يشعر، وأسمع صوته الذي أضرب عن الكلام حتى سُحب نحو الغربة التي اختارها بكامل وعيه وإرادته.

فهل أبدأ منه أم من المدينة التي سجنني فيها ورحل كما لو أنه لمْ يكن يوماً هنا بين الغيم والبحر؟ فهو والمدينة في نهاية الشيء واحد، كلاهما صامت ومخادع، يحب ويكره بنفس الدرجة. لا أدري، على الأقل هكذا أتصور، ولا أشك في احتمال خطئي فأنا منذ فقدتُ أبي بسبب حادثة سير ثم أمي بعده بأقل من شهر بسبب مرض خبيث، خسرتُ كل يقينياتي في الحياة.

ما معنى أن يفقدنا الله أعز ما نحب، هكذا دفعة واحدة؟ ويجردنا من كل الأشياء التي يمكن أن تجعل الحياة في عيوننا ممكنة وتستحق أن تعاش

بعمق ونشوة. ما معنى أن نحاول العيش وكل ما يحيط بنا يقودنا بخطى حثيثة نحو الموت.

ربما كان كمال على حق وهو يقول في ذلك الزمن الذي فقدتُ تفاصيله وملامحه: الأشياء التي تحيط بنا ليست تافهة أبداً بالقدر الذي نتصور، كل شيء مهما كان صغيراً وسخيفاً إلا أنه ضروري لكي نفهم الحياة والموت والحب أيضاً.

أنا متعبة بل ومنهكة هذا المساء، ولا أحمل في ذاكرتي إلا الخيبة التي ربطتني بكمال، والتي سرقت مني كل من أحب، لا أدري إذا كانت هذه المدينة الممطرة هي المنكسرة أم أنا؟ السماء الباهتة والبعيدة توحي بالوحشة، أما البرودة فقد اكتنزت حتى أصبحت مثل شيء ثقيل يهبط على الصدر. لا أدري بالضبط أين ومتى انفصلتُ عن كمال وسار كل منا في طريق.

***

في صباح اليوم عدتُ إلى العمل هرباً من الفراغ الذي كان يحيط بي من كل الجهات، كنتُ بحاجة ماسة إلى الانغماس في ضجيج الدنيا من جديده حتى لا أفقد قدرتي على الكلام والحركة، كنت بحاجة إلى أن أكسر عزلتي وأقفل ذاكرتي مثل الذي يسد باباً للمرة الأخيرة. وفي غفلة من كل حواسي ركبتُ السيارة وتوجهتُ إلى مستشفى الرازي للأمراض العقلية. الذي أعمل به منذ أكثر من عشر سنواتْ.

تناسيتُ كل الأوجاع التي حلتْ بي في الفترة الأخيرة، ثم ارتديتُ وزرتي البيضاء وتجولتْ كالعادة على غرف المرضى، أحاول أن أستعيد شيئاً

فشيئاً علاقتي بالمكان والأشخاص. خصوصاً أنني كنت غائبة عن العمل مدة شهر كامل، أي منذ وفاة أمي.

فوجئتُ بتزايد عدد المرضى الجدد، شعرتُ حينها وكأنني غبتُ عن المستشفى سنة أو أكثر، أو كأن الحياة صارت فجاة قاسية على الجميع دون أن تستثني أحداً، الناس فقدوا عقولهم مرة واحدة في هذه الأرض. وأصبح الجنون جزءاً من حياتنا اليومية وأمراً عادياً لا يدعو للقلق ولا يستدعي تدخلاً طبياً عاجلاً.

حالة واحدة أثارتْ انتباهي ولا أعرف لماذا. شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، كُتب على ملفه الطبي أنه يعاني من الفصام البارانويدي، ويقصد به جنون الشك والارتياب، بحيث يشعر المريض على نحو مستمر بإرتياب وتوجس من الآخرين، وقد يحمل شكوكاً غير مبررة حولهم، كالاعتقاد بأنهم يتآمرون عليه ويخططون لإيذائه.

ذلك الشاب الذي يدعى ناصر بن علي، لمْ يكن يعرف أين هو. ولا يعرف من أحضره إلى مستشفى الأمراض العقلية. ولمْ يكن يعرف أيضاً كم من الوقت مر عليه وهو داخل تلك الغرفة مربوطا كثور هائج. لقد كان مشوشاً وتائهاً في بداية الأمر. النقاش الأول الذي دار بيننا، طرح عليّ مجموعة من الأسئلة التي كانت تخلق بداخله نوعاً من الفوضى والإرتباك. أجبته عن كل الأسئلة، ولمْ أرغب أن أوجه له أي سؤال حتى لا ينفر مني ويظن أنني أمتحن عقله المرهق، كنت أريد أن أجره إلى دائرتي وأكسب ثقته قبل كل شيء. كان هدفي الأول هو أن يؤمن بي ويفتح لي قلبه وذاكرته ويفصح عن كل أسراره الصغيرة قبل الكبيرة.

وفي المرة الثانية، قررتُ أن أفتح معه حواراً بسيطاً ونتبادل الأدوار خلاله، وكانت تلك أولى خطواتي نحوه، رغبتُ في التقرب منه أكثر، ومعرفة بعض الأشياء التي ستنفعني في تحليل شخصيته، وإدراك حقيقة مرضه. اقتربتُ منه قليلاً ثم جلستُ على جانب السرير عند قدمه المربوطة، رمقني باستغراب قبل أن يقول بلهجة حازمة وهو يقهقه بشكل هستيري:

– لنْ أسمح لكِ هذه المرة بحقني، أريد أن أظل صاحياً وفي كامل الوعي. سئمتُ من النوم طوال الوقت. أنا مظلوم أنا هنا في الطريق الخطأ. اسألوا من عرفوني من قبل.

نظرتُ إليه وأنا أحاول أن أصُوغ عبارة مناسبة تجعله يشعر ببعض الاطمئنان، صمتتُ لثوانٍ ثم قلتْ:

– لا تريد تناول الأدوية أنت حر، لكن هذا يؤذيك وينقلك من مرحلة نسيطر عليها إلى مرحلة أصعب وأكثر قسوة ولا أحد يستطيع أن يسيطر عليها. وعند تلك المرحلة لا يمكن للدواء أن يفعل شيئاً سوى تنويمكَ. لهذا إقامتك هنا ضرورية لأنك تحتاج إلى فحوصات كثيرة وجلسات علاج فردية وجماعية.

رأيتُ بعض الحيرة والارباك على وجهه، كأن كلامي لمْ يُرْضِهِ في النهاية، كان ينتظر مني شيئاً آخر. صمت قليلاً ثم سرعان ما أردفت بصوت هادئ:

– حسناً، لأقول أن زمن الحقن نتهى، أنا هنا لمساعدتك وفقط، لذلك يجب عليك أن تَهْدَأَ قليلاً وترد على الأسئلة التي سأطرحها عليك.

أطاعني بحركة من رأسه وهو يرتجف مثل حيوان مذعور، ثم أطلق ضحكة غريبة لا تتناسب مع الأجواء التي تعم المكان وقال بعدها بصوت خافتْ ومرهق:

– أنا تحت أمرك يا دكتورة. المهم بالنسبة لي في هذه اللحظة هو أن أخرج من هنا. أنا لستُ مجنوناً صدقيني. أريد أن أرجع إلى حياتي الطبيعية، أريد أن أرجع إلى بروكسيل حالاً.

سألته بنفس النبرة الخافتة:

– هل لك قرابة ما بالشخص الذي أحضرك إلى هنا؟ هل لك أقارب في طنجة؟ هل لك أصدقاء؟

شرد ببصره بعيداً وقد صار وجهه النحيف محتقنا بالألم، قال دون أن يلتفت إلي :

– أمي ماتت قبل فترة قصيرة، وأبي اختفى وكأن الأرض ابتلعته فجأة. أخي مروان في السجن محكوم عليه بعشرين سنة.

ضحك بسخرية وأردف:

– قد يخطر ببالك في هذه اللحظة يا دكتورة، أن مروان مجرم أو بائع مخدرات محترف، لذلك حكم عليه بهذه المدة الطويلة. لكن في الحقيقة هو شاب حالم كان يتمنى أن يجد وطناً يحتضن أحلامه الكبيرة. أخي في السجن بسبب الحراك الإجتماعي الذي وقع بمدينة الحسيمة. مروان وقف في وجه الظلم لكن الظلام سرقه في رمشة عين.

في تلك اللحظاتُ شعرتُ أنني أتشابه مع ناصر في كل شيء، خساراتنا كبيرة ومتشابهة، وجروحنا ما تزال طرية. إلا أنني تظاهرتُ بعدم الإهتمام

بما قاله، ربما لأنني أشك في صدق كلامه، وبحكم تخصصي يمكن لمريض الفصام أن يختلق قصصاً درامية غاية في الدقة والتفاصيل، ويمكن أن يحكي عن أشياء عاشها وهي في حقيقة الأمر غير موجودة بتاتاً. لكن ثمة شيء ما بداخلي كان مصدقاً كل حرف نطقه ناصر. أحسستُ أنه في كامل قواه العقلية، ولا يعاني من شيء. وأن قصته فيها الكثير ليحكى.

اعتقدتُ أنه أنهى كلامه، لكنه واصل قائلاً:

– أنا لا أعرف من الشخص الذي رماني في هذه الغرفة؟

رأيتُ في عينيه ارتسام حيرة فقلتْ له اسم ذلك الشخص وسألته مرة أخرى هل يعرفه. التفت نحوي وخرجت الكلمات من فمه بخوف، ولكن أيضاً براحة:

– لا، إطلاقاً. لا أعرف أي شخص بذلك الاسم.

صمت طويلاً قبل أن أجيبه، بينما ظل ينتظر ردة فعلي. قلت بحزن شفيف:

– هذا الشخص يقول، إنك أنت من طلبت منه المساعدة وكل شيء تم برضاك، ويقول إنه من عائلتك. وتحدث كثيراً عن نوباتك العنيفة وعن مشاكلك الكثيرة.

نظر إلي باستغراب، ولمْ يقل شيئاً. كانت ملامحه تبكي وتضحك وتصرخ دون أن تكون قادرة على التعبير عما يشعر به بوعي مكتمل. سألته رغم أنني لمْ أكن بحاجة إلى طرح هذا السؤال لأن جوابه معروف:

– أتظن أنك غير مريض وأن وجودك هنا غير مبرر؟

فرك عينيه في تعبير واضح عن الإرهاق، ولمْ يجبني، شعرتُ بأنه يغالب غضبه، ويحاول أن يظهر أمامي هادئاً، ربما فهم أنه كلما صرخ أو انفعل بشدة يتم حقنه بالأدوية المخدرة. تحسس بطنه بأنامل مرتجفة، وغرق في تفكير عميق. تركته على تلك الحالة بعد أن أخبرته أنني صرتُ الطبيبة المسؤولة عن حالته منذ تلك اللحظة.

خرجتُ من عنده مشوشة الدهن، وبداخلي أكثر من سؤال، مشيتُ مباشرة إلى مكتبي، ثم فتحتُ ملفه الطبي من جديد، وبعد قراءات متتالية ومتمعنة، اكتشفتُ أنه كتب بطريقة غير مهنية وكأنه كتب على عجل، كما أن المدة التي تم فيها تشخيص الحالة لمْ تحترم البروتوكولات الطبية والعملية المتفق عليها والتي تقول إنَّ تشخيص أي حالة مرضية تتطلب مراقبة سريرية لمدة أسبوعين على الأقل. ولكن ناصر مر على تواجده في المستشفى أقل من أربعة أيام، هذا ما أخبرني به الممرض. وأربعة أيام غير كافية بتاتاً لتشخيص مرض مثل الفصام. هذه الأخطاء دفعتني إلى تبني فكرة أن ناصر ليس مريضاً كما جاء في التقرير الطبي بل هنالك من يريد أن يتخلص منه بهذه الطريقة السينمائية والتي صادفتها مراراً مع حالات مشابهة طوال السنوات التي مضت. في تلك اللحظة تذكرت قصة تلك الشابة المسكينة التي تكالب عليها أعمامها ورموها في مستشفى الرازي من أجل الاستيلاء على ميراثها. ثم انتحرت بعدما سقطت من الطابق الثالث أمامنا جميعاً. وقصصاً كثيرة من هذا القبيل.

تذكرتُ أيضاً تلك الجملة الشهيرة التي كان دوماً يرددها كمال على مسامعي كلما تخاصمنا أو اختلفنا: يمكنك يا دكتورة نورة أن تتخلصي مني

بسهولة، تقرير طبي تقولين فيه إنني فقدتُ عقلي بسبب الكتابة، وحقنة وسرير بمستشفى للأمراض العقلية.

الآن وبعد كل هذه الأمور التي اكتشفت، صرتُ أجد مشقة كبيرة في تجميع أفكاري والوصول إلى قناعة نهائية، بدا الأمر ملتبساً للغاية، هذه التفاصيل رغم بساطتها وقلتها فقد جلبتْ معها حيرة لا تنتهي، وفي محاولة لأبدد ارتباكي، أرجعتُ ذلك الملف إلى مكانه على عجل كمن يُخبئ سراً كبيراً وضعته الأقدار في طريقه. وأنا أقول في قرارة أعماقي: على كل، لمْ أستقبل في أي يوم من الأيام مريضاً نفسياً ولمْ يقل لي إنه ليس مجنوناً.

***

نظرتُ إلى ساعتي. كان لا يزال أمامي وقت كافٍ لأعتني بنفسي قليلاً أمام المرآة الصغيرة التي أحمل معي في حقيبة يدي قبل الخروج إلى موعدي المحتمل مع عشيقي الجديد الذي تعرفتُ عليه قبل ثلاثة أيام في الفيسبوك، أو يمكنني القول، اصطدته من الفيسبوك، كما أفعل دوماً حين أشعر أنني بحاجة إلى جسد رجل.

مررتُ أصابعي على حواف شفتي، ضبطتُ مسار أحمر الشفاه، رششتُ قليلاً من عطر جديد، وتابعتُ انعكاس رذاذه على المرآة، أعجبني ذلك الصخب الذي أثاره العطر في جسدي الساكن، رششتُ المزيد حتى غام وجهي بين الرذاذ، شعرتُ بألفة مع العطر الجديد، أنا التي لمْ أبدّل يوماً عطري الذي اعتدته، كنت أقول أن للأنثى عطراً واحداً يشبهها، وما عداه غبش يشوه روحها، لكنني اليوم قررتُ أن أتخلى عن كل شيء يمكن أن يرجعني إلى أيامي السابقة.

عطر أخذته من يد البائع قبل أن يسكب القليل منه على معصمى كى أجربه، وضعته في حقيبتي قبل أن أشمه، أريد اليوم أن أكون في كامل أناقتي، ليس لأنني على موعد من شاب وسيم أصغر مني بسنوات، سيراني لأول مرة، بل لأنني مشتاقة لتلك النسخة القديمة مني التي قتلها كمال ببروده وإهماله. اليوم أريد أن أتصالح من نفسي ومع جسدي ومع الماضي المقيتْ الذي يجثم على صدري.

كمال كان يخونني على مرأى ومسمع الجميع، كان يسحقني بقسوة دون أن يشعر بالذنب، كان يتلذذ بمراقبتي وأنا أحترق من الداخل وأتفتتُ تحت قدميه، والهم ينخرني بنهم كالدود الأزرق الذي يتغذى على الجثة، كان يدرك تمام الإدراك أنني أعرف بكل قصصه وخياناته وعشيقاته، ولكنه لمْ يكلف نفسه حتى مشقة إخفاء تلك تلك الفضاعات عني ولو قليلاً، ولو قليلاً. نعم، أنا أيضاً خنته بعد أن نفِد صبري، وفهمتُ أن زواجنا لنْ يستمر طويلاً. وسيموت في أي لحظة. خنته في اللحظة التي فتحتُ فيها عيني ووجدت أن تفاصيل الدنيا قد تغيرت كثيراً. وفهمت أن الحياة تركض بلا توقف صوب النهاية ومن المحزن جداً أن أظل واقفة.

عرفتُ بالصدفة أنه سيغادر المغرب هرباً من التضييق الذي تمارسه عليه السلطة السياسية بسبب روايته "سوط السلطان" التي هاجم فيها النظام والنخب السياسية، والتي فازت بالبوكر العربية ومنعت من التوزيع والتداول داخل البلاد، والتي اعتقل بسببها وتم التحقيق معه مرات عديدة.

من المؤكد حتماً أنه لا يعترف حتى لنفسه أن سفره وهروبه كان وراءه الخوف من السجن الذي كان مهدداً به في أية لحظة. بل يدعي كذباً أنه

هرب من زواج فاشل ومن زوجة نكدية لمْ يعد يشعر معها بالراحة والحب.

***

شارفت الساعة على السادسة مساءً، حملتُ حقيبتي وودعتُ ناصر الذي كان يتناول وجبته بابتسامة ناعمة. كانت المسافة قريبة من المستشفى إلى الشقة التي سألتقي فيها عشيقي الجديد، عاد إلى إرباكي وأنا أغادر عزلتي إلى ضجيج الناس، لمْ يكن يخطر ببالي أن يكون موعدي الأول مع ذلك الشاب محفوفاً بالشهود والمعارف والعيون المتلصصة، رغم ذلك واصلتُ السير صوبه بخطى متعثرة، رأيته من بعيد غرستُ عيني في مشيته في قوامه، في شاربه الكث، في طوله الفارع، بدأتُ أرى انعكاس الأضواء في عينيه اللامعتين، شعرتُ بقربه، يشق طريقه إلي ويلوح بيده. كنتُ أنظر في عينيه تماماً، كسهم لا يضيع هدفه، أيقنتُ من النظرة الأولى أنه هو نفسه.

كنتُ أريده وحسب، أريد الرجل الذي اشتهيته واشتهيتُ أن أرمي جسدي بين أحضانه. أردتُ أن أصل إليه في أبهى زينتي، وأن لا أفقد شيئاً مما أعددتُ لليلتي معه، أردتُ أن أقف أمامه مكتملة، بقوامي الممشوق، وأحمر شفاهي، وعطري الجديد، وأن لا يتخلف شيء مني وأنا في طريقي إليه.

كنتُ أدرك أنني بهذا السلوك قد عدتُ فعلياً إلى فترة المراهقة، لكن جسدي الذي لمْ يلمسه أي رجل مدة سنة تقريباً كان يقودني مغمضة العينين والعقل صوب ذلك الشاب الذي لا أعرف عنه أي شيء سوى

أنني أعجبتُ بوسامته وعنفوانه وبنبرة صوته. وصوره العارية التي أرسلها لي ليلة أمس على الواتس آب.

الفصل الثاني

ناصر بن علي

الأربعاء 28 نوفمبر 2018.

مستشفى الرازي للأمراض العقلية.

طنجة

تكورتْ الكلمات في حلقي كجمرات محرقة، وأنا أحكي للدكتورة نورة عن الفترة التي سبقتْ مجيئي إلى هنا، دون وعي وجدتني أستجيب لذلك الاستدراج الذكي الذي استعملته معي. بدأتُ من اللحظة الأولى التي وصلتُ فيها إلى مدينة الحسيمة قادماً من بروكسيل إلى حدود اللحظة التي ضربتُ فيها بقوة على رأسي من الخلف، وما بين اللحظة الأولى واللحظة الأخيرة أشياء كثيرة حصلتْ معي.

مضى بعض الوقتْ وأنا ساهم في سريري أستعيد تفاصيل تلك الفترة التي لمْ تتعدَّ أربعة أشهر أو أقل قليلاً وأحاول تفسيرها. شعرتُ حينها أن استرجاع تلك الأحداث المخزنة في ذاكرتي أكثر صعوبة من عيشها، نزلتْ عليّ الذاكرة بكل ثقلها وأوجاعها دفعة واحدة.

حدث وحيد زلزل حياتي، في تلك اللحظة التي قررتُ فيها العودة إلى الحسيمة وافتتاح مطعم كبير وتحقيق ذلك الحلم الذي كان يراودني منذ

الصغر، كانت اللحظة الخاطئة في كل سنوات عمري، صرتُ أعرف الآن أين أنا، وصرتُ أعرف هوية الشخص الذي رماني في هذه الغرفة الباردة.

نظرتُ إلي الدكتورة نورة التي كانت تجلس بالقرب من النافذة التي تطل على الشارع، نظرتْ إليّ، كانت عيناها صافيتين على الرغم من الكآبة التي كانت تخيم عليهما.

كانت جميلة ومدهشة وشهية، شاهدتُ ابتسامتها تنزلق وتذوب كقطع الثلج، ابتسامتها بسرعة تتقد وبسرعة تتهاوى كالأحلام الهاربة، قالت وهي تنظر إلى الشارع:

- أخبرني عن طفولتك.

فجأة تتسع عيناي لترى النور المتسرب عبر النافذة، أتأمل الشمس وهي تخترق الجدران الباردة. تفيض الغرفة نوراً، أشعر براحة كبيرة سرعان ما تنكسر على رشقات الصور والأحاسيس والذكريات القادمة من بعيد، تعذبني الأصوات الثقيلة التي تتزاحم في داخلي. أتمتم قائلاً:

- لا أريد الرجوع إلى تلك المرحلة، فهي بعيدة جداً، ولن تفيدك في شيء يا دكتورة.

قلتُ هذه الجملة وأنا أشعر بغضب شديد، وحرقة قاسية تتسرب إلى صدري. استوعبتْ من خلال كلامها، أنها تتعامل معي على أساس أنني مريض نفسي وهي تنوي تحليل شخصيتي وتسجيل الملاحظات وردود الأفعال. قلتُ بدون تفكير:

- تُريدينني أن أساير أسئلتك السخيفة، فوق طاقتي. لا أملك الصبر الكافي للقيام بذلك. أعتقد أني لنْ أستطع أن أمنحك الأجوبة التي

تشتهين، أنا لستُ مجنوناً، ولا أسمح لك ولا لغيرك بمعاملتي على هذا الأساس. أنا ضحية مؤامرة.

اقتربتْ مني. حاولت أن تمسك يدي لكنها في آخر لحظة لمْ تمسسها، ولكنني شعرتُ بحرارتها. قالت هذه العبارة تم عادت إلى مكانها قرب النافذة:

– لن أسألك عن أي شيء. سأترك لك حرية اختيار ما تريد البوح به.

لمْ أنتظر كثيراً حتى بدأتُ أحكي لها عن الأعمال التي كنتُ أقوم بها في بروكسيل، قلت بنبرة فخر بارزة:

– أتدرين يا دكتورة، هذا المجنون الذي يتمدد أمامك، استطاع أن يجمع مبلغ تسع مئة ألف أورو خلال فترة قصيرة. ويتحول من مهاجر سري إلى "رجل أعمال" ناجح في مجاله. هل تَرَيْنَنِي الآن وأنا أمامك أني مجنون؟ صحيح أنني بعد أن فقدتُ أمي وأخي وأبي وجدتني وحيداً وضعيفاً ومنهاراً، لكنني لمْ أصل إلى درجة الجنون.

بلعتْ ريقها، وهي تحاول التأكد مما سمعتْ، لوهلة خطر لي أنني سأقترف خطأ كبيراً لو أخبرتها عن طبيعة عملي وعن أصل تلك الأموال، غير أني صرفتُ عني الخوف، حين تذكرتُ أنها طبيبتي الخاصة، وأنني من وجهة نظرها مجرد مريض بائس يعيش في دوامة من الأوهام كما أخبرتني سابقاً، كما أني لنْ أقول شيئاً يستحق هذا القدر من الترويع، واصلتُ كلامي دون تردد:

– كنتُ أعمل في تهريب الحشيش والكوكاين من قادس الإسبانية إلى بروكسيل بشكل أسبوعي في سيارتي الخاصة، وهذا العمل المحفوف

بالمخاطر مكنني من كسب مبالغ كبيرة وزعتها على بنوك سويسرا والنمسا ولكسمبورغ. وفجأة فكرتُ في العودة إلى الحسيمة واستثمار تلك الأموال. وبالفعل عدتُ إليها وأنا أحلم أن أمتلك مطعماً كبيراً وفخماً مثل مطاعم باريس ولندن. اشتريتُ قطعة أرض كبيرة في أرقى أحياء المدينة. عرفتُ لحظتها أنني بدأتُ أملك ما بحثتُ عنه طوال عمري. انفتحتْ أمام وجهي أبواب السماء وبتُّ قريباً من تحقيق رغبة أمي الأخيرة قبل أن تخطفها الأقدار. كانت رغبة أمي بسيطة لا تتعدى الجلوس على كرسي أمام طاولة مستديرة وتتناول وجبة العشاء على ضوء الشموع في مطعمي الخاص. كان هذا الحلم هو الشيء الأخير المشترك بيني وبينها. لكن الأقدار كانت لها وجهة نظر أخرى يا دكتورة، ولا سبيل اليوم إلى إكمال ذلك الحلم رغم بساطته. لماذا؟ لأن الحياة أدارتْ وجهها كلياً وأغلقتُ أبواب السماء من جديد.

عند هذه النقطة صمتُّ ولمْ أعرف كيف أكمل سرد الأحداثْ، أحسستُ أنني أضعتُ خيوط الحكاية، التي في النهاية حكياتي أنا، شعرتُ أن عقلي مقسوم إلى نصفين. نصف خائف من الفراغ الذي اسْتَحَالَ فجأةً سيد المكان، ونصفُ ساكن، لا يهتم بكل ما حدث ويشرد بعيدا. قبل سنوات قليلة، كانت أمي ما تزال لها القدرة على الاعتناء بأزهار الشرفة والنوافذ، وكان أبي رغم إضرابه عن الكلام يشاهد أخبار الظهيرة على شاشة التلفاز، وكان أخي مروان رغم ثقل السنوات التي تجري يجابه الحياة ولمْ يستسلم لها بعد، اليوم أجد نفسي وحيداً مربوطاً في أبعد زاوية، أمي ماتت أبي اختفى وأخي سجن.

هل حقاً أشكل خطراً على الآخرين؟ هل فعلاً أنا مجنون وعنيف ويمكن أن أقترف جرائم بشعة دون أن أشعر؟ هل ما قالته الدكتورة نورة صحيح بخصوص المرض الذي سمعتُ به لأول مرة؟ هل يمكن لهذه الصدمات التي حلتْ بي أن تجعل مني شخصاً مجنوناً؟ كلما تذكرتُ تلك التفاصيل قلتُ في قرارة نفسي نعم من الممكن جداً أن يفقد المرء عقله وسط تلك الفواجع. بل طبيعي جداً أن يجن المرء وسط الخراب.

اِلتفتت إلي الدكتورة نورة وسألتني:

– لماذا لمْ تنجز مشروعك؟

نظرتْ إلى عيني عميقاً كأنها تريد أن تتوغل عميقاً فيهما. رأيت في عينيها في لحظة من اللحظات– شيئاً من العطف جعلني أسترسل في الحديث معها. على الرغم من أنني كنت أدرك تماماً أنها تختبرني نفسياً وتدرس ردود أفعالي عن قرب. كنت أدرك أنها كانت بصدد اختبار أية حركة تصدر مني، أقرأ في عيونها بعد ذلك الحديث الطويل، بعض التعاطف مع مجنون لا أكثر ولا أقل. قلت بنبرة مثقلة بالخيبة:

– لأن الحياة أدارتْ وجهها...

قاطعتنني ببرود:

– كيف؟

أجبتُ وأنا أزدردُ ريقي الجاف:

– ماذا أقول يا دكتورة؟ كل شيء بدأ من تلك القطعة الأرضية التي اشتريتها قبل أربعة أشهر تقريباً وكلفتني ثلاث مائة مليون سنتيم، أي تقريباً ثُلث المبلغ الذي بحوزتي، إلى حدود تلك اللحظة كانت الأمور تسير

بشكل جيد. جهزتُ التصميم الهندسي وعرفتُ التكلفة التي سيحتاجها المشروع، لكن حين أردتُ استخراج رخصة البناء وقف في طريقي شخص له نفوذ كبير في المدينة، رجل أعمال فاسد ينشط في مجال العقارات وبيع السيارات المستعملة إضافة إلى كونِهِ برلمانياً ومستشاراً جماعياً. منعني من الحصول على الرخصة لأنه كان يريد أن تكون تلك القطعة الأرضية من نصيبه ليبني عليها مصحة خاصة، وقال إنني سرقتها منه لأنني دفعتُ لصاحبها أكثر مما دفع هو، حاولتُ بكل الطرق الممكنة قانونياً للحصول على الرخصة لكنه استغل مكانته ومعارفه وحرمني منها، في الأخير لجأتُ للقضاء الذي حكم لصالحي ضد المجلس البلدي.

عند ذلك الحد ابتعدتْ نورة قليلاً من النافذة، لأن أشعة الشمس كانت تنعكس على وجهها مباشرة، وهي تقول:

- أكمل.

نظرتُ إليها وأنا أقول:

- أريد أن أتكلم من كل قلبي دون أن يأمرني أحد.

ابتسمت، فواصلتُ قائلاً:

- حين فُزْتُ عليه أمام المحكمة، اختار أسلوباً مغايراً هذه المرة. كان يرسل لي تهديدات بالقتل أو السجن إذا لمْ أبعْ له تلك الأرض، كانت المكالمات المجهولة تأتي إلي بشكل يومي، لكنني لمْ أتراجع ولو شبراً للوراء كنت مصراً على بناء مشروعي، كان رجاله يراقبونني خطوة خطوة، وكنتُ مع كل تهديد يصلني منه أزداد تشبثاً برغبتي في إيقاف هذا البرلماني الحقير عند حده، حتى أصبح الصراع بيننا على ألسنة كل سكان المدينة. كل

أصدقائي ينصحوني بعدم المجازفة أكثر لأنني تورطتُ مع رجل له ما يكفى من المال والسلطة، ولنْ أنتصر عليه مهما حاولت لأنني أضعف منه. شعرتُ لحظتها أن أصدقائي أيضاً يتآمرون ضدي ويقفون في صف ذلك السياسى الفاسد الذي يسرق المدينة أمام أعينهم لأنهم اعتادوا الخنوع وأضحى الصمت جزءًا منهم والخوف سمة من سيماتهم، الكل خائف، ولا أحد يستطيع أن يزحزح ذلك الرجل من مكانه ومنصبه أو يحاسبه. العامل، الباشا، رجال الشرطة والدرك، الكل تحت سيطرته، وكلهم ضدي لأنني الحلقة الأضعف في هذه المعركة. كنت أعلم تماماً أن يده طويلة، طويلة جداً ويمكن أن تُخرسني للأبد. لكنني مع هذا كله تماديتُ في الوقوف بوجه العاصفة التي لا ترحم.

لمْ تتركني أنهي كلامي ودون أن تتطلع إلي. قالت وهي تخطو نحو الباب:

-يجب أن أمر على المرضى الأخرين، وسوف نجد وقتاً آخر نتحدث فيه.

ثم أكملتْ:

- بعد ساعة من الآن يجب أن تتناول دواءك.

التفتُ إليها، فالتقتْ العيون، ثم ضحكتُ بصوت مرتفع. وقلت:

- رفضتُ تناول الدواء في الأيام السابقة فقط لأثبت لهم أن عقلي سليم ولا يحتاج مطلقاً إلى تلك الكمية الكبيرة من الأدوية والحقن، أما الآن فأنا لا أمانع بتاتاً.

هل هذه الأشياء التى أحكيها حقيقة أم وهم؟ أنا نفسى لمْ أعد أعرف. صرتُ أشك فعلاً في سلامتي العقلية. لا أدري هل ما عشته كان مجرد تهيآت وهلوساتْ أفرزها دماغي المضطرب؟ أم أحداث حقيقة مرتْ علي فعلاً؟ الأشياء والصور والوجوه تمر في عقلي مسرعة، وجوه لا أعرفها وأخرى صادفتها يوماً وبقيتْ محفورة في الذاكرة والقلب، وجه أمي الذي لا يشيخ، وجه المرأة التي خفق لها قلبي أول مرة وأنا في السادسة عشرة، وجه الشرطي الذي صفعني بقوة في أول يوم وضعتُ فيه قدمي بالضفة الأخرى من الأرض، وجه مروان المنطفئ خلف القضبان السميكة، وجه عالية وهي ترسم قوس قزح مكسوراً، وجه جدي بعد أن مات ساجداً، وجهي وقد تغيرتْ ملامحه وتفاصيله.

أفكر بجسدي باعتباره الشيء الوحيد الذي بتُ مُتأكداً من وجوده، لأنني أقدر على لمسه بيدي والشعور بحرارته، أما باقي الأشياء فكلها آلت موضع شك. كل الأشياء التي لا أستطيع لمسها بيدي، تحولتْ إلى أشياء غير موجودة بالنسبة لي. موجع أن يشعر المرء هكذا. تقول الدكتورة نورة: المرض النفسى يختلف عن المرض الجسدي وأن أول خطوة في العلاج هي الإعتراف بوجود المرض، ولا يمكن إطلاقاً أن نخطو أول خطوة في رحلة الشفاء إلا حين ندرك أننا فعلاً مرضى.

تقوضّت آفاق الحياة في وجهي. أدركتُ بأنني أقف في مفترق الطرق، إما أن أعترف لنفسى بأنني مصاب بالفصام وأتناول الأدوية، أو أنكر كل شيء، وأواصل العيش داخل أوهامي التي صارتْ اليوم كبيرة بحجم سنوات عمري، أتساءلُ هل حياتي السابقة كانت مجرد كذبة سخيفة صدقها عقلي المريض؟ هل توجد حقاً في حياتي امرأة اسمها عالية الحكيم

رسامة عراقية باذخة الجمال مثيرة، شهية، متفجرة الأنوثة؟ هل ماتت أمي؟ في الحقيقة أتمنى أن أكون مريضاً ويكون موت أمي ما هو إلا وهم وقصة اختلقها عقلي ليعذبني، أشتهي أن أراها مرة أخرى ترش رذاذ الماء على وريقات الأزهار الملونة التي تزين شرفة غرفتها. هل اختفى أبي أم أنه ما يزال جالساً أمام التلفاز يشاهد نشرة الأخبار كالعادة؟ مروان أين هو الآن؟ يا الله رأسي سينفجر من كثرة الأفكار التي تأتي متدافعة متلاحقة، يكاد يغمى علي وأنفاسي تكاد تنقطع، هل هذه هي نهايتي؟ لا أريد نهاية باردة هكذا.

إن كان ما أشعر به هو الموت، فأنا أرغب بالموت بين أحضان أمي، على سريرها الدافئ، لا أريد أن أموت وحيداً ومنسيّاً في هذا المستشفى. في تلك اللحظة تذكرتُ تلك الضربة التي تلقيتها على مؤخرة رأسي حتى غبتُ عن الوعي تماماً، سحبتُ يدي ببطء من فوق بطني، ثم أدخلتُ أصابعي بين الشعر وتحسستُ رأسي نقطة نقطة، كررتُ الأمر عدة مرات متتالية، لكنني لمْ أجد أي أثر لضرب، حتى أنني لمْ أشعر بأي ألم، لا وجود لتلك الضربة على رأسي. كنتُ أنزف من الداخل فقط.

هل يعقل أن لا تترك تلك الضربة الثقيلة التي أسقطتني على الأرض أي خدش ولو كان صغيراً؟ حتى أنني أتذكر في تلك اللحظة التي استفقتُ فيها، لمْ أكن أحس بأي شيء. وكلما حاولت فهم وضعي وعقلنة الأشياء تلبّستني البلادة.

أشعر بدوار وبرغبة في التقيؤ، هل الحقيقة مفزعة لهذه الدرجة؟ أشعر كمن يسبح ضد التيار، عشرات اللطمات والصفعات تدوي على وجهي وكتفي. عشرات الأفكار تتساقط فوق جمجمتي لكن لا يسمع لها دوي،

عشرات الوجوه تحضر ثم تغيب، عشرات الأصوات تتردد في أعماقي. الشيء الوحيد المؤكد هو أنه حين أخرج من هذا الكابوس، لنْ يكون هناك سوى شيء واحد: الضياع، الضياع، الضياع.

وجودي لعشرة أيام قاسية في مستشفى الأمراض العقلية ذي الجو المقرف، كان كافياً ليزرع في رأسي فكرة لا أستطيع نفيها. الدخول إلى مكان كهذا يجعل المرء مريضاً نفسياً حتى ولو كان في كامل قواه العقلية والنفسية، ثمة شيء ما يسحق الخاطر ويربك العقل هنا. يمكن أن نجر أي أحد من الشارع وندخله رغماً عنه إلى غرفة صغيرة مثل هذه، ثم نربط قدمه مع سرير حديدي، ونحقنه يومياً بمواد مخدرة، ونعامله على أساس أنه مجنون، فحتماً سيصير مجنوناً في نهاية المطاف.

في تلك اللحظة سمعتُ ضحكة، ضحكة صافية، دافئة، لا تمت لشحوب المكان وظلمته بِصِلة، ضحكة قادمة من الشارع المحادي للمستشفى، تمنيتُ أن أقوم من مكاني وأفتح النافذة على مصراعيها، وأنظر إلى صاحبة الضحكة التي سحبتني من غفوتي، أكيد ستكون فتاة في السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمرها، تركض برشاقة، وهي تحمل بين يديها شيئاً قد يكون باقة ورد أو كرة ثلج أو علبة صغيرة بداخلها هدية لا يهم ماذا تحمل المهم أنها تركض.

هذه الضحكة تذكرني بضحكة عالية. نفس النبرة تماماً. لا، لستُ واهماً. الصوت الذي أسمعه يشبه صوت عالية، ولنْ يقدر أي أحد على إقناعي بعكس ذلك، لا لستُ واهماً، أنا أخزّن في أعماق ذاكرتي نبرة صوتها المرتفعة وحشرجة ضحكتها المتقطعة التي لا تشبه أي ضحكة سمعتها من قبل. عالية لها ضحكة خاصة، بصمة صوتية تتميز بها وحدها.

عالية ابنة بغداد التي تهوى الرسم، بل تصل معه إلى درجة الموت، وأكبر أحلامها أن تعود إلى بغداد عندما تشيخ، الحياة بالنسبة لها إما أن تعاش ماتعة أو ترفض جملة وتفصيلاً. رأت كل الألوان وكوابيس الدنيا باكراً جداً، حين هربتْ من بغداد في ليلة سقوطها المدوي، حملتْ معها كل أحقاد البشر في قلبها ضد الظروف التي رمتها بعيداً عن وطنها الجريح الذي ما يزال جرحه ينزف إلى اليوم. كلما شربتْ قليلاً، هددت بالانتحار وحرق نفسها حية، ثم تنام. في الصباح عندما تستيقظ لا تتذكر أي شيء مما حدث لها ليلة أمس، فهي لا تستقر على حال.

عالية، ساذجة وطيبة، بقلب طفولي تحركه أبسط الأشياء، دوماً تحاول أن تجد مبررات مقبوله لحزنها القديم، تريد أن تكون كل شيء ولا شيء في نفس الوقت. تأخذ كل ما تسمعه مأخذ الجدية، حتى أنها لا تفرق بين المزاح وما سواه.

حين التقينا أول مرة كنا مثل الإخوة، بيننا أحزان الغربة وأشواق الوطن البعيد، كنا نشعر أننا نتشابه في أكثر من شيء، كانت تسميني مجازاً "الشيوعي الأخير" لأنني كنت مهووساً بالماركسية، أحياناً كنا نسقط في تناقضات جوهرية بخصوص هذا الموضوع، كنا خليطاً من التفاصيل الدقيقة، كل واحد منا يعيش عالماً مربكاً، أنا كنتُ مشغولاً بجمع الأموال وتخزينها في بنوك أوروبا وهي كانت مشغولة بالسفر بين العواصم لتعرض على العالم لوحاتها التي تحمل بين خطوطها وألوانها وجع بلادها.

تعرفتُ عليها في شتاء 2016، كانت قد انتقلتْ للإقامة في نفس البناية التي كنتُ أسكنها. حين لمحتها أول مرة في المصعد، تمنيتُ أن تكون وحيدة وغير متزوجة، وليس لها عشيق. أحياناً أحاول أن أستعيد الصورة التي

ارتسمت في ذهني عندما وقعت عيناي عليها للمرة الأولى، لكني لا أستطيع. أتذكر كلماتها الأولى، كنا للتو نشرع نافذة حكايتنا بعد شهر من عاطفة صامتة، كنتُ قد دعوتها للعشاء في مطعم قريب من الحي. قالتْ إنها حين رأتني لأول مرة لمْ تكن تتوقع أن يأتي يوم ونجلس مع بعضنا وجهاً لوجه، لأنها لمْ تستلطفني وشعرتْ أنني شخص مغرور. عندما عدتُ إلى البيت ذلك المساء أتذكر أنني لمْ أنم ليلتها وأنا أسترجع ملامحها، وتلك الابتسامة التي خصتني بها دون مقدماتْ والتي كانت قريبة على مرمى بصري. كانت المرة الأولى التي تنزعني فيها عيون امرأة وضحكتها من تفاصيل الكوكاين والحشيش وقادس والأمْوال. كانت ساهمة في البعيد وأنا ساهم فيها. أطوقها بنظرتي، أعبرها طولاً وعرضاً، أقف عند كل جزء من جسدها طويلاً، أشتهيها سراً.

مع عالية لمْ أكن أدرك ما يجري، كنتُ أتحايل على دواخلي الرافضة للغوص في أي علاقة سوى علاقتي بتهريب المخدرات وجمع المال، كنتُ أتحايل عليها كي أمنح نفسي فرصة أن أحب شخصاً ويحبني، ثم بدأتُ في الحب، لأجد نفسي مأخوذاً ببدء حياة مختلفة في بروكسيل، تحضر الآن كل أسبابي للتمسك بعالية، للتشبث بحياتي معها، وإن لمْ أكن أعرف ما الذي أريده بالفعل. لكنني كنتُ محتاجاً للإقتراب منها واقتحام حياتها لكن في ذات الوقت كنت خائفاً منها وخائفاً عليها مني ومن مزاجي المتقلب.

أتساءل أحياناً من أين جاءتني فكرة السكن المشترك مع عالية؟ ربما من كثرة الشعور بالفراغ والوحدة الذي كنت أحسه في تلك الفترة؟ لكن المؤكد أيضاً منها، لأنها كانت تعتبر أننا مادمنا مع بعض وعلى علاقة شبه رسمية، لماذا سيظل كل واحد منا بعيداً عن الآخر.

وبالرغم من ذلك ولما اقترحتُ عليها بعد عدة شهور تعمقت أثناءها علاقتنا، أن تقيم معي، ترددت كثيراً قبل أن توافق على ذلك، أعتقد أن تعلقها الشديد بي، الذي غدا واضحاً في ذلك الوقتْ لمْ يكن سبباً كافياً للاقتناع بفكرة الإقامة معي في شقتي.

ينبغي أن أقول هنا أن حضور عالية الدائم في بيتي جعلني في الشهور الأولى سعيداً إلى درجة كنت أخشى معها أن تتحول هذه السعادة إلى نقيضها، كانت تلك هي المرة الأولى في حياتي التى أعاشر فيها امرأة بهذا الشكل، أراها كل يوم، أشم رائحتها، أسمع صوتها على مرمى أنفاسى، أراها تستحم عارية كل مساء، أتفرج عليها تكحل عينيها، تنتف حاجبيها، أتجسس عليها وهي تخلط الألوان وترسم أحزانها القديمة على القماش، ولا أكاد أصدق أن هذه المرأة الجميلة الاستثنائية كلها لي، بضعفها وهشاشتها، بقوتها، بتعقيداتها، بغرابتها، بتناقضاتها، بتحولاتها، بجنونها، بفتنتها التي تفتك بالقلب فتكاً، كلها لي وحدي.

وينبغي أيضاً أن أعترف بأن وجودها الدائم في البيت إلى جانبي أربكني في البداية، كنتُ أخشى أن أرتكب حماقة ما فأخيب ظنها، لذا كنت أحاول أن أظل حذراً في كل ما أفعله وأقوله، ودائم الانتباه لكل ما يبدر منها.

أتطلع طويلاً إلى حوض المرحاض لأتأكد من أنه نظيف، وقبل أن أغادر المكان أبخره بمزيل الروائح. لا أترك الحذاء في المكان الذي أخلعه فيه مثلما كنت أفعل في السابق، أستحم كل يوم تقريباً. أغير كل يوم ملابسى الداخلية وهو ما لمْ أفعله مطلقاً من قبل. لمْ أعُدْ أتجشأ رغم أنها كانت عادة من عادتي التي أحبها، لمْ أعُدْ أضرط بحرية وأينما أشاء، لمْ أعد أمخط أنفي بصوت عال.

صرتُ أيضاً أصغي لكل ما تقول. أرد بسرعة على أسئلتها. أوافق بسهولة على مقتراحتها. أهرع لمساعدتها، كلما دعت الحاجة. وحين تكون غارقة في الرسم أتوقف عن الحركة وأصمت كيلا أزعجها.

كنتُ أعرف أني أبالغ في الحذر، وأن عالية لا تولي دائما اهتماماً لكل هذه الأشياء، لكنني قررتُ بيني وبين نفسي أن أكون شديد الحذر لكي أتحاشى كل ما يدفعها إلى تغيير رأيها في تلك المرحلة الحاسمة من علاقتنا.

غيرت أشياء كبيرة في البيت، وغيرت أشياء صغيرة لمْ أكن أعيرها أي اهتمام. غطاء حوض المرحاض. المرآة والسجاد ومشجب المناشف في غرفة الحمام، بعض اللمبات والأبجورات في غرفة النوم والصالون. ألقتْ بأغلب أواني الطعام والطبخ في صندوق القمامة واشْتَرَتْ صحوناً وأدوات جديدة.

كانت حريصة أن تعرف رأيي في كل شيء. ولا تشرع في تغيير شيء إلا عندما أبدي موافقتي. في الحقيقة لمْ أكن شديد التحمس لا لتغيير الأشياء ولا لتركها كما هي. ليس لأني أهمل البيت ولا أوليه اهتماماً وما يستحق من العناية، وإنما لأن اهتمامي كله كان منصباً آنذاك عليها. حضورها لمْ يترك لي مجالاً للتفكير في أي شيء آخر.

ولكن رغم كل هذه التفاصيل فقد كان عيشنا جنباً إلى جنب في نفس البيت أكبر خطأ اقترفناه معاً، وكل المشاكل التي جاءت بعد ذلك كان سببها تلك المسافة التي صارت بيننا شبه منعدمة، وكأن القرب قتل فينا اللهفة والشوق، علاقتنا تغيرتْ ملامحها بمجرد أن عرف كل واحد منا

الصغيرة والكبيرة عن الآخر. يقال إن المسافة تقتل الحب، لكن القرب الكبير يقتل الحياة، هذا ما خرجتُ به من قناعة.

نحتاج أحياناً إلى ترك مسافة أمان بيننا وبين من نحب حتى نحافظ على تلك الأشياء التي تقوي الحب، المسافة والبعد هما نافذة أخرى يمكن أن نطل منها على ملامح الحب الآسرة التي يحجبها التقارب والتلاحم.

لماذا أحببتني؟ لم تكن تمل عالية من طرح هذا السؤال. كنت أتفنن في الرد عليه بإجابة مختلفة كل مرة. وبعد ذلك السؤال كانت تستغل الإجابة لتُثْنِيني عنْ قرار العودة إلى الحسيمة.

اليوم أنا في مواجهة مصيري، الذي سيتعامل معه الآخرون ربما كحكاية عابرة لا تستحق الاتفات، لنْ يستوقفهم الشاب الذي قدِم منْ بروكسيل إلى الحسيمة، ثم اختار بملء رغبته هذا المصير الأسود. سيُضيفون قصته إلى آلاف القصص التي يعرفونها وسرعان ما ينسون.

كان يجب أن أتراجع، أن أؤجل خطوتي تلك على أقل تقدير، أن أمنح نفسي فرصة أكبر للتفكير في العواقب والمشاكل التي من الممكن أن أصادفها في وطني، أعلم الآن أنني كنتُ متسرعاً في قراري، أسترجع كلام عالية بشيء من الحسرة:

"هل تعلم أنك بقرارك هذا تحكم على نفسك بالخسارة والفشل، أنت لمْ تعد صالحاً للعيش في المغرب، عالمك هنا، حياتك هنا، مستقبلك هنا في بروكسيل، هل تدرك أنك لنْ تستطيع التأقلم مع طريقة عيش وتفكير المغاربة، لقد عشت هنا أكثر مما عشت في وطنك أنت لمْ تعد تعرف أي شيء عن تلك البلاد. "

تطرقُ أسئلة عالية في رأسي وكأني أسمعها للتو، كأني صحوتُ الآن بعد غيبوبة طويلة كنتُ لا أرى ولا أسمع فيها سوى قرار العودة إلى الحسيمة وامتلاك مطعم فخم أتباهى به أمام أبناء الحي الذي قضيتُ فيها مراهقتي وطفولتي.

***

بعد العصر مباشرة قدِمتْ إليّ الدكتورة نورة، وبمجرد أن رأيتها صحتُ بنبرة غاضبة لمْ أكن أنوي استعمالها معها لأنها كانت لطيفة معي:

– أفليتوني، أنا هنا مريضاً نفسياً كما تقولون ولستُ سجيناً. لماذا قدمي مربوطة مع جانب السرير؟ أنا لستُ مجرماً يا دكتورة، لستُ عنيفاً كما تظنون. لمْ أقتل ذبابة واحدة طوال حياتي. ولا أملك أي أسلحة. أنا لستُ وحشاً كاسراً يجب أن يربط ويكبل بالجاكيط. ويحقن كل ساعة بالمورفين. أنا مظلوم.

صرختُ كثيراً حتى ألمني دماغي، وبكيتُ كثيراً حتى أصبحت حنجرتي مبحوحة، ضربتُ رأسي على الحائط العديد من المرات لدرجة أصبتُ بدوار وكدتُ أغيب عن الوعي، صمتُ للحظاتْ ثم أردفتُ وقد ملأتني رعشة االبكاء:

– أشعر بالعياء قدمي تؤلمني كثيراً بسبب الأصفاد الحديدية ويزعجني صوت السلسلة حين ترتطم ببعضها. وأريد أن أغير ملابسي فقد صارت متعفنة وكريهة.

سمعت هذا الكلام فضحكتْ ببراءة، وهي ترمقني بعينيها الخضراوين، لمْ أسألها عن سبب ضحكها في موقف كهذا، فضلتُ الإنتظار لبضع لحظات، قطعتْ حبل الضحك بالقول:

- يا ناصر، قدمك لسيت مربوطة كما تظن. أنظر إليها أولاً.

اخترقتني هذه الجملة كرصاصة، أزلتُ اللحاف عني ورميته على الأرض. صدمتُ حين اكتشفتُ أنني غير مربوط، ولا وجود لأي سلاسل أو أصفاد. بقيتُ للحظات طويلة مشدوهاً أتأمل جسدي الممدد، شعرتُ حينها أن وضعيتي بدأت تزداد تعقيداً، فكلما رأيتُ قدمي الباردة بلا قيود صارت أسئلتي المستعصية حارقة كالحمم، تمنيتُ في تلك اللحظة لو أنني مقيد فعلاً على الأقل كنتُ سأتفادى هذه الأسئلة الثقيلة التي سقطتْ على رأسي، كل تلك اللألام التي كنت أشعر بها على مستوى قدمي تلاشتْ فجأة وحل محلها الكثير من الخوف، الخوف من نفسي على نفسي. حين ألقتْ الدكتورة نورة على مسامعي ذلك الرد، انتقلتُ من عالم إلى آخر. الشيء الذي لا يحتمل بالنسبة لي هو أن لا أجد جواباً لهذا السؤال "هل أنا مجنون؟" رفعتُ بصري صوبها سائلاً بانفعال:

- متى ؟...

لمْ تتركني أنهي سؤالي، وكأنها فهمت ما كنت أنوي قوله. قالتْ وهي تقدم لي فنجان قهوة كان بين يدها:

- لمْ تكن مربوطاً منذ البداية.

حينها باتت رأسي ساحة حرب لأفكار متناقضة، لا ينتصر فيها طرف إلا بهزيمة الآخر. جلستُ على طرف السرير قبل أن أقف على قدماي وأنا

أكاد أسقطُ على الأرض من شدة الدوار من كثرة ضرب رأسي على الحائط. تقدمتُ من الدكتورة خطوة واحدة، ثم طلبتُ منها أن تتفحص رأسي من الخلف، مدتْ يدها ولامستْ شعري الكثيف بلطف، بدأتْ من الأعلى نزولاً. غاصت يدها في عمق شعري، شعرتُ أنني ذهبتُ بعيداً، كانت تغوص أكثر فبدأت الخصلات الطويلة في مؤخرة رأسي تلتف حول أصابعها بإحكام. قالتْ وهي تسحبُ يدها ببطء: لا وجود لضرب على رأسك. لحظتها صرختُ وشعرتُ برغبة في البكاء، أحسستُ أنني ضائع وسط دوائر لا تنتهي، دوائر، دوائر، دوائر. بدأ صدري يختنق تحت وطأة ما يجري، شعرتُ بوجود مسافة تفصلني عن الواقع، مسافة تتسع كل ثانية أكثر.

وأنا أقف متصلباً أمام نورة فكرتُ أن أستعير منها هاتفها المحمول لكي أفتح حسابي على الفيسبوك وأبعث رسالة إلى عالية، لكنني تراجعتُ في آخر لحظة لأنني خفتُ من أن أصدم بعدم وجود عالية في الواقع، لمْ يكن لذي استعداد لخسارة عالية في تلك اللحظاتْ، وحتى وإن كانت مجرد امرأة في خيالي لنْ أفقدها بهذه السهولة، سأتركها معي حتى تنتهي هذه المتاهة، وآخر شيء سأفكر في معرفة حقيقة وجوده من عدمه، هي عالية. إذا كانت عالية امرأة من خيال فلمن سأكتب حرائقي وأشواقي؟

أشعر باليتم، خسرتُ كل من أحبهم مرة واحدة. اهتزتْ كل يقينياتي، الآن صرتُ أشك في وجودي، وانتهت تلك الكذبة التي كنت ابتدعها باستمرار حتى لا أموت قهراً. أشهد اليوم أنني عاجز عن مقاومة الدوائر، الدوائر التي تسجن عقلي داخلها. كيف حدث كل هذا حتى أصبحتُ مجنوناً؟

إذا كانت عالية امرأة من دخان وضباب فمن سيرابط عند النافذة ينتظر رُجوعي؟

عالية الحكيم

الأربعاء 28 نوفمبر 2018

الثامنة صباحاً

الرحلة 254 المتوجهة من بروكسيل إلى سالامانكا .

هذه الحياة مملة أكثر مما ينبغي، ورغم ذلك نجري وراءها حتى التهلكة.

كلما حزنتُ أو انكسرتُ، منحتني الحياة فرصة للوقوف من جديد. في الماضي كنتُ ساذجة والأكثر من هذا عنيدة. واليوم أجد نفسي صادقة في كل شيء أقوله وأفعله. عندما أخسر رهاناتي الصغيرة، ألعن الدنيا والقدر.

أستغرب كثيراً. كيف لتلك التفاصيل الصغيرة والهامشية التي لا ننتبه لها مطلاقاً أن تحدد مصائرنا؟

في ذلك المساء، حين امتد الكلام بيني وبين ناصر، ذكرته بحياتي السابقة، البسيطة. قلتُ له: أنا كذلك كنتُ عاشقة للكتب الحمراء ومؤلفات تشيخوف وتولستوي، ومكسيم غوركي، ودستوفسكي هذا الكاتب الذي عرى الأجساد ووضعها أمام نفسها لتقرأ ضعفها وإنسانيتها، وقرأتُ الكتب التى ذكرتْ باستفاضة تفاصيل الموت وعذاب القبر، الألباني، وابن تيمية، وسيد قطب، والطبري. مع الزمن لمْ أعد معنية

بكل الأشياء التي كنت مدمنة عليها في السابق، صرتُ أميل إلى الجلوس أمام قطعة القماش الأبيض والتماهي مع الريشة ومع اللون.

وفي ذات المساء أخبرته، أنني أشعر بخوف من كل الأشياء الجميلة وأجد صعوبة في لمسها، خوفاً من أن تتفسخ في يدي. لا أعرف سبب هذه المخاوف، لكنني هكذا أحس، ربما لأن الحياة لمْ تدللني كثيراً، وبت على قناعة تامة بأن كل الأشياء الجميلة ليستْ لي، أو لربما لأنني لم أحسن التصرف مرة واحدة، عاقبتني الحياة بالقبح والقسوة. وعاقبتني الذاكرة بتشوهات دائمة من المستحيل مسحها. صحيح أن جزءاً من حماقتي القديمة هي التي حولتني من جهة إلى أخرى، ولولا تلك الحماقات لكنتُ الآن في مكان آخر.

أين سأكون؟ لا أعرف.

الرحلة المتوجهة من بروكسيل إلى سالامانكا استغرقتْ تقريباً ثلاث ساعات إلا ربعاً، قضيتُ تلك المدة في استحضار ناصر بكل تفاصيله الصغيرة والكبيرة. حضر في ذاكرتي وأنا في طريقي إلى رجل غيره. ناصر الذي كنتُ أريده رفيقاً للعمر، رفض. وأراد العودة إلى وطنه، الذي سبق وعامله بالمثل، ورفضه وهو شاب في بداية الحياة قبل عشرين سنة. هل فعلاً أن الدنيا تلعب بنا كما تشتهي؟

علاقتي بناصر كانت تحتاج إلى جسر صلب لنمشي معاً فوقه ولا تقهره الأثقال. جسر يمكن أن يتحمل مصاعب الحياة، ويتحمل رجلاً وامرأة من عالمين مختلفين، رجلاً مهوساً بجمع المال، وامرأة مهوسة بالفن ولا شيء غيره، أمور على تناقضها كانت سهلة التجاوز لو أن ناصر ترك أنانيته

المفرطة جانباً وأحبني مثلما يحب الأوراق النقدية، لكنه للآسف كان يفكر بنفسه فقط، وكأنني لستُ جزءاً من حياته. كان يتعمد من حين لآخر أن يُشعرني بأنني لمْ أصل بعد إلى مرحلة أن يشاركني كل شيء ويخبرني أي شيء. مثلاً، كان يخفي عني طبيعة عمله، وعندما كنتُ ألح عليه بالأسئلة كان يقول إنه يتاجر في السيارات. جوابه لمْ يكن مقنعاً رغم تكراره أمامي في كل مرة. نعم، حبنا لمْ يولد من يومه الأول كبيراً ونقياً، كانت تشوبه الأنانية والشك والكثير من الخوف.

أعدد في خلوتي القصيرة وأنا أقف عند بوابة المطار أنتظر قدوم كمال الذي تأخر قليلاً، الاختلافات الكثيرة التي كانت تمنع علاقتي بناصر من التقدم خطوة للأمام.

فهل كان من الضروري أن نكون نسخة طبق الأصل من بعضنا حتى يجمعنا مصير واحد؟ أشياء كثيرة تغيرتْ منذ تلك اللقاءات الأولى المليئة بارتباكات الدهشة والانخطاف، هل نحن تغيرنا وبالتالي خسرنا بعضنا بهذه الطريقة التي لمْ أستوعبها إلى حدود هذه اللحظة؟ أم أن الخسارة كانت مكتوبة علينا منذ أول نظرة؟

من منا أحدث الخراب في الآخر ومضى دون أن ينظر خلفه؟

من فينا الفراشة؟ ومن فينا الإعصار؟

***

جاء كمال عند الواحدة زولاً، أي بعد ساعة ونصف من نزول الطائرة. رفعتُ عيني فرأيته كما لمْ أره في المرة الأولى، كان شاحباً ومحبطاً وكأنه يعاني من مرض ما، نظرتُ إليه طويلاً قبل أن أقول:

– قدِمت متأخراً، وأنت الذي تقول إنك لا تتأخر عن مواعيدك المهمة.

رد وهو يبتلع حروفاً استعصت على الخروج من فمه:

– لا أدري ماذا أقول. لكن هذا التأخير لمْ يكن متعمداً.

ظل صامتاً للحظة ثم واصل بلهجة مازحة اصطنع لها القوة ليخفي ما وراءها من ارتياب وهو يحمل حقيبتي الظهرية التي كنتُ أضعها بين أقدامي ليضعها في صندوق السيارة:

– هذه أثقل حقيبة ظهرية رأيتها في حياتي.

لمْ تكن تلك المرة الأولى التي يقول أحدهم إن حقيبتي الظهرية ثقيلة، لمْ أعرف كيف أشرح له أنني أجد الكثير من الراحة في حمل حقيبة الظهر عكس الحقيبة اليدوية أو تلك التي لها عجلات وتجر على الأرض، الحقيبة الظهرية تشعرني بالقوة والاستقلالية والحماس. لكنني لمْ أخبره بأي شيء من هذا، اكتفيتُ بابتسامة خفيفة أردتُ من خلالها تخطي الموضوع وعدم التعليق على مزاحه.

ثلاث مرات على الأقل سألني كمال ونحن في طريقنا إلى بيته: كم يوماً أنوي البقاء في سالامانكا؟ وفي كل مرة كان يأتيه جوابي: يوم واحد لا أكثر. وفي المرة الرابعة كان جوابي بصيغة سؤال: هل تزعجك زيارتي؟ جف ريقه، بحلق في يحاول أن يفهم المقصود من ذلك السؤال الذي رميته في وجهه دون تردد. قبل أن أنطق بذلك الكلام شعرتُ أنني ضيفة ثقيلة عليه وأنه ليس على إستعداد لاستقبالي حتى ولو ليوم واحد. ربما تسرعتُ في زيارته ولمْ يكن من الصواب أن أقترح عليه هذه الفكرة التي جاءت وليدة الفراغ الذي أعيشه، وكان غياب ناصر من بين الأسباب التي

دفعتني إلى القدوم إلى سالامانكا، ببساطة شديدة لكي أبحث عن رجل آخر يمكن معه أن أنسى وحدتي وحزني الكبيرين. أنا هنا فقط لأنني أشعر بالوحدة، قلت هذه الجملة في سري لأبرر لنفسي أولاً الدافع وراء هذه الأفعال الغير محسوبة، ولكي أخفف عن خاطري وقع الإهانة التي أثقلني بها كمال.

كان أفضل وأريح بالاً لو أنني انتظرتُ أن تأتي الدعوة منه، أو على الأقل أن يقترح هو الفكرة. لنْ أسامح نفسي على هذا الموقف المحرج الذي وضعتُ نفسي فيه، حين أعود غداً إلى بروكسيل ستأكلني الحسرة والغيظ أكلاً.

رمقني بنظرة خاطفة، ولمْ يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك، قبل أن يقول:

– يشرفني حضورك يا عالية، سالامانكا كلها ترحب بك.

قلتُ في خجل مصطنع:

– لا أريد شيئاً من هذه المدينة إلا أنت. أنا هنا من أجلك.

تأملني طويلاً وكأنه سمع كلاماً لمْ يكن يتوقعه، فرفع حاجبيه الخفيفين الأسودين، وقال بصوت منغوم:

– حقاً يا عالية !

في الحقيقة لمْ أقصد ما قلته حرفياً، ربما خرجت تلك الجملة من فمي عبثاً لتلطيف الأجواء قليلاً. لمْ أرغب أن أشاهد نفسي مهزومة أمامي وأمامه أيضاً. أحببتُ أن أمنحه فرصة أخرى لكي يعبر إلي خفيفاً كالسحاب، وأن أمنح نفسي فرصة قضاء ليلة واحدة ممتعة وتعاطي كل

حماقات الدنيا دفعة واحدة. أنا هنا من أجل المتعة وسأجبر نفسي على تقبل أي شيء لكي أبلغها. أشتهي أن أسرق لحظة من الحياة لأرقص فيها وأمارس الحب والجنس بالشكل الذي أشتهي، وأضحك عالياً، ثم أنام. وتنتهي هذه الليلة.

***

في المساء، جهز كمال العشاء وهيأ المائدة وأشعل الشموع، وسكب لي كأس نبيذ. وبعد دقيقتين أو أقل قال لي بنبرة يتخللها بعض الفخر:

– لقد بدأتُ الكتابة أخيراً.

– حقاً

– سأكتب رواية عن غجر إسبانيا.

قلت:

– لماذا الغجر؟

رد بإيجاز:

– نمط عيشهم، فلسفتهم في الحياة، رقصهم، كل هذه الأشياء مجتمعة ستدفع أي كاتب إلى محاولة الكتابة عنهم.

– حسناً، موفق في تجربتك الجديدة.

بدت لي الكلمات التي خرجت من فمي مجرد صوت أصم. توقف عن مضغ اللقمة التي كانت في فمه، أخذ رشفة من كأس النبيذ الذي كان أمامه ثم أضاف:

– الهدف من كتابة هذه الرواية هو الرجوع إلى عالمي الذي لا أعرف كيف أعيش خارجه. أنا كائن حبري خُلِق ليكتب. خلقتُ لأكسر قوانين الواقع في نصوصي، وأتمرد على كل شيء، حتى على نفسي، وإن كان هنالك شيء يستحق أن أعيش من أجله فهو الكتابة.

استعدتُ بقلق ما قاله لي في ذلك اليوم الذي زارني في المعرض: إن فشلتُ في كتابة رواية جديدة سأرمي نفسي من النافذة، أو سأتحول إلى شخص يشكل خطراً على المجتمع. رغم أنه قال هذه الكلام في لحظة مزاح، إلا أنني صرتُ أدرك تماماً كم هو مرتبط بالكتابة، وأنه كان يقصد كل كلمة قالها في ذلك اليوم. شخص بهذه الأفكار يمكن أن تتوقع منه أي شيء وفي أي وقت.

لمْ أرد عليه اكتفيتُ بهزّ رأسي هزة خفيفة، تراجع هو إلى الخلف قليلاً ثم أشعل سيجارة، سحب منها نفساً واحداً، ثم نفث الدخان وهو يستدير بكامل جذعه إلى النافذة المفتوحة، فعل ذلك بانتظام حتى انتهى من التدخين. رفع ذراعيه وضغط بأصابع يديه المشبوكتين على رأسه وهو يقول بصوت أراده واضحاً حاد النبرات:

– ألم يتصل بك عشيقك المغربي؟ هل ما يزال مختفياً؟

ضحكتُ وتقوس حاجبي استغراباً. أربكني سؤاله الباكر عن ناصر، لمْ أكن أتوقع أن يفتح معي موضوعاً كهذا، سكتُ، وشرعتُ في النظر إلى الملاعق والسكاكين وفتات الخبز المتناثر على الطاولة، خفضتُ رأسي قليلاً وغرقتُ في الصمت، في تلك اللحظة انتهز الفرصة وَشَرَعَ في النظر إليّ خلسة. رمقته بطرف عيني يتطلع إلى نهدي اللذين يبدوان صغيرين مقارنة

بحجمها الحقيقي حين أكون عارية أمام المرآة. ثم ثبت بصره على وجهي الذي يغطيه النمش.

رفعتُ بصري إليه، قلتُ بعد صمت طويل بلهجة صلبة لأتغلب على نظرته:

– هجرني الحقير.

انتعش وضحك ضحكاً شديداً ثم قال:

– غبي من يترك امرأة بهذه الرقة. أتدرينَ يا عالية حين أنظر إليك أشعر وكأنني أنظر إلى وجه طفلة، لا وجه امرأة تجاوزت الثلاثين، وجهك يشع منه خليط من الألفة والعفوية.

تحرك قليلاً ونظراته تنصب علي، وكأنه يريد أن يكتشف هذه المرأة التي تجلس بموازته، على الضفة الثانية من الطاولة. صمت للحظة قصيرة ثم استرسل :

– وقع نظري على صورتك أول مرة في ذلك الإعلان الذي نشره متحف الفن على الفيسبوك، حين لمحتك قلتُ في قرارة نفسي: "من الضروري أم أكون حاضراً في معرضك"، وجهك الطفولي هو من أجبرني على ترك كل شيء والسفر إليك. جئتُ من أجل تأمل ملامحك الهادئة عن قرب. والقدر كان سخياً معي يوم التقينا وضرب لي معك موعداً ما كنت أتوقعه إطلاقاً ولا كان على بالي وأعطتني الحياة أكثر مما أستحق. لأول مرة أشعر أن الدنيا كانت عطُوف علي وكريمة، لمْ يحدث أن أردتُ شيئاً وحصلتُ عليه، دائماً ما كنتُ أشتهي الأشياء دون لمسها.

قلتُ في نفسي يجب أن أقول شيئاً لأتغلب على الحرج. وفكرت، لو سألته عن "السبب"، قد يظهر سؤالي فجاً، لكن يجب أن أفعل شيئاً، أن أضع بيني وبينه مسافة ارتياح كي يبوح لي أكثر. قلت بمرواغة بلهاء وبعد تفكير طويل:

– هل أعتبر كلامك مجاملة؟

رأيتُ في عينيه أكثر من رغبة، ثم طافتْ برأسي أفكار محمومة. لكنه سرعان ما كبحها بداخلي وهو يقول بلهجة جدية:

– بل حقيقة وواقع يتجسد أمامي على شكل...

لم يتمم كلامه وكأن شيئاً ما وقف في حلقه، أخذ رشفة نبيذ أخرى وهو يتفحصني بنظرة اشتهاء واضحة، نهض من دون أن يحرك الكرسى لكيلا يحدث أي ضجيج كما لو أنه يخشى أن يفسد علينا المتعة التي توفرها لنا حالة الصمت. ببطء وهدوء تقدمَ صوبي تناهى إلي صوت أقدامه وهي تدعس الأرضية الخشبية، يمشي وهو يبتسم. وقف بجانبي ثم أغمض عيني بيده اليمني وطوقني بيده اليسرى، ووضع شفتيه على عنقي. كنت أريده أن يصبر علي قليلاً لكنه كان على عجلة من أمره. لمْ يمنحني فرصة النطق بكلمة واحدة، وضع على عنقي قبلة واحدة، ثم حملني بين ذراعيه ومشى بي صوب غرفة نومه دفعة واحدة.

***

صبيحة اليوم التالي، حملتُ حقيبتي الظهرية الثقيلة، وعدتُ إلى بروكسيل وأنا مثقلة بأشياء لا أعرف ماهيتها. شعرتُ بندم كبير على ما حدث ليلة أمس، اكتشفتُ أنني امرأة رخيصة. كيف سمحتُ لذلك

الروائي المجنون أن يتعامل معي بتلك الدونية، أحسستُ أنني أُهنتُ في كرامتي بقسوة، ولا سبيل للرد على تلك الإهانة.

ألقيتُ ببدني على السرير، مستحضرة تفاصيل الليلة الماضية التي حفرتْ بداخلي جرحاً كبيراً، الليلة التي عاملني فيها كمال مثل العاهرة. بمجرد أن وصل إلى نشوته وحقق رغبته التي وشت بها نظراته منذ الرشفة الأولى من كأس النبيذ، استدار إلى الجهة الأخرى ونام، وكأنني غير موجودة قربه، وقد اتسعت المسافة بيننا فجأة، وانتهت تلك الليلة قبل أن تبدأ. ارتفع صوت شخيره الذي لا يحتمل. أما أنا فلمْ أقدر على النوم طول تلك الليلة. وجع ما كان يهزني في العمق، حرقة ما كانت تكتم أنفاسي وتحرمني النوم. انكسر صوتي تماماً. حين قلتُ بهمهمات صغيرة متعثرة: الخنزير، الكلب، يظن أنني عاهرة.

تمنيتُ لو أنه تركني أنتظر عند بوابة المطار ولمْ يأتِ، هكذا كنتُ سأشعر بألمْ أقل. الآن زدتُ اقتناعاً بأنني لمْ أعد أعرف نفسي، بل واكتشفتُ أنني امرأة رخيصة تتبع شهوتها بلا رقيب.

كمال الشرقاوي

السبت 1 دسمبر 2018

سالامانكا

مستلق على فراشي، أتصنع النوم..

في هذا اليوم، وربما أكثر من أي يوم سابق، قمتُ بالعديد من الأمور، أقلها أهمية هو اتصالي بعالية صباحاً لأعتذر منها على ما بدر مني في ذلك اليوم الذي زارتني فيه، أخبرتها أنني كنتُ متعباً للغاية، لذلك نمتُ باكراً على غير عادتي، لكنها بدتْ منزعجة كثيراً من ذلك التصرف الغريب الذي قمتُ به دون قصد. حاولتُ أن أبرر لها بطرق مختلفة لكنها كانت مُصِرَّةً على أنني رجل أناني ولا يحترم الأخرين. بذلتُ مجهوداً كبيراً في محاولة إرضائها، لكنني فشلتُ في النهاية واستسلمتُ لنبرتها الغاضبة. كانت هائجة كأي امرأة أُهينتْ في كرامتها. كان كل شيء فيها يعوي بالخيبة التي سببتها لها في ذلك الليل. أغلقتْ الخط في وجهي بعد أن طلبتْ مني عدم الاتصال بها مجدداً، وأن أحذف رقمها فوراً، كدتُ أن أحذف الرقم في الحقيقة لولا شعوري بأنه من الممكن جداً أن تتحسن الأمور بيننا في وقت لاحق. قلتُ في خاطري وأنا ممسك الهاتف بين أصابع يدي: موجة غضب وستمر مع الأيام. وفي حقيقة الأمر أيضاً لمْ أكن أود خسارة عالية بهذه السهولة والسرعة، فقصتي معها لمْ تبدأ بعد، نحن مازلنا عند البدايات، لا

أنكر أنني أجدها امرأة جميلة ومثقفة واستثنائية ولا يمكن أن يجود بها القدر دوماً، امرأة مثل عالية من المستحيل أن أصادفها مرة أخرى، لذلك تراجعتُ في آخر لحظة عن حذفها من هاتفي ومن حياتي كأنها لمْ تكن يوماً بين أحضاني.

أفكر كيف حصلتْ الأمور. لماذا نمتُ باكراً؟ طرحتُ هذا السؤال على نفسي، فأنا لمْ أكن متعباً لتلك الدرجة التي تجعلني أغرق في النوم وبجانبي امرأة طالما اشتهيتها في خيالي وطالما سهرتُ الليالي أفكر فيها وفي تفاصيلها التي ترهق دماغي وجسدي وكل جوارحي بمجرد أن أستحضرها في مخيلتي. عالية لها وجه يجتذبني وأنا في أقسى لحظات حياتي وأكثرها ضجراً وعزلة. عنقها الطويل المستقيم هو أول ما لفت انتباهي في ذلك اليوم الذي كانت تفصلني عنها خطوة، يليه النمش الذي يغطي وجنتيها. ثم في الأخير شكل أصابعها الطويلة.

عالية امرأة صنعت من الدهشة التي كلما نظرتُ إليها ازددتُ انجذاباً، فكيف نمتُ الليلة وتركتها خلفي تحترق غضباً وحسرة؟ أيقنتُ في الصباح أنني اقترفتُ خطأ فادحاً حين تجاهلتها طوال ساعات الليل، من حين لآخر كنت أستيقظ لبرهة من الزمن وكنت أشعر بأنفاسها وهي تتصاعد بصعوبة من فقد القدرة على إغماض جفونه، تتقلب كسمكة خرجتْ لتوها من الماء، تتقلب من جهة إلى أخرى في أقل من نصف دقيقة، وكأن أرقاً مزعجاً أصابها، تهمهم بكلماتٍ غير مفهومة وكأنها تخاطب دواخلها.

لمْ أستغرب أن ترد علي بتلك النبرة الصاخبة المرتبكة الغاضبة الحاقدة، التي سحقها الشعور بالإهانة. من المؤكد حتماً أنها أحست في تلك اللحظة وهي تعد ساعات الليل الطويلة، بالرغبة في غرز أظافرها بعنقي، أو وضع

وسادة على وجهي حتى تخرج روحي من صدري ببطء وهدوء. فلا يوجد أشرس من امرأة شعرت بالإهانة. أو على الأقل أن تحمل حقيبتها وتغادرة البيت في صمت. خطر ببالي وأنا أراها بعين نصف مفتوحة وهي تنظر إلى النافذة التي تسلل منها شعاع من ضوء أعمدة الإنارة العمومية، فطنتُ حينها إلى أنها غير مرتاحة وكدتُ أسألها عن سبب عدم نومها حتى تلك اللحظة، لكن شيئاً ما ألجم لساني، ومنعني من طرح ذلك السؤال الذي كان سيفجرها في وجهي كقنبلة. كان واضحاً أنها تسعى لدفعي إلى الكلام. لكنني لمْ أَنْطِقْ بكلمة.

لمْ أعد أذكر ماذا قلتُ لها بالضبط في الصباح حين لمحتها وهي ترتدي ثيابها استعداداً للمغادرة لأنني ببساطة كنت شبه نائم، لكني واثق من أنّه كان كلاماً من قبيل "يخيل إلي أنك ستغادرين الآن" أو "أليس الوقت مبكراً على سفرك؟" أو شيئاً من هذا القبيل. أتذكر أنها لمْ تكلف نفسها مشقة الرد على كلامي، خرجتْ مسرعة وصَفَقَتِ الباب خلفها تعبيراً عن الغضب.

بين الحين والحين، كنتُ أفعل نفس الأمر مع زوجتي نورة، في اليوم الذي تكون على أهبة الاستعداد لقضاء ليلة صاخبة أكون أنا قد نمتُ جالساً فوق الأريكة أمام شاشة التلفاز.

في السنة الأولى من زواجنا كانت تشتكي كثيراً من هذا الأمر، وتقول مثلما قالتْ عالية تماماً: أنت رجل أناني. لكن مع مرور الأعوام اعتادت نورة على هذه السلوكات، ولمْ تعد تأبه لنومي ولا لصحوتي. هكذا أنا في بعض الأيام رغم قلتها يمكنني أن أنام في أَيِّ وقت وفي أَيِّ مكان، وفي أيام أخرى قد لا يغمض لي جفن لعدة أيام حتى يصير جسدي منهكاً وعلى

حافة الانهيار. ربما نمتُ باكراً تلك الليلة وتركتُ عالية تخاطب نفسها، لأنني لمْ أكن أشعر بأي رغبة في الكلام، ولمْ أكن أتوقع على الإطلاق أن تتصرف على هذا النحو وأن تنزعج لأمر تافه كهذا.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا مستلق في فراشي، أغازل النوم الذي رفض أن يلتفت إلى جسدي المتعب من كثرة الكلام الذي قلته والذي سمعته. بدأ نهاري منذ التاسعة صباحاً، ارتديتُ ملابس رياضية وبللتُ وجهي وشعري وتحت إبطي بالقليل من الماء كي أبدو متعرقاً، وتوجهت إلى شقة السيدة أماندا، طرقتُ الباب مرتين ولمْ تفتح ثم انتبهتُ إلى وجود الجرس، ضغطتُ عليه بسباتي، وتراجعتُ خطوة للوراء، فتحتْ أماندا الباب، وكانت تظهر عليها علامات من استفاق لتوه من النوم. انزحتُ خطوة إلى اليمين لأغدو قبالتها تماماً، ثم قلت بنبرة حاولتُ أن أجعلها مرهقة لكي تكتمل الخطة، وأنا أمد لها العلبة التي كانت بين يدي المبتلة:

– تفضلي هذه علبة شكولاطة اشتريتها من محل قريب، حين كنت عائداً من حصة الرياضة.

سألتني باستغراب وقد انفتحت عيناها على اتساعهما:

– هل من حقي أن أسأل عن سبب هذه الهدية؟

ضحكتُ ولا أعرف كيف أصبح وجهي أو ماذا قالت عيناي، قلتُ وأنا أنظر إلي يدي الممدودة:

– لا شيء.

تضيف بعد لحظة لكي تخفف من إحساسي بالحرج:

– عموماً شكراً على الشكولاطة سيد كمال.

أشرعت الباب على اتساعه ثم مسكت العلبة وهي تقول بلهجة هادئة:

- تفضل لنشرب فنجان قهوة معاً.

تنفستُ الصعداء وغمرني ابتهاج حين دعتني إلى الدخول، شعرتُ أنني بعيد خطوة واحدة من معرفة كل شيء عن ذلك العجوز الذي يسكن في الطابق الخامس، سأحاول أن استدرجها في الكلام لتخبرني المزيد عن أرتورو، سأخوض معها في موضوع أنخيل وإميلدا. أريد أن أعرف عنهم كل الأشياء التي لا يمكنني سماعها من نافذة المطبخ أو من وراء جدار الحمام. التفاصيل الصغيرة مهمة بالنسبة لي في عملية الكتابة، ولكي أكتب عنهم يجب أن تكون لدي لمحة عن ماضيهم الذي من المؤكد أن أماندا السمينة تعرف بعض حيثياته.

تقول أماندا وهي تتوجه إلى المطبخ:

- هل تلعب رياضة حمل الأثقال؟

تفلت مني ضحكة عالية، وأنا أفكر في نوع الرياضة التي تناسب رجلاً على عتبة الخمسين سنة، قلت:

- الجري.

ثم واصلتُ في سري، أنا بالكاد أستطيع المشي، الرياضة لم أعد أعرف حتى معناها، فكيف أمارسها وكتفي الأيمن لمْ يعد متوازياً مع كتفي الأيسر منذ تلك الحادثة التي وقعت لي في بيت جدتي حين سقطتُ من على ظهر الحمار، وكان عمري حينها لا يتجاوز الثلاثة عشر سنة.

عادت أماندا بعد دقائق قليلة، جلست قبالتي على الكنبة بعد أن وضعت فنجان القهوة أمامي على الطاولة الزجاجية، ثم قالت وهي تتفرس في وجهي مستغربة:

– هل تقدر على الجري وأنت في هذه الوضعية؟

أتطلع إليها مندهشاً وبينما كنت على وشك أن أسألها عن أي وضعية تتكلم، تواصل وهي تضع مكعب سكر في فنجانها:

– أقصد كتفك.

خيمت موجة من الصمت، كان يفترض أن أتكلم، لكنني تفاجأتُ من قدرتها على لمح ذلك العيب الذي أُحاولُ أن أُخْفيه أثناء سيري. ونادراً ما يلاحظه الأخرون. ابتسمتُ ابتسامة كبيرة، ثم أجبتُ بنبرة حاولتُ أن أجعلها هادئة:

– لا.. لا يشكل لي عائقاً في الحقيقة.

قلتُ هذا الرد الذي لا يفتح أي مجال لطرح سؤال آخر ثم رحتُ أفكر في طريقة مناسبة للخوض في الموضوع الذي بللتُ نفسي من أجله وكلفني عشرة أورو ثمن علبة الشكولاطة، والكثير من الصبر على فنجان القهوة المرة التي وضعتها أمامي أماندا. وجدتني في حيرة مربكة، خشيتُ أن لا أكون مفهوماً بالقدر الكافي، سيطر عليّ الشعور بالعجز خلال فترة الصمت التي بدت ثقيلة وطويلة رغم أنها لمْ تتعدَ الدقيقة، إلى أن اخترقتها أماندا بصوت أجش:

– هل سمعت ليلة البارحة ماحدث بين أنخيل وإميلدا؟

تطلعت إلي بإمعان لتقرأ تأثير هذا السؤال عليّ، لما وجدتني مصغياً باهتمام أضافتْ:

- وضعها صار يُخيفني جداً...

لم أتركها تتابع:

- في الحقيقة نمتُ باكراً ولمْ أسمع أي شيء.

ردت بصوت عال:

- ربما كان يضربها، هذا ما استنتجت من خلال ما سمعتْ

قلتُ بصوت تعمدتُ أن أجعله رخواً حزيناً:

- أتوقع أنه من الواجب أن نخبر الشرطة يا سيدة أماندا.

قالت بلهجة تخلط بين المزاح والجدية وهي تمد ساقيها قليلاً:

- اتصل بهم أنت، أما أنا فلا أريد أن أقحم نفسي في مشاكل الأخرين. رغم أن هذا الأمر يدخل في مجال عملي كمشرفة على هذه البناية. لكن أفضل أن أظل بعيدة قدر الامكان عن ذلك السكير أنخيل.

قلتُ لنفسي: ولا أنا مستعد لهذا الأمر، لكنني أرغب في شيء يجعل روايتي أكثر تشويقاً، ودخول الشرطة على الخط سيجعل الحكاية ممتعة وفيها الكثير من الأحداث غير المتوقعة، فمثلاً يمكن أن يعتقل أنخيل بتهمة التعنيف الأسري وتتشرد إميلدا وطفلها في شوارع سالامانكا بعد أن تعجز عن تسديد مصاريف السكن والمدرسة، أو يمكن أن تتحول إلى عاهرة لكي تقدر على كسب قوتها اليومي، أو في أفضل الأحوال ستعود إلى بلادها مهزومة. وفي جميع الحالات سأكون أنا الرابح الأكبر لأنني

سأحصل على نهاية جيدة لروايتي الجديدة، وسأعود إلى القارئ وإلى رفوف المكتبات والمعرض واللقاءات الصحفية بقصة مختلفة عن ما كتبتُ في السابق.

قلت لأماندا بعد صمت طويل:

– وماذا عن العجوز أرتورو؟

نظرت إلي ببلاهة، ثم قالتْ:

– وما دخل أرتورو في الموضوع؟

رسمتُ على وجهي ابتسامة مصطنعة وأنا أبحث عن مخرج يجنبني استحالةَ وصعوبة الإجابة على سؤالها الذي لمْ أكن أتوقعه، أضفتُ موضحاً:

– أقصد هل سيوافق على تقديم يد المساعدة لهما، بما أنه رجل ثري جداً على حسب قولك.

ردت وهي تنقل بصرها بيني وبين النافذة المفتوحة وكأنها ستفشي سراً:

– أرتورو يملك ثروة يمكنها أن تحل مشاكل كل سكان البناية ولنْ تنفد، لكنه رجل بخيل جداً، وشكاك، وأناني، وعنصري يكره المهاجرين، ولا أظن أنه سيوافق على تشغيلها عنده.

صمتت للحظات ثم واصلت:

– المهم لنَنْسَ أمر هؤلاء الحمقى. ماذا عن السيدة الجميلة التي زارتك قبل يومين؟

هكذا أجد نفسي فجأة أمام سؤال متوقع من امرأة تظل ليل نهار تراقب الصغيرة والكبيرة في هذه البناية. كنتُ أعلم أنها ستطرح علي هذا السؤال في أول مناسبة تجمعنا. أخبرتها أنها صديقة تجمعني بها علاقة عمل. رغم درايتي بأن جوابي لمْ يكن مقنعاً.

***

قضيتُ تقريباً ساعة كاملة في بيت أماندا دون أن أحس بمرور الوقتْ. ولأن للحديث منطقه الخاص ولا أحد يستطيع أن يتحكم في وجهته خصوصاً في مثل هذه الحالات، خضنا في مواضيع كثيرة، لمْ ينقطع حبل الكلام لحظة واحدة، ولمْ نترك منفذاً يستطيع أن يتسلل من خلاله الصمت، تحدثنا عن الهجرة وعن البلدان العربية وعن الدين وعن الجنس والكتابة. إلا أنني لم أود أن أخبرها أي شيء عن نصي الجديد، رغم إصرارها على معرفة ماذا أكتب في هذه الفترة.

وثالث شيء قمتُ به اليوم قبل غروب الشمس. توجهتُ إلى مقهى مقابل للبناية التي أقيم فيها، عثرتُ على طاولة في مكان غير مُنْزَوٍ، بحيث كان باستطاعتي أن أرقب حركة المارة. أفتح الجريدة التي اشتريتها منذ حين. وأدفن فيها رأسي. لكن بعد دقائق يتبين لي أن اختياري لم يكن موفقاً كما توقعتُ في البداية، وأن تلك الزاوية التي أجلس فيها لا تسمح لي بمشاهدة باب البناية. لحظتها كان المقهى يزداد ازدحاماً مع مرور الدقائق.

تأبطتُ الجريدة ووقفتُ. نَظَرَ إلي النادل بقليل من الاستغراب ثم تطلع إلى الطاولة التي كنت جالساً إليها وإلى فنجان القهوة الذي تركته قبل أن أرشف منه رشفة واحدة، ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة. دفعتُ له

ثمن القهوة لكن بدلاً مِنْ أن ينصرف يقف بجانبي، وفجأة يميل علي ويسألني بلهجة مغربية لمْ أسمعها منذ مدة طويلة جداً، إن كان باستطاعتي أن أساعده في تسوية أوراق الإقامة، لأنه مهاجر غير شرعي ولا يملك أي وثيقة. وبينما كنت أبحث عن رد على هذا الطلب الذي لمْ أكن أتوقعه على الإطلاق، خطر ببالي سؤال قد يخطر ببال أي أحد في مكاني: كيف عرف أنني مغربي؟ وما بين دهشة سؤاله وسؤالي، ألمح في تلك الثانية إميلدا وهي تقطع الشارع متجهة إلى باب البناية، اعتذرتُ من النادل وأخبرته أنني سأكون هنا غداً في نفس التوقيت وحينها يمكننا أن نتكلم في موضوعه، ثم تبعتُ إميلدا بخطوات سريعة، تمكنتُ من الوصول إليها عند باب المصعد بالضبط، وهذا ما كنت أريده تماماً.

ولكي يبدو الأمر مجرد مصادفة ولكي لا تشعر أنني كنت أراقبها أو شيء من هذا القبيل. نظرتُ إليها، إلى وجهها الجميل المعجون بقسوة الزمن، فيه صلابة ورضى. عينان حزينتان صغيرتان كأنهما تتحدثان دون توقف، وواصلتُ التفكير بهدوء في انتظار نزول غرفة المصعد التي كانت لحظتها في الطابق التاسع، وكان أمامي بعض الوقت لإيجاد طريقة مناسبة لفتح حوار مع إميلدا التي لمْ تلتفتْ إلي مطلقاً. وراحت حواسي كلها تتأهب، قلتُ في نفسي: ماذا لو بادرتُ بالتحية ثم دخلتُ مباشرة في صلب الموضوع هكذا سأتمكن من قول ما أريد في أقل من دقيقة وهذه هي المدة التي يستغرقها المصعد للوصول إلى الطابق الخامس.

رأيت وجه إميلدا جامداً، ولا يحمل أي تعبير. ولأن كلامي لمْ يحتمل التأجيل اقتربتُ منها قليلاً، ثم قلتْ بلا انقطاع وبلهجة صلبة لأجعل الأمر في منتهى الجدية:

– مرحبا سيدة إميلدا، أنا كمال الشرقاوي جاركم في الشقة رقم عشرة. أريد أن أحدثك في موضوع مهم، سمعتُ بالصدفة أن زوجك فقد عمله وأنك تبحثين عن عمل. في حقيقة الأمر يمكنني أن أساعدكما إن لمْ يكن لك مانع طبعاً.

سألتني دون تفكير:

– من أخبرك أن زوجي فقد عمله؟

أجبت بالبساطة التي بدأتُ بها حديثي:

– سمعت الحوار الذي دار بينكما قبل أيام، كانت نافذة مطبخكما مفتوحة هذا كل ما في الأمر.

انخفض صوتها وهي تسأل:

– هل تتجسس علينا؟

أقف ذاهلاً أرمقها، عيناي جاحظتان مفتوحتان عن آخرهما، ولكي أمتص الغضب الذي كان يتخفى وراء ملامح وجهها بصعوبة من سمع شيئاً لمْ يكن يتوقعه:

– كلا. كل القصة أنني أحببتُ تقديم المساعدة. ولا أقصد أن أكون فضولياً سيدتي.

قهقهتْ مثل طفل. نظرت إلي وعيناها تتساءلان بحيرة ثم أردفت:

– شكراً. لا نحتاج مساعدة أحد.

كدت أسألها لماذا، لكن في لحظة ارتبكتُ. دارت في رأسي أسئلة كثيرة. لكنني لمْ أفصح عنها. رأيتُ طيف ابتسامة تطوف على وجهها. بدت في

عينيها رغبة للحديث لكنها لمْ تنطق بأي كلمة أخرى. فتح باب المصعد في الطابق الخامس. خرجنا منه في نفس الوقت وكل منا توجه إلى شقته.

وأنا أقف خلف باب شقتي المغلق، مستسلماً للخسارة الأولى في معركتي ضد خيوط الرواية، شعرتُ أنني لنْ أتمكن من تحريك الأحداث بالطريقة التي أريد وأشتهي، بل سأقف كوقفتي هاته مستسلماً لما يقع أمامي دون أدنى تدخل في تغيير مسارها. أحسستُ أنني داخل دوامة، وأنّ اختراق حياة أنخيل وإميلدا لنْ يكون سهلاً كما توقعت، وستحتاج مني هذه المهمة مجهوداً كبيراً لا أملكه، على الأقل في هذه الفترة.

كنت على وشك الصراخ في وجهها حينما التفتُّ إليها فالتقت عيناي عينيها. عينان كبيرتان دائريتان تفتقران إلى الشكل اللوزي الذي يمنحها الجمال، مثلما تفتقران إلى ذلك الضوء الداخلي الذي يبرق في العيون عادة مشكلاً سر جاذبيتها وسحرها، عينان مندهشتان ببلاهة. كدتً أصرخ في وجهها تباً لك أيتها العاهرة وتباً ولزوجك السكير. لكن عيونها التي صارت فجأة فارغة من كل شيء، أخرستني وجعلتني أكتم غضبي بين أنفاسي وأنا أدير مقبض الباب. انتابني هلع خفي في تلك اللحظة التي التفتُ إليها، خيل لي أنها تقول شيئاً ما لكنني لمْ أكن أسمعه. وصوت يدوي في أعماقي ويتوسل إليها "أرجوك يا إميلدا قولي إنكما في حاجة إلى مساعدتي لأنني أيضاً في حاجة إلى الكتابة التي لا يمكن أن تتم دونكما. لكن الرجاء ظل محبوساً في داخلي ويرفض لساني أن ينطقه، وأدرك أنني وقعتُ في حب قصة من المستحيل أن تمشي على الخطوط التي سأرسمها أنا. قصة لها أبطالها ولغتها وتفاصيلها الخاصة. ذلك الصوت نفسه يقول لي

الآن، إن نورة وحدها التي كانت تعرف جيداً وقع الكتابة علي. وكيف وتحولني إلى كائن مفعم بالحياة وبالحب.

نورة خير الدين

السبت 1 دسمبر 2018

طنجة

مقهى الحافة.

كان الوقت يقارب الحادية عشر صباحاً، عندما وصل الدكتور خالد، برفقة الدكتور يونس إلى مقهى الخافة حيث كنت أنتظرهما. كانت هناك نسمات هواء تهبُّ باردة من جهة الغرب محملة ببعض الرطوبة. رائحة البحر كانت تملأ المكان. البحر ممتد على طول البصر، قطع السحاب تتحرك ببطء، وأشعة الشمس تخترق كُتَل الغيوم المثقلة بالماء. سماء دسمبر حزينة، رمادية.

أتساءل اليوم وسط هذه العزلة وهذا الانكسار، وأمام هذا البحر الذي أرى فيه أشياء لنْ يرها أحد من الذين يجلسون أمامه الآن. البحر الذي التفّ بعباءة هائلة من الغيوم. البحر ينظر إلي أيضاً، يحدق في مباشرة ويتأملني. أتساءل اليوم وسط هذه الارتباكات. هل من الضروري أن أقحم نفسي في حكاية تحمل الكثير من الأسرار والألغام والشظايا؟

تلعثمتُ وأنا أوجه أول سؤال إلى الدكتور خالد الذي يجلس أمامي والذي كان مسؤولاً عن حالة ناصر بن علي قبل أن أستلم أنا الحالة بسبب إجازته السنوية. قلت له بنبرة حاولت أن أجعلها هادئة:

– في الحقيقة يا دكتور طلبتُ رؤيتك اليوم، وأنا أعلم تماماً أنك في إجازة، لكن الموضوع الذي دعوتك من أجله لا يحتمل التأخير.

صمتُ للحظة ثم واصلتُ:

– أنا هنا لأعرف منك بعض المعلومات عن حالة المريض ناصر بن علي بما أنك كنت المسؤول عن تشخيص المرض وعن استقبال الحالة في أول يوم وصلتْ فيه إلى المستشفى.

ضحكت ثم أردفت ممازحة:

– وأعرف يا دكتور خالد أنك لا تحب الكلام عن الشغل في أيام العطل.

ضحك بدروه وهو يتطلع إلي وكأنه يراني لأول مرة أو كأنه أحس ما يدور في رأسي المليء بالأسئلة، ثم رد:

– تماماً. لكن لا أستطيع أن أرفض لك طلباً عزيزتي نورة.

وبعد لحظة صمت، تابع يقول بصوت خافت:

– ناصر بن علي، يعاني من الفصام. هذه النتيجة توصلتُ إليها بعد معاينة المريض وتتبع كل تفاصيله، وفق البرتوكول الطبي المعتمد. وقد كتبتُ تقريراً مفصلاً عن حالته.

حاولتُ بوجهي أن أعبر بشكل ما عما يطوف في مخيلتي. وقبل أن أطرح عليه أي سؤال قال:

– هل لديك أي اعتراض عن التقرير يا دكتورة؟

– نعم يا دكتور خالد.

قلتها بطريقة أردته أن يوافقني الرأي. رفع يديه قليلاً. كانت إشارته معبرة بوضوح عن الرفض وهو يقول:

– تفضلي أنا في الاستماع.

قلتُ لنفسي: لا أريد أن أجعل النقاش يشبه التحقيق، رشفتُ قليلاً من كأس الشاي ثم قلتُ:

– ألا تظن أن المدة التي تمّ فيها تحليل الحالة كانت قصيرة جداً وغير كافية لتشخيص مرض عصي على الفهم مثل الفصام البرانويدي؟ هذه أول ملاحظة. ثانياً، الأدوية التي تم وصفها لا تناسب حالة ناصر خصوصاً أنه في بداية مرحلة العلاج مثلاً مجموعة البنزوديازيبين. تعطى لمرضى الاضطراب الانفجاري المتقطع. ثالثاً، لا توجد أي معلومة تخص الشخص الذي أحضر ناصر إلى المستشفى سوى اسمه.

نظر إلي وهو يبتلع ريقه. كانت نظراته غريبه وفيها الكثير من الإرتباك، قال وهو يوجه كلامه للدكتور يونس الذي كان غارقاً في شاشة هاتفه منذ جلسنا:

– ما رأيك في هذا الكلام؟

لمْ يلتفتْ إليه وكأنه لمْ يسمعه، ثم وجه خالد كلامه هذه المرة لي مباشرة:

– يا دكتورة. المدة بالنسبة لي كافية جداً لأنني قضيتُ خمس عشرة سنة في هذا المجال ومرتْ علي حالات كثيرة مشابهة يصعب عدها. ثانياً، الأدوية مناسبة تماماً لأن ناصر في يومه الأول والثاني كانت تحدث له انفجارات دون سابق إنذار وتستمر على الأقل ثلاثين دقيقة، كان سريع الغضب ومندفعاً وعدوانياً، إلى آخره. وكان لابد من حقنه بتلك الجرعات الكبيرة. ثالثا، أمر الشخص الذي جاء بالحالة إلى المستشفى تخص الإدارة ولا دخل لي فيها ولا دخل لك أيضاً يا دكتورة.

أشعل سيجارة ثم واصل:

– تعرفين يا دكتورة نورة أن أول درس أعلمه لابنتي هو أن لا تبحث كثيراً في أمور لا تعنيها. وأن تتجنب المشاكل والصراعات التي لنْ تستفيد منها شيئاً سوى وجع الرأس. وأقول لها دوماً: الحياة تسحق الفضولي الذي يرى نفسه أذكى من الجميع.

نظرتُ إليه بعينين تتقاطع فيهما كل ألوان الشك والحيرة. أحسستُ لحظتها أن كلامي أزعجه. أصمت قليلاً وأبدأ في التطلع إلى حركاته غير المنتظمة ببرودة غير معهودة مني في مثل هذه الحالات. اندهشتُ من طريقة كلامه معي، ولكني سرعان ما تمالكتُ انزعاجي. هربت الكلمات من فمي. تأملت عينيه وقلت في أعماقي: لمْ نعد نفس الشخصين اللذين لاقتهما صدفة الدراسة وسنوات العمل أبداً. ثم قلت له بلهجة حاولتْ أن أجعلها مهذبة:

– رسالتك وصلت عزيزي خالد. شكراً على التوضيحات. وآسفة على سرقة هذه الدقائق القليلة من يوم عطلتك.

***

عدتُ إلى البيت ثم أقفلتُ الباب والشبابيك حتى لا يسمعني أحد ورحتُ أبكي. تسرب قلق خفي إلي قلبي. لوهلةٍ ربما، لوهلة قصيرة جداً، شعرتُ أنني ورطتُ نفسي في مشكلة، لكن سرعان ما قلتُ في نفسي وأنا أعيد ترتيب الأحداث من أول نقطة إلى حدود هذه اللحظة: لنْ أتراجع عن معرفة الحقيقة، حقيقة ناصر بن علي.

فجأة أطل ذلك السؤال. من يقف وراء كل هذه الفوضى؟ أخذتُ نفساً عميقاً. كانت استعادة ذلك الحوار مع خالد تجعلني أبذل طاقة استثنائية، قلتُ في قرارة نفسي: التقرير الطبي غير واضح وفيه الكثير من الأخطاء المتعمدة. ناصر له عدو وهو متأكد تماماً من أن عدوه وراء دخولة مستشفى الأمراض العقلية. الدكتور خالد متورط بطريقة ما في الموضوع. هذه التفاصيل دفعتني إلى بناء فرضية تقول ببساطة إن ناصر بن علي ضحية مجموعة من الأشخاص لهم منفعة في التخلص منه.

وهناك فرضية أخرى تقول إن التقرير الذي كتبه خالد صحيح مائة بالمائة، وأن ناصر فعلاً يعاني من الفصام، وأن كل الأشياء التي حكاها لي عن عدواته مع ذلك البرلماني مجرد قصة صاغها عقله المضطرب. فكرتان تتصرعان في داخلي. أحسُّ وكأنني أمام فيلم سينمائي.

***

بعد ثلاثة أيام طلبني مدير المستشفى. وبمجرد ما وضعتُ قدمي داخل مكتبه أخبرني أنه قرر إسناد ملف ناصر بن علي إلى الدكتور يونس. وأنني لمْ أعد مسؤولة عن حالة ناصر منذ تلك اللحظة. كما طلب مني أن أسلم

ملفه إلى الدكتور يونس. دون أن يقدم لي أي تبرير أو تفسير. هكذا ببساطة أبعدني عن ناصر بشكل نهائي وحاسم.

في تلك اللحظة أيقنتُ تماماً أن أشياء كثيرة ومخيفة مُخَبَّأَة في صدر ذلك الشاب النحيل الذي وجد نفسه فجأة وسط المجانين. أحاول بهدوء أن أتلمس خيوط القضية الإجرامية التي وجدتُ نفسي أنا أيضاً داخلها. فهمتُ من تصرف المدير أن الأسئلة التي طرحتُ على الدكتور خالد قد وصلت إليه بالتفصيل. ولكي يجنب نفسه وجع الرأس أبعدني عن ناصر. وبهذه الطريقة يتوقع أنه سيحمي نفسه ومن حوله من فضيحة أخلاقية مدوية ستدخله السجن.

لا يهم إن تمّت إزاحتي عن كواليس اللعبة القذرة التي سيروح ضحيتها شاب في بداية حياته. سمعتُ كثيراً عن قصص مشابهة لهذه، لكنني لمْ أتوقع يوماً أن أكون طرفاً فيها، سمعتُ قصصاً عن أشخاص تمّ التخلص منهم في مستشفيات الأمراض العقلية وفي الأضرحة والزوايا بحجة أنهم مجانين. لكن إبعادي عن اللعبة لا يعني بتاتاً أنني خارجها، سأتحرك من موضعي الجديد وسأكشف للجميع حقيقة المؤامرة التي حبكت ضد ناصر، ولنْ أسمح أبداً بحدوث مكروه له مهما كلفني الأمر. حتى ولو كلفني ذلك الطرد من عملي.

في ذلك المساء رجعتُ إلى البيت متعبة من شدة التفكير ومن تسارع الأحداث التي تجري وتسابق الزمن. دلفتُ إلى المطبخ بعد أن غسلتُ وجهي. أخذتُ فنجاناً ووضعتُ فيه كيساً من الشاي ثم سكبتُ عليه القليل من الماء المغلي. شاهدتُ كيف تيغير لون الماء ويتحول إلى لون ناري مثل وجهي المنهك. أغلقتُ أذني عن ذلك الصوت الداخلي الذي كان

يهمس لي بأشياء مفجعة. أشرب بعجلة. أقطع قطعة خبز، أضع في وسطه مكعباً من الجبن. لمْ أكن أشعر بالجوع ولا بالشبع. أفرغتُ فنجان الشاي ودخلتُ إلى غرفتي. أزحتُ ثيابي من فوق السرير. طويتها ودفعتها أمامي على الكرسي. رفعتُ الغطاء وتمددتُ كالجثة.

وما بين النوم واليقظة مر بذهني كمال، رأيته يقف أمامي على بعد خطوة مني، ضاعت الأفكار التي كنت أود أن أقولها له، والمسافة القريبة التي كانت تفصلنا بدل أن تساعدني على الصفاء والتركيز، جعلتني أرتبك وأذهب بعيداً بخيالي.

تراءت إلي الحياة الماضية مليئة باللاجدوى، أما العداء الذي يغرق صدري ويتجه في كل الجهات والجوانب، فهو طريق للخلاص مثلما هو طريق للهلاك. حاولتُ أن أستعيد صورة كمال. بدت لي الصورة هشة ومتداخلة، أغمضتُ عيني لأتمثله كما كان. لكنني فشلتُ في استعادة تفاصيله التي صارت تبدو اليوم بعيدة جداً.

فكرتُ: لماذا لا أتصل بكمال وأخبره ببساطة أنني بحاجة إليه؟ وأتحدث معه فترة طويلة، وأحكي له عن كل الأشياء التي وقعت لي في غيابه؟ ولنْ أَلُومَهُ كثيراً عن الأوجاع التي سببها لي حضوره وغيابه. وددتُ لو أستطيع عبور البحر الذي يفصلني عنه والوقوف أمامه بنفس الطريقة التي وقف بها أمامي الآن وأصفعه في وجهه بكل قوة.

اه.. كيف تتحرك هذه الأشياء الغامضة في ذاكرتي؟ وكم صرتُ هشة مثل قشة. هذه الهشاشة التي تتملكني لنْ تنفعني في مواجهة حجيم الواقع اليومي.

بعد كل هذا الغياب، لماذا لا يستطيع قلبي أن يتبرأ من حنينه الذي صار اليوم كبيراً بحجم الحزن؟ لماذا يعتقد قلبي أن الدنيا لا تعطي إلا مرة واحدة؟ كل هذه الأشياء تؤكد لي أنني ما زلت أقف في المكان الخطأ. وبهذه الطريقة لن أتفادى المنعطفات القاسية.

الفصل الثالث

ناصر بن علي

الخميس 06 دسمبر2018 .

مستشفى الرازي للأمراض العقلية.

طنجة

أنا الآن متعب ومنكسر. أجد مشقة كبيرة في تجميع أفكاري. اضطربتْ أوضاعي الصحية، ارتفعتْ درجة حرارتي كثيراً وكانت تغشاني لحظات من الهذيان. وصرتُ لا أقوى على الوقوف. أمس تم نقلي إلى غرفة أخرى. تفاصيل كثيرة غابت من ذاكرتي في الأيام السابقة أو بالأحرى لا أعيها، لأن الأدوية التي أعطيت لي، وأيضاً حالة التعب، جعلتني أغرق في نوم عميق أقرب إلى الغيبوبة.

زارني اليوم صباحاً طبيب جديد، اسمه يونس قال إنه المسؤول عن حالتي في هذه الفترة في ظل غياب الدكتورة نورة التي سافرتْ إلى فرنسا لحضور مؤتمر أو شيء من هذا القبيل له علاقة بالطب النفسي.

زفر الدكتور يونس وهو يحاول الابتسام. ثم قال:

– بعض المرضى لديهم استعداد أكثر من غيرهم لأن يبقوا مرضى، ولفترة طويلة، وهذا بسبب رغبة داخلية أكثر مما هو نتيجة أسباب عضوية.

تطلع إليّ بإمعان ليقرأ تأثير هذه البداية، لما وجدني مصغياً باهتمام واصل:

– وآخرون لديهم استعداد وإرادة لأن يتغلبوا على المرض، خاصة من خلال الالتزام بقواعد العلاج.

أرْدَفَ بعد أن جر نفساً عميقاً، وبدا لي صوته مرتاحاً:

– أريدك أن تشفى، أن تتحسن صحتك، هل فهمتني؟

ابتسم ابتسامة عريضة وهو يغادر الغرفة.

الغريب أنني لمْ أتضايق من كلامه. بل يمكنني القول إنني كنت أجد قليلاً من المتعة في الاستماع إلى مثل تلك العبارات التي جعلتني أشعر أن فرصة الشفاء من هذا المرض ممكنة إذا أردتُ ذلك. ساورني أحساس بالذنب تجاه نفسي، كلام الدكتور يونس دفعني إلي التركيز على دواخلي ومحاولة التغلب على الأوهام والهواجس والأسئلة التي تأكل دماغي.

بغتة، يتناهى إلى سمعي من أحد الغرف المجاورة صوت أحدهم وهو يقول: سأتنكر هذه المرة في شخصية القاتل المتسلسل إتش هولمز وسأقتلكم جميعاً. ثم راحَ يصْرُخُ بصوت عالٍ. شعرتُ بخوف كبير وأنا أسمع تلك الجملة، أحسستُ أن حياتي في خطر، وهمستُ في سري بنبرة متعثرة: يجب أن أشفى وأغادر هذا المكان في أسرع وقتْ. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بهذا المقدار من الخوف والرهبة، وكأنني فطنتُ في تلك اللحظة فقط إلى بشاعة المكان الذي أنا فيه.

أحاول أن أحرر ذهني من كل هذه المخاوف لكني لا أستطيع، أكثر من هذا أجدني أترك الفراش رغم العياء الذي يتملك جسدي، مدفوعاً برغبة

لا تقاوم وأتوجه إلى النافذة لأفتحها، أندهش حين أرى الشارع المزدحم بالناس. وأندهش أكثر حين ألمح في الجهة المحاذية لي، وعلى مسافة بعيدة امرأة تشبه الدكتورة نورة إلى حد كبير، تطل من النافذة هي أيضاً. كانت تتكئ على إفريز النافذة، رأسها مائل قليلاً بحيث يمكنني رؤية جزء من وجهها. لمْ يخامرني حينها أدنى شك في أن نورة مسافرة وتلك المرأة التي تقف في الجهة الأخرى وتطل من النافذة تشبهها لا أكثر. بل وخيل إلي أنها عادت من سفرها عمداً لكي أراها من جديد، ولأول مرة ينتابني قليل من الاشتياق إلى نورة. فقد مرت أربعة أيام لمْ أرها، بل وشعرت بالكثير من الحزن على تركها لي في هذه الفترة الصعبة.

يسرح خيالي بعيداً وأفكر في أمر ما كان يخطر ببالي. هل يمكن أن أصل إلى تلك المرحلة التي يفقد فيها المرء إرتباطه بالحياة؟ هل سأفكر في الانتحار كما يفعل كل المرضى الذين يعانون مثلي؟ أم أنني سأقاوم إلى آخر نفس. ليس هناك في النهاية في مثل هذه الظروف الحساسة ما هو أفضل من أن أتبع إرشادات الدكتور يونس والدكتورة نورة التي لا أعرف هل سأراها مرة أخرى بعد أن تعود من سفرها الذي لا أعرف كم سيستغرق.

عاد ذلك الصوت مرة أخرى يقول من الغرفة المجاورة وإن كان هذه المرة بنبرة غاضبة أكثر من الأول: أنا لست مجنوناً، أنا عبقري، وفنان، ومختلف عنكم جميعاً. أنا لا أشبهكم أيها الخائفون من كل شيء، أنا لا أخاف الموت ولا الزمان والحياة والحب.

أترك النافذة وأذرع الغرفة جيئة وذهاباً، في محاولة للسيطرة على اضطرابي. أشعر بالعطش فأتوجه إلى قنينة الماء الموضوعة قرب سريري، أشرب حتى أرتوي، أبلل جبيني بالماء البارد، ثم أتمدد على السرير. في تلك

اللحظة أفكر في أمر لمْ يخطر ببالي على الإطلاق. ماذا لو كانت عالية قد صممت على أن تنتقم لنفسها مني، لأنني تركتها وعدتُ إلى المغرب، فهي كانت تقول دائماً أنها لنْ تسمح لي بالعيش بعيداً عنها، وأن لا شيء سيفرقنا سوى الموت. ربما أو من المؤكد أنها كانت تعرف حقيقة مرضى العقلي، وبلغتْ عني الشرطة، بحجة أنني أشكل خطراً على الناس، أتكون هي من رمتني هنا؟ ممكن جداً وإن كنت في دواخلي أستبعد هذا، هي لمْ تيأس مني تماماً ولا تزال تمني النفس بأن أتزوجها.

أتقدم إلى النافذة من جديد وأنا أحاول أن أتخلص من هذه الفكرة، أنظر من النافذة إلى حيث كانت تقف تلك المرأة التي تشبه الدكتورة نورة، لكنها لمْ تكن هناك، أزداد انحناءً فأكتشف أنها أغلقتْ النافذة، حتى الضوء الذي كان ينبعثُ من تلك الغرفة تلاشى. أتأمل من جديد السماء بسُحُبهَا البيضاء الثقيلة، ثم ألقي نظرة على الشارع المزدحم بالمارة والسيارات، وأغلق نافذتي وأعود إلى الفراش مرة أخرى، ولمْ تكد تمضى بضع دقائق حتى أحسستُ بحركة في الممر أمام باب غرفتي الموصد. أرفع رأسي وأرهف السمع. بعد برهة أسمع صوتاً ثم أرى مقبض الباب يتحرك، أنهض مكاني وأقف خلف الباب، فتح الباب فإذا بي أرى الدكتورة نورة، تبتسم لي وهي تفرك عينها، أرفع رأسي وأحدق فيها، كان واضحاً أنها تنتظر مني كلاماً أو ملاحظة أو تعليقاً. لكني ألتزمت الصمت للحظات قصيرة قبل أن أقول:

– عُدْتِ يا دكتورة.

ردت وهي تضع أمامي على السرير ورقةً وقلماً:

– أكتب هنا عنوان بيتكم في الحسيمة واسم المقهى الذي كُنْتَ تجلس فيه، وأسماء أصدقائك ومعارفك، وإن كنت تتذكر رقم هاتف أحدهم أكتبه لي أيضاً.

ثم أردفتْ بنبرة يتخللها بعض الارتباك:

– بسرعة يا ناصر، ولا تخبر أي أحد أنني زرتك هل فهمتني؟

كتبت لها تلك المعلومات على الورقة بسرعة. وقبل أن تغادر قالتْ لي مرة أخرى:

– لا تخبر أحداً أنني زرتك. وسأحاول من حين لآخر أن أتواصل معك. فلم يعد بوسعي أن أراك كل يوم كما في السابق. المهم سأرجع إليك بعد أيام قليلة.

حين أعود إلى فراشي أحاول أن أطرد من رأسي تلك المخاوف التي لمستها في وجه الدكتورة نورة وفي نبرة صوتها وارتعاش أصابع يدها وهي تمسك الورقة. في تلك اللحظة أيقنتُ من أن تلك المرأة التي كانت تقف خلف النافذة المقابلة لي، كانت الدكتورة نورة. أستعيد كل ما حدث منذ حين في تلك الدقائق القليلة، ثم أشرع في تذكر كلماتها بحثاً عن أي حركة أو إشارة أو نظرة أو أي شيء من هذا القبيل يمكنه أن يساعدني في تفسير ما سمعته، أظل أتنقل من فكرة إلى أخرى حتى يغلبني النعاس.

***

في صباح اليوم التالي، حالما أستيقظ، أهرع إلى النافذة، أفتحها وأنحني قليلاً متطلعاً في حذر إلى نافذة الدكتورة نورة، كانت موصدة. عدتُ إلى

فراشي وبعد أقل من دقيقة جاء الدكتور يونس وتبدو على ملامحه علامات الارتباك، نظر إلي وهو يقول بلهجة صارمة:

- ماذا طلبت منك الدكتورة نورة البارحة؟

أرد بسرعة دون تفكير وكأنني كنت أتوقع منه سؤالاً كهذا:

- لا شيء.

يبتسم ابتسامة خفيفة وهو يتطلع إلي بشيء من الاستغراب ثم رد بنفس السرعة:

- إذن كانت هنا.

صمت قليلاً ثم واصل:

- بعد قليل ستأتي إليك الممرضة لتعطيك الحقنة، ووجبة الفطور.

أغلق الباب بالمفتاح ولمْ يترك لي فرصة أن أقول له، إن الدكتورة نورة لمْ تزرني، ولمْ أرَهَا مطلقاً، ببساطة لأنه كان متأكداً من أنها كانت هنا يوم أمس. شعرتُ لحظتها برغبة قوية في أن أطرح عليه بعض الأسئلة. مثل. لماذا أخبرني أن الدكتورة نورة سافرت إلى فرنسا؟ ولماذا صارتْ فجأة ممنوعة من رؤيتي؟ ولماذا طلبتْ مني تلك المعلومات الخاصة بمحل سكني وأسماء معارفي؟ ولماذا أغلق علي الباب بالمفتاح؟ هذه الأسئلة شَلَغَتْ بالي لحظتها لكنني كنت حريصاً على التزام الصمت وعدم تجاوز الحدود المسموح لي بها. أنا هنا مجرد مريض بائس ليس من حقه أن يطرح أي سؤال.

حالما خرج الدكتور يونس، أجد نفسي وجهاً لوجه مع الدكتورة نورة التي كانت تطل من النافذة. تسري في جسدي ارتعاشة هائلة، تركز علي نظرها وكأنها تريد أن تتثبّت مما ترى. ثم تشيح عني بوجهها. أستمر في مكاني، وبعد أن أستوعب قليلاً المفاجأة تغلق هي النافذة وتختفي. لعلها رأتني وأنا أراقبها من النافذة.

هل أستطيع أن أشفى؟ أو بشكل أصح هل أنا مقتنع بضرورة الشفاء؟ أصبحتْ الحياة بالنسبة لي وأنا ألاحظ كل هذه التفاصيل والأحداث التي تقع أمامي مملة أقرب إلى اللاجدوى، وتستبد بي مثل هذه الغرفة خصوصاً خلال ساعات الليل الطويلة القاتلة، حين تمر أمامي حياتي كشريط بلا نهاية، يسيطر على شعور أن كل شيء تبدد وسقط، وأن ليست هناك إمكانية لبداية جديدة، وأن كل شيء انتهى، وأنني لنْ أشفى من هذا المرض الذي لا أفهمه إلى حدود هذه اللحظة. وكل ما أعرف عنه أنه يجعلني أرى أشياء وأسمع أشياء غير موجودة، وأتخيل أحداثاً لمْ تقع. مرضي ببساطة هو الوهم، أنا أتوهم كل شيء. هذا ما قاله الدكتور يونس.

إذا كنت أتوهم كل شيء. فمن المحتمل جداً أن يكون هذا المشفى وهذه الغرفة والدكتورة نورة والدكتور يونس والممرضة وحارس البوابة والشارع المزدحم بالناس والحمامة التي تحط كل صباح على حافة النافذة مجرد وهم لا أكثر. وأن حياتي الحقيقية توجد في مكان آخر.

في تلك اللحظة اختلطتْ مشاعري، لمْ أعد أعرف هل أنا موجود؟ هل أنا حزين أم فرح؟ تستحوذ علي هذه الأسئلة فأبقى جامداً مكاني. كنتُ أدرك أنه ينبغي ألا أظل واقفاً خلف النافذة، فقد ينفتح الباب في أي لحظة

ويفتضح أمري ويعرف الدكتور يونس أنني أراقب نورة من النافذة. إلا أني لا أتحرك. لمْ أتمكن من مقاومة الرغبة في رؤيتها مرة أخرى.

***

أتذكر في هذه الأثناء أبي وأتساءل أين هو الآن؟

أبي لم يكن يتفهم طبيعة الوضع الذي كنت أعاني منه قبل هجرتي إلى أوروبا، كان يتوتَّر حين تسألني أمي عن أخبار العمل. وكان يدفعني بطريقة غير مباشرة إلى الهجرة. كان يردد دوماً أمامي تلك العبارة: أوروبا هي الحياة. هاجر مثلما فعل أقرانك الرجال. كان يمارس علي ضغطاً كبيراً في كل كلمة يقولها، جعلني أشعر أنني شخص فاشل في زمن مبكر جداً.

لَمْ أَرَ جدّي الشيخ ولو ليوم واحد، فقد ولدتُ بعد وفاته بأشهر، لكنني استأثرتُ باهتمام جدتي، حيث أنساها وجودي موت جدي، كنت حفيدها المدلل حتى حانت ساعتها.

***

مرت أيام كثيرة..

وفجأة صارتْ حالتي الصحية سيئة جداً، ووقعت أشياء كثيرة خلال هذه الأيام.

لقد وضعوا بيني وبين الحياة حواجز كبيرة، صرتُ أشعر أنني بعيد عن الحياة وعن الناس وعن العالم الخارجي. هذا المكان يشبه السجن وأبعد من أن يكون مستشفى.

أشعر بوهن كلي، ولمْ أعد قادراً على الحركة ولا على الوقوف، أترنح بين الحياة والموتْ، وسط أسوار مستشفى الرازي، حيث العزلة الكلية، والتآكل الصامتْ لكل ذرة حية في الجسد، ثلاثة أسابيع مرتْ ثقيلة هنا، كانت كافية لتجعلني أخاف من كل شيء. انتهى في ثانية كل ما حلمتُ به، بتُ أشعر أن الموتْ أهون من مذلة الجنون داخل هذا الظلام الدامس. هويتي ممزقة ولمْ أعد أعرف من أكون، ولا من أين جئتْ، ولا أين أمضى. أتساءل إلى أي حد يمكن أن أتحمل هذه الفوضى التي بلا شكل ولا هوية. أحتضر على مهل وأموت شيئاً فشيئاً كحشرة. سئمتُ الأدوية والحقن والأبواب المغلقة، والعبارات التي يكرّرُها الأطباء كل حين.

سئمتُ حقنة المورفين وعقاقير الهيبوبروفين التي تبعثُ بي إلى عالم آخر، في البداية كنتُ أقاوم الممرضة التي كنت كلما سمعتها وهي تجر عربة الأدوية قادمة إلى غرفتي، صرختْ وشتمتها بكل الألفاظ القبيحة، مع الأيام استسلمتُ لها وصرتُ أحضّر نفسي بشكل آلي للحقنة، وأستعد للنوم.

وزني منذ البارحة أصبح 54 كيلو. هذا ما قاله الطبيب وهو يحاول أن يثنيني عن جنوني. فقدتُ على الأقل عشرين كيلو منذ رميتُ هنا، "أنا لستُ مجنوناً". هذه الكلمات من كثرة تكراري لها، أصبحتْ لا تعني الشيء الكثير، بما في ذلك للطاقم الطبي، في الأمس كانتْ الألام حادة، بالخصوص الإطعام من الأنف، لأنني لمْ أعد قادراً على بلع الطعام أو مضغه. كدتُ أسحب النربيج لولا تدخل الدكتور يونس الذي جمد يدي على صدري، ومن شدة الصراخ لمْ أحس بشيء عندما مستْ إبرة الحقنة العظم، انتبهتُ للألم في ما بعد.

لأول مرة أشعر أنني إنسان بلا قيمة. لا أحد يسمع نداءاتي، لا أحد كلف نفسه سماعي، حتى الدكتورة نورة لمْ تزرني منذ أيام. كما أنني لمْ أرها تطل من النافذة، اختفتْ فجأة رغم أنها وعدتني بالزيارة من حين لآخر. أصبحتُ لا أملك أي وسيلة للاستمرار إلا أن أصرخ يأساً، أصرخ، أصرخ، أصرخ. وكلما صرختُ أكثر زاد عدد حقن المورفين أكثر.

أغمض عيني وأرمي بنفسي في عمق الخوف من الجنون الذي لا بداية له ولا نهاية، أخاف أن أكون فعلاً مجنوناً، وتكون كل هذه الأشياء التي تملأ عقلي مجرد تخيلات وأوهام لا أساس لها من الصحة، وأخاف أيضاً أن يكون كل ما وقع لي حقيقياً وأنا هنا بسبب ذلك البرلماني الحقير الذي رفضتُ أن أبيع له قطعة الأرض. ما زلتُ أتذكر حين قال لي بالحرف الواحد في آخر مرة رأيته فيها قبل أن أجد نفسي هنا:

– سأربيك يا كلب.. وتأكد أنني سأحصل على تلك الأرض بالمجان. قصتك ستكون عبرة لكل من حاول الوقوف في وجه الحاج.

أتذكر أنني قلتُ له بلهجة تَحَدٍّ:

– لن تحصل على شبر واحد. مهما كلفني الأمر.

– سيكلفك حياتك.

– ستقتلني !؟

– أكثر من ذلك بكثير.

أتذكر هذا الكلام، وأنا أتأمل الحائط الأبيض والسقف الأبيض. كيف حدث كل هذا يالله؟ وبشكل سريع وفجائي وقاتل؟ لا أصدق ما حدثْ، ولنْ أصدق. هل أنا عاقل أم مجنون؟ من يجيبني عن هذا السؤال. هذا

السؤال وفقط. ويمكن بعدها أن أرحل عن هذا الجحيم الذي يحيط بي من كل الجهات بكل سهولة. لمْ يعد يهمني أي شيء سوى أن أعرف هل أنا عاقل أم مجنون؟

أدركتُ متأخراً أنهم كانوا يريدون التخلص مني، بعد أن وقفتُ في طريقهم. فهمتْ أنني كنت أشكل عليهم خطراً كبيراً. ربما أنا عاقل لكنهم اتهموني بالجنون كي أنزاح من أمامهم بطريقة لا تخطر على بال أحد. بل أكثر من ذلك، لمْ أكن في عيونهم أكثر من حشرة ضعيفة يمكن سحقها بأبسط الطرق.

أخي مروان حين سجن تركني وحيداً بلا سند، وحين ماتت أمي صار الوضع كارثيّ، كل الذين أحبهم وأخاف عليهم ذهبوا ولمْ يتركوا وراءهم إلا الفراغ والظلام. كنتُ وحيداً بلا متكأ أسند جسمي وعقلي المتعب عليه بثقة.

ربما هذه الفواجع التي أصابتني دفعة واحدة كانت أولى علامات الجنون، ربما فقدتُ عقلي بسبب هذه التفاصيل التي لمْ أكن لأنتبه لها لولا ما وصلتُ إليه الآن. أشعل سيجارة كنتُ قد طلبتها من الممرضة التي لمْ ترفض طلبي. على الرغم من أني توقفتُ عن التدخين منذ وفاة أمي.

ألوم نفسي كثيراً الآن على عودتي من بروكسيل، وألومها أكثر على الطريقة التي تركتُ بها عالية، ربما قسوة التفاصيل التي جمعتنا كسرت الكثير من حبها لي ومن حبي لها. أعتقد أنها صارتْ تكرهني في هذه اللحظة، متأكد من ذلك ببساطة لأنني سحقتُ مشاعرها وأنا في طريقي إلى تحقيق حلمي دون أن أنتبه. آمنت بي وبعالمي الصغير، بنفس الطريقة

التي آمنتُ بها وبحياتها الهادئة المليئة بالفن والجمال والرقة. فقد كانت بحاجة إلي كما كنت تماماً بحاجة إليها وإلى أية مصادفة تمنحنى فرصة للاتصاق بها. في السنة الأولى من علاقتنا كنتُ مصراً على الإنجاب منها، لكنها كانت ترفض الفكرة بحجة أنها غير مستعدة لتصير أماً بعد، وأن الإنجاب مغامرة يجب عدم الإستعجال فيها. ربما كانت على حق، ماذا لو أننا أنجبنا طفلاً وحدث ما حدث، ما ذنب ذلك الصبي في كل هذه الفوضى. يمكنني أن أقول الآن إنني أنا من اختار هذه الطريق، ولمْ يدفعني نحوها أحد.

أضربتُ عن الأكل منذ صباح البارحة، ليس فقط احتجاجاً على عدم السماح لي بالخروج إلى باحة المستشفى مثل باقي المرضى، ولكن خوفاً أن يَدُسَّ الأطباء سماً في الطعام، ورفضاً أيضاً للممارسات الحيوانية التي تمارس ضدي من طرف كل من في المستشفى. اِتهموني بالجنون، أكرر هذه العبارة كل مرة في قرارة نفسي وأطلب من الله أن يمنحني بعض القوة لأستمر في الحياة.

اليوم للمرة الثانية نقلوني إلى غرفة أخرى بلا نوافذ، ما عدا كوة صغيرة فوق الباب مسيجة بقضبان حديدية تدخل منها روائح عفنة، خليط من روائح الأدوية، والبول. وكوة أخرى أقل حجماً من الأولى على الجهة اليسرى.

كنت في عمق النوم حين جثمت علي ممرضة ثقيلة الوزن، ثم كتفني الدكتور يونس كشاه معدة للنحر بمساعدة طبيب آخر، استسلمتُ للأرضية الباردة، وكان من الصعب علي تحمل الوضع صرختُ بأعلى ما أملك من قوة، أنا لستُ مجنوناً يا ناس، في النهاية استسلمتُ لهم بسبب

الدوار، شدتْ الممرضة كل جسمي، ثم أدخلت ذراعي في جاكيت المجانين، وشدت الوثاق بقوة على ظهري، قبل أن تغرس في لحمي حقنة مورفين خشنة. حاولتُ أن أستجمع قواي بعد أن ثقل لساني لكنني لمْ أنجح في ذلك، استسلمتُ لهم في حالة دوار، شعرتُ فجأة بلا جدوى المقاومة.

أغمضت عيني، ارتخى جسدي، جمد لساني. وحين عدتُ من غفوتي الطويلة وجدتني ممدداً على سرير معدني كالعادة، وبجانبي كرسى خشبي وفوقه جاكيت المجانين. على مدار اليوم رفضتُ كل شيء، الأكل والشراب والحديث. صرختُ كثيراً حتى جف حلقي قبل أن يفحصني الدكتور يونس.

أقوم من مكاني مذعوراً. أتحسس قفل الباب، ثم أركب فوق الكرسى وأحاول أن أمد رأسى من الكوة الصغيرة لعلني أرى أحداً يمر من أمامي لكنني لمْ أكن أسمع سوى أصوات المجانين الذين يصرخون بلا توقف.

جالساً على كرسى كسجين في مخفر شرطة، بتُ منهكاً وضعيفاً ومقاومتي انهارتْ كلياً. أشعر أنني تحولتُ في رمشة عين إلى شخصٍ آخر. لا أدري إذا كان مفعول المورفين هو السبب أم الأقراص التي اجبرتُ على تناولها بعد أن فتحوا فمي بالقوة، أم الجوع. عقلي مشوش وتائه ومتعب ومضطرب.

رغم ذلك صرختُ بصوت مرتفع:

– يا دكتور أريد أن أخرج من هنا. الكل تواطأ ضدي، أنا مضرب عن طعام فقط لتعرف أنني مظلوم وما أقوله صحيح. أنا ضحية جريمة موصوفة.

ثم اختفى صوتي ولمْ يعد لدي ما أقوله، أشعر أن داخلي كله رماد، أنا لستُ مجنوناً، أنا مصاب بقرحة في القلب والخاطر وروحي مكسورة إلى ملايين الشظايا. خسرتُ وقتاً طويلاً لأقنع نفسي بسلامة عقلي. لكن عبثاً. أعود مرة أخرى وأقول ربما أنا مجنون. ربما أنا، ربما أنا مجروج في العمق...

فقدت في هذا المكان كل شيء حتى الشهوات البسيطة. وتحولت إلى كائن مقتول في أعماقه. وأن لا شيء يوازي ما أشعر به إلا الصمت. الصمت الذي يحرقني من الداخل.

أحاول النسيان، نسيان كل شيء حصل معي طوال هذه الفترة، أهز رأسي بعنف كبير كالذي ينفض كيساً من الدقيق أفرغ من محتوياته، أشعر أن مخي أصبح يرن مثل جرس كنيسة القديس نيكولاس التي كنت أمر من أمام بابها النحاسي الكبير كل مساء وأنا عائد إلي بيتي في بروكسيل.

أتذكر عالية بكل تفاصيلها. يقهرني حضورها في ذاكرتي، أنظر إلى السقف، وشعور الغبن يأكلني في العمق. غياب عالية في هذه الأثناء بالضبط أحدث بداخلي فجوة كبيرة. فهل كان من الممكن أن أرى الحياة بشكل آخر لو أنها هنا أمامي على مرمى البصر.

عالية الحكيم

الجمعة 14 دسمبر 2018

بروكسيل.

أرى الأشجار الكثيفة من وراء النافذة الواسعة، أحاول أن أنسى غياب ناصر الذي يذكرني بالوحدة والفراغ والضياع. مرت علي هذه الأيام طويلة جداً ولا تُحْتمَل، اكتشفتُ فيها أنني لمْ أتجاوز ناصر بعد، ولمْ تَنْتَهِ قصتُنا كما كنت أتوقع. انتابتني رغبة كبيرة في السفر إلى المغرب والوقوف أمامه وجهاً لوجه، فقط لأقول له: أفتقدك. ثم أعود من حيث جئت، لكني خفتُ من ردة فعله. أدرك تماماً أنه بصدد اختبار قدرتي على الصبر والفراق، أنا أيضاً أريده أن يعرف أن المرأة التي تركها ورحل، قوية وصلبة ولا تنهزم بسهولة أمام الشوق والحنين.

هذا الرماد الذي يملأ قلبي يخصني وحدي ولا دخل له فيه مطلقاً. أكابر وأعاند وأتحدى قلبي وذاكرتي. آه لو أن للذاكرة أبواب لأغلقتها جميعاً وأنام مفرغة من كل شيء، من الصور والكلمات من الروائح والأنفاس التي تذكرني كل حين به.

في تلك الأعوام كنت منبهرة به. لا أعتقد أنني أَحْبَبْتُ إنساناً مثلما أحببته، هو أيضاً كان يحبني كثيراً إلى درجة أنه كان يخيل إليّ أنني مركز الكون بالنسبة له، بل وأشعر أنه لنْ يقدر على العيش بعيداً عني ولو

للحظات، كان ملتصقاً بي طوال الوقتْ، لا يترك بيني وبينه مسافة حتى ونحن نتناول وجبة الإفطار كان يفضل أن يجلس بجانبي عوض أن يجلس قبالتي. يقول إنه يحس بالدِّفْءِ حين يلمس كتفي كتفه، فكيف تغير كل شيء فجأة؟ وصارت المسافة بيننا تقاس بالاف الكلوميترات.

كان ينام باكراً ويفيق باكراً فقط ليكون بجانبي أطول فترة ممكنة، أجمل الأوقات التي أمضيتها معه كانت في الصباح، أنتصب أمام السرير، عندما يفتح عينيه أندفع نحوه. يأخذني بين أحضانه فأطوق صدره بذراعي وساقي وأدفن فيه رأسي غير عابئة بوخز الشعر الذي ينبت فيه. لا أدري لماذا كنتُ أفعل ذلك، ربما لأني كنت أخشى أن أستيقظ ذات صباح ولا أجده أمامي. بتلك الطريقة كنت أحاول أن أقول لنفسي إن هذا الرجل الذي يحب الوقوف أمام المرايا، هو لي وحدي.

كل صباح أراه في غرفة الاستحمام منتصباً بجسده الطويل والمائل إلى النحافة، ذِراعان مكشوفتان، يضع قليلاً من الصابون على خذيه، يغمس الفرشات في الماء الساخن ليدعك بها الصابون محولاً إياه إلى رغوة يطلي بها كامل لحيته، ثم يشرع في الحلق وهو يصفر ويردد مقاطع من أغانيه المفضلة. عندما يجلس إلى الطاولة لتناول وجبة الإفطار أكون دائماً بجواره، لا أفعل شيئاً سوى الأكل. هو الذي يصب لي الحليب والقليل من القهوة في الفنجان، هو الذي يضع السكر ويحرك الملعقة ليُذيبَهُ، هو الذي يقص الخبز شرائح رقيقة ويطليها بالزبدة والمربى. كان يعاملني كما لو أنني طفلته الصغيرة. فكيف تحول هذا الإهتمام المبالغ فيه إلى قسوة وغياب وجفاف ثم موت ثم لا شيء بتاتاً؟

عندما يقترب يوم الأحد يزداد فرحاً، لا لأنه سوف لا يشتغل في هذا اليوم، وإنما لأنه سيجلس أمامي ويتفرج علي وأنا أرسم. كان يستمتع بي وأنا أخلط الألوان مع بعضها البعض، وكان يشعر بشيء من الفخر حين أنتهي من رسم لوحة كان حاضراً لحظة ولادتها، كان يقبلني كلما جلستُ على الكرسى لأستريح قليلاً، لأنني أحب الرسم واقفة. فهل يعقل أن يتحول هذا الشغف إلى خمول قاتل؟

يقول بصوت عال كأنه يخشى أن لا أسمعه. متى يحين دوري وأنال شرف الوقوف أمامك عارياً وترسمني ريشتك بنفس الشغف الذي ترسم شوراع بغداد وشبابيكها. كنت أحب أن أستمع إليه يقول لي ذلك، وكلما ردده بحماس تعمق فرحي.

في مساء يوم الأحد حين أنتهي من الرسم ننزل إلى القبو حيث تتراكم في الخزانة الخاصة بنا، صناديق بألوان مختلفة لزجاجات النبيذ والجعة والمشروبات الغازية الفارغة والمليئة، أكياس البطاطة والبصل. نحاول أن نتعاون على ترتيبها وتنظيفها. ونحن في قمة الفرح والنشوة، ذلك الفعل رغم بساطته إلا أنه كان يخلق بداخلنا نوعاً من السعادة اللا متناهية. كل شيء كان يحصل بيننا كان له طعم خاص. فلماذا مات ذلك الشعور فجأة؟ ولماذا تبدلتْ الدنيا بهذه السرعة وبهذه الطريقة؟

القبلة الأولى التي وقعت بيننا، لمْ أجدها لذيذة كما كانوا يقولون عن أول قبلة، أكثر من ذلك شعرتُ بقليل من الانزعاج، لأني لمْ أدر حين ألصق ناصر شفتيه المبتلتين بشفتي إن كان يجب أن أداعبه بدوري، وخصوصاً إن كان علي أن أحرك شفتي حين يحرك هو شفتيه أو أبقى ساكنة مستسلمة له. ولكن في المرة الثانية صرتُ ألتذ بقبلاته. وكلما قبلني

ازددتُ حباً له، وأحياناً كانت تدفعه جرأته ونحن في مكان عام مثل مقهى أو حانة أو قاعة سينما إلى أن يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. يدخل يده تحت التنورة، وتنزلق أصابعه على فخذي أو على صدري أو أسفل الظهر، دون أن تصل هذه الجرأة إلى حد تلمس الأعضاء الحساسة.

***

اليوم لمْ يعد أي شيء من هذه التفاصيل موجوداً، ناصر رحل بعيداً وأكيد أنه لنْ يرجع. مضتْ على آخر رسالة وصلتني منه قرابة الشهر. وكأن الأرض ابتلعته دفعة واحدة. في الحقيقة لمْ أكن أتوقع بالمطلق أن ينهي مَا بيننا بهذه الضربة القاضية، على الأقل كان يمكن أن ينسحب قطرة قطرة، لكي لا يترك خلفه هذا الكم الكبير من الِالتباس الذي يوجع قلبي قبل عقلي. كان من المفروض أن يجيب على كل الأسئلة التي تضج بها ذاكرتي الآن. ثم يمضي حيث يشاء. وبالطريقة التي يشاء.

لا أدري كيف استطاع أن ينسى كل الوعود التي قطعها على نفسه، بأن نواصل السير معاً حتى تحين ساعة الموت، وأن نكون جنب بعضنا في أقسى الظروف وأكثرها وحشية. كأن شخصاً آخر كان يتكلم بدلاً منه، لا شك أنه كان يكذب في كل كلمة كان يقولها، ومن الواضح أنني كنت غبية أكثر مما ينبغي، وأن ما سمعته منه لمْ يكن سوى ثرثرة فارغة يتفوه بها الرجل لكسب ثقة المرأة والوصول إلى قلبها ثم جسدها بأقل جهد ممكن.

طوال النهار أفكر في ناصر. أدركتُ أنني ارتكبْتُ خطأً حين جعلته محور حياتي، وأساساً مِنْ أساسيات طموحي ومستقبلي. والأسوأ من ذلك اكتشفتُ أنني امرأة ضعيفة وهشة. فكرتُ أن أكتب له رسالة أخرى على

المسنجر، إلا أنني تخليتُ بسرعة عن الفكرة رغم اشتياقي الكبير إليه، إلى نبرة صوته وإلى كلماته. ليس فقط لأنني لا أريد أن أبدو أمامه مهزومة، قتلني الحنين، وإنما أيضاً لأني أريد أن أدفعه إلى الرد أولاً على رسائلي السابقة، أريده أن يضعف هو أيضاً، أن يصرخ في وجهي مثلاً أن يلومني بقسوة على عدم الكتابة إليه أو الاتصال به.

إلا أن كل ما خططتُ له وأعددتُ له سقط مني في ثانية، حين وجدتني فجأة أكتب رسالة إلى صديقه المقرب الذي كان يتواصل معه أمامي بشكل دائم. سألته عن ناصر وأخبرته رغم ترددي الكبير؛ كوني لمْ أتواصل مع ناصر منذ شهر تقريباً وليس لذي أي فكرة أين اختفى طوال هذه المدة. وبعد دقائق معدودة جاء الرد عبارة عن علامة استفهام، وإيموجي يعبر عن عدم الفهم.

في الحقيقة نسيت أن أخبره من أكون، لفرط الارتباك توقعتُ أنه يعرفني. عدتُ مرة أخرى وكتبتُ له رسالة طويلة ومفصلة وواضحة. أخبرته فيها من أكون ونوع العلاقة التي تربطني بناصر وعن المدة التي لمْ أتواصل فيها مع ناصر وعن سبب الخلاف الذي وقع بيننا في آخر مرة تكلمنا فيها عبر الواتس آب. أخبرته كل شيء تقريباً. وصلته الرسالة ثم بعد دقائق قليلة قرأها لكنه لم يرد على سؤالي الأخير. أين هو ناصر؟

جلستُ أنتظر مدة طويلة وأنا أمسك الهاتف بين يدي وأتمنى أن يكتب لي جواباً. لكنه بدا غير مُبالٍ بِمَا قلتْ، انتابني شيء من اليأس، رميتُ الهاتف فوق الطاولة حتى كدتُ أكسره ثم تمددتُ على فراشي في غرفة النوم. وفي ما بعد توجهتُ إلى المطبخ وشرعتُ في حمل الصحون، ووضعها

على الطاولة في الصالون استعداداً للعشاء، كنتُ قد دعوتُ بعض الأصدقاء من العراق للعشاء.

طوال السهرة كنتُ مشغولة البال باستثناء الكلمات القليلة التي لفظتها في البداية، لم أفعل أي شيء، سوى التطلع إلى وجوه الأصدقاء بين الفينة والأخرى. حتى أن بعضهم لاحظ أنني لستُ على ما يرام، لكنني لمْ أغير سلوكي، لمْ أكن أتكلم إلا عند الضرورة مستعملة أقل ما يمكن من الكلمات، وحين سألني أحد الأصدقاء عن سبب هذا الصمت الغريب. قلتُ عبثاً أنني متعبة قليلاً. وعندما سألني آخر عن ناصر قلت سهواً: افترقنا منذ مدة.

في الليل أتناول مخدة ناصر أضعها فوق رأسي، وأغمض عيني. حالما صحوت استدرتُ لألتصق به. غير أنه لمْ يكن هنا، المخدة باردة، لكن مكانه تحت الغطاء لا يزال يحتفظ بشيء من الدفء. تفقدتُ هاتفي لعلني أجد رسالة من صديقه، لكنني لمْ أَعْثُرْ على شيء. لا أغادر الفراش. أتقلب قليلاً، ثم أرقد على ظهري. مخدته الآن فوق أنفي تماماً. رائحتها قوية، خليط من العطر والعرق، رائحة رجل كان يوماً هنا. أمرر أنفي على المخدة ببطء بحثاً عن النقطة التي تتركز فيها الرائحة. أضغطُ قليلاً بيدي اليسرى، على المخدة لكيلا تنزلق، وأشرع في شمها وأنا أتحسس بأصابع اليد الأخرى مكانه الذي صار بارداً وفارغاً وجافاً مثل الموت.

لأول مرة في حياتي أشعر أنني غير قادرة على أن أخرج من ذاكرتي ذلك الرجل بجسده النحيل الرقيق الهش. أتألم في سري وأنا أسمع نبرة صوته وهي تتردد في زوايا البيتْ، في بعض الأحيان أتساءل عما إذا كان رحيل ناصر له علاقة ما- ومن يدري؟ بكوني كنت أعرف قبله عشرات الرجال

من مختلف الجنسياتْ، هو الذي أخبرني ذات يوم أنه لمْ يتقبل فكرة أنه سبقني إليه الكثير من الرجال. بل وحتى عما إذا كان عقاباً إلهياً على ما كنتُ أفعله بكل الذين وقعوا في حبي قبله وتركتهم دون أن أهتم لمشاعرهم اتجاهي، كنتُ أفعل بهم مثلما فعل بي ناصر تماماً.

أشعل الضوء وأتمدد على بطني. أضع المخدة على مخدتي، أشبك ذراعي وأضغط بهما بكل قوة لكي تنتقل رائحة ذلك المزيج من العطر والعرق إلى مخدتي. وعندما أنتهي تقع عيناي على شعرة عالقة بطرفها. ثم على ثانية وثالثة. ألتقط واحدة أقربها من اللمبة، أتطلع إليها قليلاً. ثم أعيدها إلى مكانها. أطفئ الضوء فوراً. وأرقد من جديد على ظهري.

أستعيد كل ما حدث لي مع ناصر، أتوقف عند أبسط التفاصيل، أحاول أن أستخرج من عقلي جواباً لذلك السؤال الذي يرن في أذني مثل الجرس. أين اختفى ناصر ولماذا؟

أتطلع إلى الساعة، وأندفع خارج الفراش، ألاحظ وأنا أغسل وجهي أن تلك الشعرة علقت في عنقي دون أن أنتبه. أقرر أن لا أبعدها عن ذلك المكان الذي اختارته، لأني أردتها أن تصحبني أطول وقت ممكن، ربما هي آخر شيء تبقى لي من جسد ناصر. وبالرغم من أنني أشعر بالجوع، فإني لمْ أشرب سوى فنجان قهوة ولمْ آكل سوى بيضة مسلوقة، فعلتُ ذلك بسرعة وبدون حتى أن أجلس. ثم توجهتُ إلى المرسم رغم أنني لمْ تكن لي الرغبة في حمل الفرشاة. لكنني كنت أحاول أن أهرب من ذاكرتي لا أكثر ولا يهم إلى أين، المهم أن أفعل أي شيء يبعدني عن ناصر وتفاصيله المرهقة. لا أدري لماذا عاد إلى ناصر بكل ثقله مرة واحدة. ما أشعر به هو أن قوة داخلية غامضة تجرني إلى التفكير فيه بهذا الاسهاب. وهي المرة

الأولى التي يحدث لي فيها ذلك، رغم أنني لمْ أرَ ناصر منذ شهور طويلة. فلماذا استفاقت الذاكرة دفعة واحدة. أقول في نفسي ربما مسألة وقت لا أكثر وتنتهي هذه الأحاسيس التي تغمرني منذ وضعتُ مخدته على رأسي.

سأتصل به على الهاتف من رقم مختلف. ثم فكرت بماذا سأجيبه لو سألنني عن سبب اتصالي المفاجئ؟ هل أقول له إنني أسيرة قوة غامضة تجذبني إليه رغم أنه تركني مسحوقة القلب. أم أني فقط أريد أن أعرف كيف حاله، أم أنني بكل بساطة لا أعرف كيف قادني قلبي إلى كتابة رقم هاتفه.

بعد لحظات أتخذ قراراً يبدو لي معقولاً سهل التنفيذ، ويستجيب بشكل ما لهذه الأحاسيس التي تعتريني وتعريني أمام نفسي. وهو أن أتصل بصديقه عبر المسنجر.

دخلتُ إلى التطبيق، اتصلتُ بصديقه. مرة واحدة ولم يرد ثم كررتُ الأمر مرة أخرى لكنه هذه المرة أقفل الخط. وبعد دقائق أرسل لي تسجيلاً صوتياً مدته دقيقة ونصف. حين لمحتُ ذلك التسجيل شعرتُ أنني بصدد معرفة بعض المعلومات التي من الممكن أن تخفف عني بعض الارتباك الذي أحس به. رفعت من صوت مكبر الهاتف ثم شَغَلْتُ ذلك التسجيل. قال لي صديقه بلهجة مغربية صعبة الفهم من المرة الأولى: أنه لا يعرف عن ناصر أي أخبار منذ شهر تقريباً. وأن هاتفه مغلق وأنه لمْ يفتح حسابه على الفيس بوك وعلى الوتس آب أيضاً. كما أنه كان يتوقع أن ناصر عاد إلى بلجيكا. وفي الأخير طلب مني أن أخبره في حالة توصلتُ بأي جديد.

هذه الدقيقة والنصف جعلتني أشعر بالكثير من الخوف على ناصر، وطرح ببالي أكثر من سؤال، وفي محاولة لتجاوز كل ذلك. أرسلت له بدوري تسجيلاً طالبته فيه بأن يخبر الشرطة عن حالة اختفاء ناصر. لكن رده كان موجزاً وفيه الكثير من نقط الاستفهام. قال لي بالحرف الواحد. إنه لا يريد أن يقحم نفسه في المشاكل. سألته بسرعة عن أي مشاكل يتكلم. لكنه هذه المرة لم يرد بل قام بحظْري.

حاولتُ أن أتواصل معه من حساب آخر كنت أستعمله في فترة سابقة، إلا أن الأمر لمْ يكن مجدياً. بل أستطيع أن أقول إنه أدى إلى عكس ما كنت أنتظر، إذ فاقم ارتباكي وخوفي حين قام بحظْري مرة أخرى. الدقائق تمضي بسرعة وأنا أعيد الاستماع إلى تلك التسجيلات الصوتية.

ودون تفكير توجهتُ مباشرة إلى مخفر الشرطة القريب من الحي. رغم أنني لمْ أكن متحمسة لفعل ذلك لكنني شعرتُ أنه من الضروري أن أقوم بالتبليغ عن الاختفاء. وهذا أقل شيء يمكن أن أفعله من أجل ناصر.

لكن الشرطة لمْ تتفاعل مع كلامي بطريقة جيدة، بسبب أن الاختفاء وقع خارج حدود الدولة، وأن المختفي لا يحمل الجنسية البلجيكية، ولا يمكنهم تقديم المساعدة في هذه الحالة.

عدتُ إلى البيت ولمْ تعد لي الرغبة في فعل أي شيء. الشيء الوحيد الذي أرغب فيه هو أن أصمتْ وأن أنسى أمر ناصر نهائياً. قلت في نفسي: هو الذي اختار مصيره وهو الذي قرر العودة إلى وطنه. وليس لي أي دخل في ما يمكن أن يكون قد وقع له هناك. ولو أنه أراد مساعدتي كان سوف يتصل بي.

بعد الظهر، بدلاً من أن أدخل إلى مرسمي، وهو ما كنت أنوي القيام به، اتصلتُ بكمال الشرقاوي رغم أنني لمْ أكلمه منذ فترة طويلة، أي منذ آخر خصام وقع بيننا. أخبرته أنني أنوي زيارته غداً، لكنه قال: إنه مشغول قليلاً ومن الأفضل تأجيل الزيارة إلى يوم الأحد. لمْ أتوقف كثيراً عند رده البارد. توجهتُ إلى محطة القطار. اشتريت تذكرة إلى مدينة أوستيند. لأنني شعرتُ فجأة برغبة قوية في أن أرى البحر الذي لمْ أشاهده منذ فترة طويلة. وفي الطريق حجزتُ غرفة في فندق يطل على الشاطئ.

أقضى ما تبقى من اليوم في القطار، وعندما وصل القطار إلى المحطة كان الليل قد هبط، كنت متعبة من كثرة الجلوس. ركبتُ واحدة من سيارات التاكسى التي تصطف أمام محطة القطار، يسألني السائق عن وجهتي بصوتٍ عالٍ حين رآني أتقدم من سيارته. أجيبه فيقول لي إنه أنهى شغله ويعتزم العودة إلى بيته. وهو يبحث عن زبون يود الذهاب إلى الحي الذي يقيم فيه.

أتركه وأتوجه إلى سيارة أخرى، لكنه يلحق بي ليقول لي إنه باستطاعتي أن أستقل سيارته. أحرك رأسى موافقة. عندما أفتح باب السيارة الخلفي يأمرني بالجلوس إلى جواره لأن المقعد الخلفي يكدس عليه علباً وأكياساً. أنفذ أمره دون أن أقول شيئاً بالرغم من أني أفضل الجلوس على المقعد الخلفي.

تنطلق السيارة في اتجاه الفندق. وعند أول ميدان تنعطف إلى اليمين، وبدلاً من أن تسلك الشارع الذي تسلكه كل السيارات المتوجهة إلى ضاحية الشاطئ حيث الفندق الذي سأنزل فيه، تدخل في أزقة وشوارع ضيقة، يعن لي أن أسأله عن السبب. لكني لا أفعل لأني لمْ أكن متأكدة من

أن الطريق الذي اختاره أطول من الطريق الذي اعتدتُ أن أمر منه في المرات السابقة التي زرتُ فيها هذه المدينة البحرية الهادئة.

وعند وقوفه أمام أول إشارة للضوء الأحمر، يتعالى صوت فيروز مردداً أعنية، "موعود بعيونك أنا موعود.. وشو قطعت كرمالن ضيع وجرود.. إنت إنت عيونك سود". غمرتني بهجة حقيقة لما ارتفع الصوتْ. بهذه الأغنية التي لمْ أستمع إليها منذ فترة طويلة، لكن المشكلة هي أن أذني لمْ تحتملا الاستماع لأكثر من بضع ثوان فقد كان الصوت مرتفعاً أكثر من اللازم. التفتُ إلى السائق عدة مرات لكي ينتبه إلى أني متضايقة. غير أن هذا لا يُجْدِ نفعاً.

فجأة يرفع صوته ويغني بصوت غليظ وهو يخبط على المقود بيده اليمنى خبطات خفيفة لمجاورة إيقاع الأغنية. بعد تردد أتجرأ وأطلب منه بلهجة عربية أن يخفض الصوت قليلاً، يتوقف عن الغناء. ويظل للحظة صامتاً. ثم يسألني بلهجة مغربية مهذبة:

-هل أنت مغربية.

أجبته بالنفي فرد باستغراب:

- من أيّ دولة أنت؟

- العراق.

يشعل اللمبة المثبتة في سقف السيارة فوق رأسينا، ينظر إلى قليلاً. ثم يقول وهو يطفئها:

- لقد وصلنا إلى فندقك.

أشعر بالحرج، ينتابني قليل من الانفعال بسبب تصرفه، إلا أني ألتزم الصمت. يسكت بدوره قبل أن يقول شيئاً كان على حافة لسانه، يتناول مني الورقة المالية ويشعل اللمبة مرة أخرى، وراح يبحث عن النقود التي سيعيدها إلي.

لم أتبين النقود، ولم أنظر إلى العداد. دسّيتها في حقيبتي اليدوية. ونزلت من السيارة. وفي الممر الذي يشق الحديقة التي تحيط بالفندق أتوقف قليلاً أستدير نحوه وأشرع في التطلع إليه وأنا أقول بنبرة مسموعة: أكيد هو عربي هذا واضح تماماً من تصرفاته.

ياه.. أقول في سري: حتى أغاني فيروز التي كنت أعشقها صارت اليوم مجرد أصداء كلمات لا معنى لها. شيء ما ينخرني من الداخل لا أستطيع أمامه أي شيء سوى الانتظار.

أتذكر في ذلك الليل البعيد، حين شربنا أنا وناصر، واكتشفنا أن لنا جسدين يستحقان أن يُحتفى بهما. أين هو الآن؟ أين اختفى ذلك الرجل الذي يقلب كل شيء ولا يأخذ الأشياء كما تأتي ويفلسف الحياة ويقودها نحو ما يرضيه فقط.

اه.. كيف كسر ناصر كل يقينياتي وجردني من كل أسلحتي القديمة؟ بدأت بسرعة أفتقد كلماته التي عودني عليها. ما زلت كما تركني في المرة الأخيرة. ماذا أقول الآن وأنا أمام البحر والليل والضباب غير أنني أخاف أن يسرق مني الزمن ناصر.

كمال الشرقاوي

السبت 15 دسمبر 2018

سالامانكا

كنت قد عزمتُ على كتابة مقالة عن الرقابة الأدبية في البلدان العربية، طردتُ من ذهني كل الأفكار التي كانت تراودني بخصوص روايتي الأخيرة، وركزتُ كل اهتمامي على موضوع المقالة، بذلتُ أيضاً جهداً هائلاً في تجميع تجارب الكُتاب العرب مع رقابة السلطة السياسية والدينية لكي لا تفوتني أي تجربة.

ومع ذلك أفشل في الاستمرار في الكتابة. شيئاً فشيئاً يتسلل إلي الملل ولا أعود قادراً على المتابعة، رغم كل التشجيعات التي ألقاها من رئيس تحرير الجريدة التي كانت مهتمة بنشر المقالة. أبقى وقتاً طويلاً أبحلق في شاشة الحاسوب، لكني في الأخير أترك كل شيء ثم أقوم وأتسلل خارج الغرفة على أطراف قدمي وبدلاً من أن أتوجه إلى الحمام أدخل المطبخ.

الأواني الوسخة مكدسة في الحوض. لمْ أجد ما يكفي من الوقت لغسلها. فمنذ أيام لمْ أقم بأي شيء في ما يخص تدبير شؤون البيت. أنتهز ذلك الشعور بالملل من الكتابة، وأبدأ في غسل ما تراكم في الحوض. في السابق وخصوصاً في العام الأول من زواجنا كنت أحب مساعدة نورة في تدبير شؤون البيت. ببساطة لأنني كنت أحب غسل الأواني، أحب أن

أغمس يدي في رغوة الصابون وأن ألمس الماء وهو ينسكب من الصنبور وأن أتركه يسيل بين أصابعي فهذا يريحني تماماً مثلما يريحني المشي تحت رذاذ المطر.

حين أكمل الغسيل لا أعود إلى غرفتي. أتوجه إلى الصالون وأتمدد فوق الأريكة. وأتذكر بشيء من الحزن تلك الليلة التي اعتقلتُ فيها لأول مرة بسبب رواية "سوط السلطان" كان ذلك قبل أن أفوز بجائزة البوكر بخمسة أشهر. كان في انتظاري بمخفر الشرطة. رجل سمين جداً يرتدي بذلة رسمية وآخر يرتدي ملابس عادية. سروال جينز أسود وقميصاً أزرق فاتحاً ويحمل بين يديه نسخة من الرواية. أتذكر أنه بمجرد أن جلستُ أمامهما على كرسي خشبي توجه نحوي الرجل السمين بعد أن سحب الرواية من مرافقه ووضعها أمامي على طاولة خشبية صغيرة وهو يقول بوُدّ:

– هل تعتقد أن ما كتبته هنا يعتبر إبداعاً؟

دورتُ عيني في المكان، كأني أحاول أن أتذكر أين أنا. ثم قلت:

– لمْ أفهم سؤالك للآسف.

رفع نظره صوبي ماسحاً ملامح وجهي بنظرة عابرة وقال موضحاً:

– سوط السلطان. هذه الرواية يمكن بكل سهولة أن تضعك في السجن. بتهمة انتهاك الأداب العامة وخدش الحياء.

صمت للحظة ثم أردف ضاحكاً وهو يحمل الرواية من فوق الطاولة:

– هذا الكتاب يمكن أن أصنفه ضمن أدب غرف النوم. هذا فيلم بورنو وليس أدباً.

ضحكتُ وأنا أقول في سري. توقعتُ أن يصنف الرواية ضمن أدب السجون. وأن يسألني عن السياسة والنظام والسلطة. أو على الأقل أن يوجه لي تهمة الكتابة عن "المقدس". الذي لمْ يسبق لأي كاتب مغربي يعيش داخل الوطن أن كتب عنه. لكنه وجه لي تهمة خدش الحياء. ظللتُ أنظر إليه مذهولاً قبل أن أستعيد بعض تركيزي. فقلت سائلاً بلهجة هادئة:

– هل قرأت الرواية؟

ظل صامتاً لفترة طويلة ولمْ يرد. ارتسمت على وجهه معالم حيرة واستغراب. كان يهمني كثيراً أن أعرف جوابه. لأنه كان سيحدد لي طريقة النقاش التي سأعتمدها معه. قلت بعد صمت طويل:

– إذا كنت تقصد تلك المقاطع القصيرة التي لا تتعدى خمس صفحاتٍ ونصْفاً والتي وصفتُ فيها جسد المرأة وجسد الرجل والعلاقة الحميمة بينهما. دعني أخبرك أنني كتبتها للضرورة السردية. وهي ضمن السياق العام للحكاية. كما أنني لمْ اخترعها من خيالي تلك الأشياء التي وصفتها أنت بالخادشة للحياء هي موجودة في مجتمعنا. في البيت والشارع وفي سلوكنا اليومي وفي أحلامنا...

قاطعني بحركة سريعة من يده ثم قال:

– هل تبحث عن الشهرة من وراء هذه الرواية يا كمال؟

ابتسمتُ بشيء من الحزن الخفي. وكدتُ أن أقول له إنني كتبتُ فقط ما وقع لأعز أصدقائي الذي مات في السجن بعد التعذيب الذي مارسته عليه السلطة. لأنه قال "لا" في وجه "المقدس" الذي لا يقدر أي كان على

الوقوف في وجهه. لكنني تراجعتُ في آخر لحظة. وشعرتُ أنه من الضروري أن أخفي عنه كل ما يعتمل داخلي من أفكار وأحاسيس. ويجب أن لا أقول له شيئاً مما أفكر فيه. فليس من اللائق أن أفسد عليه هذا التركيز الكبير على تلك الصفحات القليلة الخادشة للحياء. الحياء الذي يوليه على ما يبدو كثيراً من الاهتمام. قلت:

– الكاتب لا يبحث عن الشهرة من خلال الكتابة، هو فقط يطرح الأسئلة ويمضي.

رد وهو يتصفح الرواية:

– أنت تطرح المشاكل وتفتح على نفسك أبواب جهنم، ولنْ نتركك تمضي هكذا بهذه السهولة التي تظن. وكأن شيئاً لمْ يحدث. سنحاسبك عن كل حرف وكل كلمة كتبتها هنا.

– لماذا كل هذا التركيز على روايتي؟

لا أعرف كيف خرجت الكلمات من فمي، وبينما كنت أبحث عن صيغة أخرى لأطرح بها السؤال من جديد. أجابني:

– لأنك تحاول أن تُنصب نفسك محامياً عن الشعب.

يسكت وبعد برهة يحدق فيّ بعينين متيقظتين. كأنه تذكر فجأةً شيئاً مهماً كان قد نسيه.

– يمكن بكل بساطة أن نجرك من هذا المكتب إلى الزنزانة مباشرة. وتلقى مصير صديقك العزيز الذي قلت عنه في تدوينتك أنك أنصفته بهذه الرواية.

صمت للحظة وهو يفتح باب المكتب ويشير إليّ بيده اليسرى لأغادر. وقبل أن أتخطى الباب بخطوة مسك ذراعي بقوة وجرني نحوه حتى كدتُ أسقط على وجهي الذي كان يتصبب عرقاً بارداً. حاولتُ أن أسيطر على إحساسي بالانزعاج وأستعيد توازني وهدوئي. من حقه أن يفعل ذلك أقول في نفسي. فيرد هو بنبرة تهديد واضح:

– اسمع يا كلب يا زير النساء يا سكير. لا تكتب مرة أخرى عن أسيادك الشرفاء بهذه الطريقة وإلا إنتزعنا أصابعك واحداً واحداً. واقتلعنا أسنانك من جذورها.

***

أتذكر هذا الموقف. وتلك الجملة الأخيرة التي همس بها ذلك السمين في أذني، ولا أكاد أصدق كيف نجوتُ من بين أنياب الكلاب المسعورة التي تفتك بكل شيء يعترض طريقها. وكيف هربتُ من تلك الأرض المتخمة بالألم والقسوة والقهر. لا أكاد أصدق أنني صرتُ بعيداً بما يكفي عن مدن الخوف. لكنني لا أعرف لماذا ينتابني القلق كلما تذكرتُ تلك الفترة التي تعرضتُ فيها لكل أنواع المضايقات والسب والشتم والتهديد من طرف السلطة ومن طرف حراس النوايا والأخلاق.

وأنا أسترجع هذه الأحداث الموجعة الآن، تذكرتُ فجأة موقفاً حصل من صديقي الشاعر حين رغب في نشر ديوانه الأول، طلب منه الناشر بكل وقاحة أن يبتر من ديوانه قصيدة بعنوان: إرْحَلْ. ربما لأنه شعر بالفزع من ذلك العنوان. الناشر أو يمكن أن أسميه الرقيب الأول لا يعرف ما معنى أن يطلب من شاعر طلباً كهذا لأنه لا يدرك حتماً حجم الألم في لحظة

ولادة القصيدة. وما زلتُ أتذكر أيضاً نبرة صديقي المفعمة بالعنفوان والمتخمة بالرغبة وهو يردد تلك القصيدة على مسامعنا ذات مساء في حانة صغيرة.

من الحمق حقاً أن أفكر في العودة إلى المغرب. لنْ أفعل هذا الأمر وأفضل أن أموت وأدفن هنا في سالامانكا. ليس هناك ما هو أكثر وضوحاً من الشعور بالغبن.

حين يجد الإنسان نفسه في مكان لا يحترم إبداعه ولا إنسانيته. ومرغماً على أن يمشي وسط القطيع زاحفاً على بطنه. ثم إنني لا أفهم إلى حد الآن كيف يستطيع الإنسان العيش وسط الذل دون أن يتفوه بكلمة واحدة. أنا في الحقيقة لا أقدر مطلقاً، لأن جدتي علمتني منذ الصغر كيف أكون حراً ولا أنحني إلا لحظة الصلاة. ولا أسمح لأي شخص بالاعتداء على كرامتي وحريتي.

***

أفتح النافذة وأنظر إلى السماء، وفي اللحظة التي أتطلع فيها إلى الأسفل أتفاجأ، بالسيدة إميلدا وقد عبرت الشارع متوجهة إلى باب البناية، لوحتْ لي بيدها حين لمحتني أمد جذعي قليلاً إلى الأمام، صوبتْ إلى نظرة خاطفة حادة وهي تتمتم بكلام لمْ أتمكن من سماعه لأن المسافة بين الطابق الخامس والأرض بعيدة جداً.

يصدمني المشهد فأتراجع وأغلق النافذة على الفور وقد خيل إلي أنها كانت تسبني، ربما لأنها ظنت أنني أراقبها أو شيئاً من هذا القبيل. من المؤكد أنها ما تزال منزعجة من الكلام الذي قلتُ لها ونحن نركب المصعد،

وإلا فلماذا هذه النظرة العدوانية؟ ولماذا هذا الكلام الذي لا شك أنه شتائم؟ فأنا لمْ أكن أنوي سوى تقديم يد العون لها ولزوجها السكير العاطل.

لا أدري كيف أوقعتُ نفسي في هذه المشكلة والعداوة المجانية، أحس أني ساذج وينتابني الغضب، وما يزيد في غضبي هو الخوف من أن تقول لزوجها أنها ضبطتني أتلصص عليها أو أعاكسها. أو تخبره أنني أتجسس عليها. الخوف من أن ينتشر الخبر وينفضح أمري في البناية.

كنت غارقاً في هواجسي حين سمعتُ فجأة طرقات خفيفة على باب شقتي. استبد بي القلق وقلتُ في قرارة نفسي؛ من المؤكد أنها تريد أن تشتمني وجهاً لوجه. لكن لنْ أفتح الباب وأمنحها تلك الفرصة. أتطلع إلى السقف متظاهراً بعدم سماع أي شيء. شعرتُ برهبة كبيرة وبعرق يتسرب بارداً أسفل عنقي، وكأنني اقترفتُ جريمة. كنتُ واثقاً من أنها ستمل من طرق الباب وستغادر في أي لحظة. لكنها على ما يبدو كانت مصرة على أن أفتح الباب لأنها صارتْ ستطرق الباب بقوة. قمتُ من السرير وتوجهتُ نحو الباب أمشي على رؤوس أصابعي وأنا أرتعد من شدة الارتباك، سلمتُ أمري للخالق وتركته يقودني إلى حيث يشاء. وقفتُ خلف الباب الخشبي الذي يفصل بيني وبينها للحظة قصيرة. ثم انحنيتُ بكامل جسدي على الأرض وحاولتُ أن ألمح شيئاً من الشق الرقيق أسفل الباب. لكنني لمْ أشاهد شيئاً سوى الظل. لكنني شممتُ رائحة عطرها. كانت قوية بما يكفي لتتسلل من ذلك الشق الضيق. هي نفس الرائحة التي استنشقتها في ذلك اليوم حين استقللْتُ المصعد وأنا أقف على بعد خطوة منها.

وفيما كنتُ أفكر في الرجوع إلى غرفتي وعدم فتح الباب، وجدتني فجأة أضع يدي على المقبض وأفتحه ببطء. وجدتها أمامي واجمة منتصبةً مثل صنم حجري، ملامحها جافة. تتفحصني ملياً كما لو أني كائن قادم من الفضاء، ثم قالتْ:

– هل يمكنني الدخول؟

تفلت مني ابتسامة خفيفة وأنا أقول:

– طبعاً.

دلفتْ إلى الداخل، ثم طلبت مني فنجان قهوة. تمسك بالفنجان بيديها الاثنين. ترفعه على مهل إلى فمها. تكور شفتيها فيبدو الأحمر عليهما أكثر وضوحاً. تتجرع رشفة صغيرة. تمطقها طويلاً بعد أن تعيد الفنجان إلى مكانه على الطاولة وهي تقول:

– أعتذر إن أزعجتْكَ زيارتي في هذا الوقت. لكنني قلتْ من الواجب أن أشكرك على نبلك وشعورك الجميل اتجاهنا.

أهز رأسي بالإيجاب، وقد انزاح عن صدري ثقل الخوف الذي كاد يشلني قبل أن أقول لها:

– في الحقيقة يا سيدتي. شعرتُ أنني معني بشكل ما بهذه الأزمة المادية التي تمر بها أسرتك. وقلتُ مع نفسي من الضروري أن أتدخل لإيجاد حل مناسب.

أحس أنها في حرج وأنها لا تريد أن تسبب لي أي إزعاج، فأواصل لكي أطمئنها:

– لا تشغلي بالك..

تظل صامتةً للحظة قصيرة، ثم تقول بلهجة من اتخذ قراراً:

– كيف يمكنك مساعدتنا؟

يخطر ببالي أن أروي لها الحكاية بكل تفاصيلها، لكني لا أفعل، بالرغم من أنني كنت متأكداً من أن هذا اللقاء فرصة مناسبة للتخلص من أسرار هذه الخطة التي تشغل بالي وأقول لها بعبارة صريحة، أن تقوم هي وزوجها بسرقة ذلك الكهل أرتورو. لكنني قلتُ بعد تفكير طويل:

– أخبرتني مشرفة البناية بالصدفة. أن السيد أرتورو يبحث عن امرأة تساعده في تدبير شؤون البيت. كنس، طبخ، غسيل وأشياء من هذا القبيل. وكما تعرفين طبعاً إنه يعيش لوحده في تلك الشقة الطويلة العريضة، وجسده المريض لا يسعفه على ممارسة أشغال البيت. وإذا ناسبك الأمر من الممكن أن أجعل مشرفة البناية تخبره بذلك. وبهذه الطريقة يمكنك الحصول على مبلغ يساعدكما في هذه الأزمة. خصوصاً وأن أنخيل سيحتاج إلى وقت طويل جداً حتى يجد عملاً آخر.

تبتسم دون أن تتفوه بأي كلمة. أومئ برأسي وأنا أنظر إلى زنديها العاريين ثم أردفت:

– ذلك العجوز ثري جداً، ويمكن أن يخرجكما من هذه الورطة. وعلى حد قول أماندا فهو يملك مزهريات نحاسية وأخرى من الفضة تقدر بأثمنة باهضة جداً. المزهرية الواحدة كافية لحل مشاكل كل سكان البناية دفعة واحدة. بالإضافة إلى مجموعة من الساعات الغالية والعطور واللوحات الفنية الأصلية. تقول أماندا أيضاً إنه يحتفظ بمبالغ مالية مهمة

في خزانته. وبهذا الثراء الفاحش لنْ يجد صعوبة في دفع المبلغ الذي يناسبك.

سكت أنتظر ردها، لكنها كانت شاردة قبل أن تنتبه متأخرة إلى انتهاء حديثي. تجاوزت تجاهلها لكلامي وقلت:

– ما رأيك؟

– سأفكر في الموضوع.

لا أدري لماذا شعرتُ أنها لمْ تتحمس للفكرة. كان ردها بارداً لا يحمل أي إشارة. حاولت أن أنتهز تلك الفرصة فأسألها عن أحوال زوجها. لكن في تلك اللحظة قالت لي وهي تضع فنجان القهوة فوق الطاولة:

– الوقت تأخر يجب أن أغادر الآن.

تتابع بعد برهة وهي تتجول ببصرها في زوايا الصالون:

– ذوقك جيد في اختيار أثاث البيت.

أرد على الفور كأنني كنت أنتظر منها هذا التعليق. تلعثمتُ قليلاً قبل أن أنطق:

– ذوقك أجمل.

تمنيتُ لو أنها سألتني عن سبب مجيئي إلى سالامانكا. كنت سأفتح قلبي وأخبرها بكل شيء. وتمنيتُ لو أني سألتها نفس السؤال. وأنصتُ لها لأزيل عن وجهها ذلك الأسى الذي لمْ تستطع مدارته. انتابني حزن حين نهضت بعجالة كأنها تعاقبني على وقت لمْ يكن من اللائق أن تمضيه معي. صافحتني وهي تحاول أن تداري سراً كبيراً كادت أن تنطق به. تمنيتُ لو

أني سألتها عن تلك الكلمات التي لمْ أسمعها والتي قالتها لي وأنا أطل من النافذة. لكنني لمْ أكن أملك القدرة الكافية لأنطق بأي كلمة سوى مراقبتها وهي تسير أمامي صوب الباب. التفت إلي ومنحتني ابتسامة هاربة. أغمضتُ عيني واستنشقتُ آخر نفس من رائحة عطرها قبل أن تغادر. تركتني خلفها، راودتني مشاعر تثنيني عن كتابة قصة هذه المرأة التي أشعلت بداخلي شيئاً ما، كنتُ أظن أنه مات منذ زمن. لمْ أتوقع أن تهزني ملامحها وكلماتها ورائحة عطرها بهذه السرعة. وتتحول في نظري من مجرد شخصية أدبية كنت بصدد كتابة حكايتها إلى امرأة من الممكن أن أعيش معها حكاية حقيقية بكل تفاصيلها الصغيرة والكبيرة. فهل يعقل أن أكون جافاً إلى هذه الدرجة التي تجعلني أشتعل أمام أول شرارة منها؟ هل فعلاً صرت مثل الحطب الجاف؟

أتذكر حبيبتي الأولى، كانت تشبه إلى حد ما إميلدا. نفس الملامح تقريباً. نفس النظرة. نفس الابتسامة. وربما لهذا السبب شعرتُ ببعض الارتياح والانجذاب إلى إميلدا. تعجبتُ من فرط تشابه ملامحهما. نفس القوام الفارع، هذا التشابه الكبير الذي لمْ أنتبه له طوال الفترة الماضية. وكأنني كنت غائباً عن الوعي وواضعاً كل تركيزي على كتابة ما يقع أمامي من أحداث فقط. جعلني بطريقة ما أعيد ترتيب أفكاري ورغباتي اتجاه إميلدا.

أحس وأنا أستسلم بمتعة لرغبة جارفة في النظر إلى فنجانها الموضوع على الطاولة، يغمرني شيء من الانتشاء يعمق حالة الاشتهاء التي رمتني فيها إميلدا ومضت مسرعة. أشعر في هذه اللحظة برغبة في معرفة كل شيء عن هذه المرأة، ليس لأنني أود الكتابة عنها ولا لأنني أعجبتُ بها، بل

لأنني أشتهي أن أعيش قصة حبي الأول مرة أخرى. وأسترجع مع إميلدا بعض الأحاسيس التي مرت بي في ذلك الزمن الذي يبدو اليوم بعيداً جداً. لمْ أكن أتصور أن الذاكرة لها هذه القدرة العجيبة على تخزين التفاصيل الصغيرة التي لمْ أكن أنتبه لها وهي تحدث أمامي. وتفرج عنها في الوقت الأقل توقعاً. فهل يمكن أن أقول إنني ما زلتُ آسيراً للحب الأول؟ أو لربما أنا آسير الذاكرة لا أكثر؟ كيف أسكت هذا الصوت الذي يصرخ بداخلي مطالباً بأن أمشي خلف إميلدا إلى آخر نقطة ممكنة؟

كيف سمحتُ لنفسي بأن أنجرف وراء هذه المشاعر المرتبكة. تحاصرني الأسئلة، وأكاد أفقد السيطرة على جسدي، تستولي عليّ رغبة جارفة في أن أتوجه إلى بيتها وأقول لها بصوت عالٍ إنني معجب بها. وأنها تذكرني بحبيبتي الأولى. إلا أني أظل صامتاً أتأمل فنجان قهوتها الذي لمْ تَشِفْ منه سوى رشفة واحدة. هذه المرة أيضاً أنجح في أن أتماسك وأتحكم في أحاسيسي.

وفيما أركز نظري على الفنجان، يرن هاتفي. لكنني لمْ أقم من مكاني وتركته يرن كما يشاء. وأنا أقول في نفسي، من المؤكد أنه مدير الجريدة التي تود نشر مقالتي التي لمْ أكتبها عن الرقابة الأدبية في البلدان العربية.

في الحقيقة لمْ تكن لدي رغبة في التواصل مع أي أحد. وكل ما كنت أريد في تلك اللحظة هو استحضار ذلك الماضي بشيء من الحنين. نعم الحنين الذي يجمل الماضي ويجعله مستساغاً وسهلاً وبسيطاً.

نورة خير الدين

السبت 15 دسمبر 2018

الحسيمة

عندما وصلت إلى الحسيمة كانت الشمس قد تجاوزت الجبال وذابت أشعتها في البحر. وأعرف أنني لنْ أتحرر من ثقل الأسئلة التي تضغط على صدري إلا إذا حصلت على أجوبة لكل هذه الأسئلة. وأفضل وسيلة للتخلص من هذا العبء هو البحث عَمَّنْ يمكنُهُ أن يساعدني في فهم حكاية ناصر بن علي. ولكن كيف؟ ماذا يمكن أن أفعل؟ أخشى أن أفشل في تحقيق ما أتيت لأجله. وقطعت مسافة طويلة لكي أفهم. أفهم القصة من أولها إلى آخرها. وغير هذا لنْ أكون راضية بما يكفي عن نفسي. أود أن أكتشف أسرار ذلك الشاب الذي رمته الأقدار في جحيم مستشفى الرازي.

ما أقسى استحالة أن لا يصدقك أحد. هكذا يشعر ناصر حين يتجرأ ويروي ما حدث له. الكل ينظر إليه على أساس أنه شخص مريض ومجنون. يتألم حين تلصق به تهمة من هذا القبيل. تهمة الجنون كما يقول. لكن هنالك شيئاً بداخلي لا أدري ما أسمّيه. يدفعني بقوة إلى تصديق تلك التفاصيل التي رواها لي ناصر.

وبسبب ناصر من المحتمل جداً أن أفقد عملي في الأيام القادمة بعد أن تصدر اللجنة التأديبية تقريرها في قضيتي. مدير مستشفى الرازي وضع شكاية طويلة لدى وزارة الصحة تتضمن عدداً كبيراً من المخالفات والأخطاء المهنية التي يدعي كذباً أني اقترفتها خلال الأشهر الماضية. لكن الحقيقة شيء آخر. الحقيقة أنني زرتُ ناصر بعد أن تمّ نقله إلى قسم الحالات الخطرة. وطلبتُ منه معلومات تخص عنوان سكنه وأسماء بعض أصدقائه المقربين. لكي أبحث عَمَّنْ يقِف خلف كواليس هذه القصة. وعلى ما يبدو أن هذا الفعل لمْ يعجب المدير وقرر عبثاً إيقافي عن العمل بصفة مؤقتة. لأفسح له ولمن معه المجال لكي يفعلوا ما يريُدون بذلك الشاب. أكيد أزعجتهم تلك الأسئلة التي طرحتها على الطبيب خالد. وربما أغضبتهم أكثر الطريقة التي كنت أتعامل بها مع ناصر. لأنني كنت أرفض تماماً أن أحقنه كل ثلاثِ ساعات بمادة المورفين.

***

دخلتُ مقهى صغيراً يقع في شارع خلف مركز الشرطة، هذا المقهى هو المكان حيث كان يجلس ناصر برفقة صديقه المقرب "إبراهيم فكري" كما كتب لي على الورقة. راعني العدد الهائل من الرجال الذين كانوا داخله. كلهم منهمكون في لعب الورق. والكثير منهم يدخنون النارجيلة. وبالرغم من هذا كله وجدتُ نفسي مرغمة على البقاء في هذا المكان الضيق الذي تكاد الرؤية فيه تكون محجوبة بسبب دخان السجائر والنارجيلة. في لحظة ما فكرت في التراجع وقد زاد ارتباكي، لكن صوتاً بداخلي كان يدفعني دفعاً. وكان من الضروري أن ألتقي إبرهيم فكري وأعرف منه بعض الأشياء التي من الممكن أن تساعدني في كشف الحقيقة.

تقدمتُ ببطء من النادل الذي كان يقف مسنداً ظهره إلى الكونتوار. توقفتُ أمامه للحظة قصيرة ونحن نحدق في بعضنا البعض قبل أن أبادر تحت ضغط الحرج وسألته عن إبرهيم فكري. كان لحظتها لا يزال يتفحص وجهي دون أن يتفوه بكلمة. رد دون أن يرفع بصره عن وجهي:

– ليس هنا.

يبقى واقفاً إلى جواري ثم يواصل:

– إبراهيم يأتي يومياً في مثل هذا الوقت يمكنك انتظاره.

طلبتُ منه فنجان قهوة ثم جلست بالقرب من طاولة يجلس إليها ثلاثة رجال منهمكون كالبقية في لعب الورق. في البداية أتفرج عليهم بلا اكتراث. لكن شيئاً فشيئاً تستهويني لعبتهم فأتابعهم بشغف وأراقب حركاتهم باهتمام. أعجبتني أيضاً تعليقاتهم وملاحظاتهم وقهقهاتهم ونكاتهم وسخريتهم من بعضهم البعض، والتهكمات التي كانت تنصب بين حين وآخر على كل من ارتكب خطأ في اللعب.

ينضم إليهم رجل آخر، وفي تلك اللحظة يقترب مني النادل وهو يشير بيده إلى ذلك الشخص الذي انضم إلى تلك الطاولة القريبة مني وهو يقول. "إبراهيم" فهمتُ منه أن ذلك الشخص هو إبراهيم فكري. ثم توجه نحوه وهمس في أذنه. قام ذلك الشاب فوراً من مكانه وتقدم نحوي، صافحني واقفاً وهو يتفحصني بعناية ثم قال:

– مرحباً أنا إبراهيم. عرفتُ أنك سألتِ عني.

– اسمي نورة. وأنا هنا من أجل ناصر صديقك، وهو الذي اَرسلني إليك.

– ناصر !

نطق الاسم بشيء من الارتباك والدهشة. في المقابل كان شيء من الارتياح قد تسلل إلي، وقد أدركتُ أنني وجدتُ أخيراً الشخص الذي من المفروض أنه يعرف كل التفاصيل التي تنقصني للكشف عن الحقيقة. ابتسم وهو يحاول إخفاء الضيق الذي اعتراه حين سمع اسم ناصر. دعوته إلى الجلوس لكنه اقترح أن نغير المكان. وافقتُ على طلبه دون أن أسأله لماذا. خرجنا من ذلك المقهى وتوجهنا إلى مقهى آخر بجانبه كان أقل ضجيجاً. وبمجرد أن جلسنا توجه إلي بسؤال سريع:

– من أنتِ؟

أستدير إلى جهته قليلاً ثم أجبته:

– أنا طبيبة ناصر...

قاطعني بنبرة مذعورة:

– هل هو مريض؟

لا أجد ما أقول فقد باغتني سؤاله. يعتريني الاضطراب من جديد حين أجد نفسي أمام نفس السؤال الذي أتيت من أجل البحث عن إجابة له. قلت له:

– هو بخير. لكن سأطرح عليك بعض الأسئلة. وانطلاقاً من الأجوبة التي ستمنحني يمكن أن أعرف حينها هل هو مريض فعلاً أم لا؟

نظر إلي بشبه استغراب، وهو يقول:

– ماذا تقصدين؟

– سأكون مُمْتنّة لك لو أنك تجيب عنْ أسئلتي أولاً.

هز رأسه موافقاً. وهو يغالب بإجهاد انفعالاته الشديدة. عبأتُ صدري بهواء جديد وشرعت في الكلام:

– أريد أن أعرف منك بعض المعلومات عن عائلة ناصر. أخبرني كل شيء تعرفه مهما بدا لك تافهاً أو غير ضروري.

تجاهل كلامي بعض الوقت، وهو يحدق بعيدا، قبل أن يعود بملامح متعبة ويقول:

– ناصر فقد أمه قبل فترة قصيرة. وسجن شقيقه الأصغر. أما والده فقد عاد إلى قريته بعد أن ماتت زوجته بسبب مرض السرطان. تغيرت حياة ناصر تماماً من وراء هذه الأحداث القاسية.

صمت للحظة ثم أردف:

– هذا كل ما حصل في الفترة الأخيرة.

لمْ يعد ينظر إلي، أصبح يتحدث مع نفسه بنبرة غير مسموعة، ترك المكان والزمان وتعلق بتلك الفواجع العالقة بذاكرته. أطلق تنهيدة وكأنه يتفاعل مع صور الخسارة التي أصابت صديقه ناصر دفقة واحدة، قبل أن يبتسم بمرارة وهو يواصل حديثه:

– ناصر كان ينوي الزواج من فتاة عراقية تعرف عليها في بلجيكا، لكنه اكتشف في آخر لحظة أنها خانته أكثر من مرة. هذا الأمر جعله يغير رأيه ويقرر العودة إلى المغرب بشكل نهائي.

لمْ يكن محتاجاً لأطرح عليه الأسئلة، كان يتكلم بتلقائية ويرد على أسئلتي من دون أن يسمعها. وكأنه كان يعرف مسبقاً ما كنت أود معرفته. امتلأ قلبي أملاً وأنا أستمع إليه. كانت الأفكار في رأسي تتدافع، تتواثب، ومع كل معلومة كان يقولها إبراهيم كنتُ أزداد يقيناً بأن ناصر في كامل قواه العقلية ولا يعاني من شيء، وأن كل الأشياء التي رواها لي كانت حقيقة. بدْءاً من تفاصيل أسرته الصغيرة إلى حدود عداوته مع ذلك الرجل الذي وضعه في مستشفى الأمراض العقلية لكي يتخلص منه بطريقة لا تثير الشبهات.

لكن في الوقت نفسه، كنت أشعر بحزن عميق لأن تلك الأحداث التي وقعت لناصر كانت حقيقية ولمْ تكن من نسج خياله، في لحظة ما تمنيتُ لو أنه كان مريضاً بالفصام ولمْ يعش هذا الواقع المرير، وهذه المصير الأسود الذي حوّل حياته من جهة إلى أخرى في لحظة واحدة. على الأقل كان يمكن أن يتعالج ويرجع إلى حياته السابقة وكأن شيئاً لمْ يحدث، لكن إلى أين سيرجع الآن وقد تحول كل شيء محيط به إلى رماد وبقايا؟

سألتُ إبراهيم عن الشخص الذي جاء بناصر إلى المستشفى ويدعي أنه من عائلته. فقال إنه لمْ يسمع باسمه من قبل، ومن المؤكد أن هذا الشخص ليس من أقارب ناصر. لأنه لمْ يخبره يوماً عن أي شخص يحمل هذا الاسم.

بعد أن حصلتُ على هذه المعلومات من إبراهيم فكري. توجهت إلى الفندق للمبيت لأن الوقت كان قد تأخر ولمْ يعد باستطاعتي الرجوع إلى أصيلة، كما أنني كنت متعبة من كثرة التفاصيل التي سمعت، ولنْ أقدر على القيادة.

حين أضع رأسي على المخدة أدرك أنني مرهقة أكثر مما كنت أتصور. ويبدو لي اليوم الذي لمْ تفصله عن النهاية سوى بضعة دقائق طويلاً، أتمدد على ظهري، وأشرع في استعادة ما سمعته من إبراهيم فكري، هذا الشاب الذي فقد شقيقه الأكبر في تلك الحادثة الشهيرة التي وقعت قبل سنتين كما أخبرني. تلك الحادثة التي تعود وقائعها إلى 28 أكتوبر بعدما صادرت السلطات المحلية داخل ميناء مدينة الحسيمة سلعة الشاب بحجة أن السمك الذي كان يبيعُهُ ممنوع صيده.

أسترجع كل شيء سمعته، وأحاول قدر المستطاع ربط الأحداث مع بعضها البعض للوصول إلى نتيجة نهائية. يمكنني أن أقول الآن بقناعة لا شك فيها أن ناصر بن علي ليس مريضاً نفسياً، هو ضحية. ضحية مجموعة من الفاسدين أصحاب المال والسلطة، وأن تواجده في مستشفى الأمراض العقلية مكيدة حقيرة يجب أن تنتهي. لكن كيف؟ ماذا يمكنني أن أفعل؟ فأنا ممنوعة من الدخول إلى المستشفى على الأقل في هذه الفترة. ولكن ماذا لو أنني طُردتُ من العمل بشكل نهائي. في هذه الحالة لنْ أتمكن من تقديم المساعدة لناصر. بل الأكثر من ذلك لنْ أتمكن من رؤيته مرة أخرى. وفي حالة أنني لمْ أُطرد من العمل، ماذا سأفعل؟ هل سأساعده في الهرب من ذلك الجحيم؟ المكان مراقب بشكل كبير ولا يمكن مطلقاً أن يغادره أي أحد دون أن يمر من أمام مكتب المدير. الأسوار عالية جداً وعليها كاميرات مراقبة. الأبواب محروسة وكأنها أبواب سجن. النوافذ التي تطل على الشارع مسيجة بقضبان الحديد الصلب. من المستحيل أن أتمكن من تهريبه حتى لو حاولتْ، فلم يسبق لأحد أن هرب من ذلك المستشفى. لنْ أستطيع مساعدته ومجرد التفكير في ذلك يعذبني ويرهقني. ولكن كيف

أستطيع أن أتحمل وجه ناصر وهو يغالب الأشياء القبيحة التي تحيط به، حقن المورفين التي سيألفها ثم سيدمنها مع مرور الوقتْ، جاكيط المجانين التي كلما صرخ حزناً كبلتْ حركته، علب الأدوية، الأبواب المغلقة، الأصفاد والحبال والأصوات العالية التي لا تتوقف، الصراخ، البكاء، الظلام، الوحدة، الكآبة، الموت. كيف أستطيع أن أتقبل وجود شخص عاقل وسط المرضى والمجانين؟ كيف أترك ناصر يواجه وحده الزمن القاسي الذي يخبئ له الكثير من الالام؟ ناصر الذي انهارت كل حيطانه مرة واحدة وفي زمن قصير. ناصر الذي ظل كل عمره يركض وراء الحياة التي سرقت منه قبل الأوان، وفجأة تحولتْ إلى جحيم لا يحتمل. وكل الذين عرفهم غادروا إلى وجهات مختلفة. تمنيتُ لو أستطيع أن أكون معه الآن وأخبره بنبرة من يزف خبراً طال انتظاره، أنت إنسان عاقل ولست مجنوناً كما تظن، أنت ضحية مكيدة وكره، لكن للآسف فقد وضعوا بيني وبينه مسافات ومستحيلات يصعب تجاوزها.

كل شيء يدور في ذماغي بعنف، وأمام عيني، في مشهدية درامية، غرقتُ في حزن أكبر مني وأكبر من أن أتخلص منه. شعرتُ أنني مكبلة وغير قادرة على الحركة، غير قادرة على إنصاف ذلك الشاب النحيل الهش المظلوم المقهور، غير قادرة على الوقوف بجانبه في هذه المآساة التي أصابته. وأصابتني معه بطريقة ما.

أشعر أنني معنية بما يحصل لناصر، ليس فقط لأنني كنت الطبيبة المسؤولة عن حالته، بل لأنني أرى فيه نفسي، لأن الحياة كانت قاسية علينا معاً، وحرمتنا معاً من كل الأشياء التي نحبها، وجردتنا دفعة واحدة من أقرب الناس إلينا. أحس أن ما حصل لناصر كان من الممكن يحصل لي لو

أنني رفعتُ الراية البيضاء في معركتي ضد كمال، كنت سأجن في آخر المطاف، وسأجد نفسي في نفس المكان الذي يوجد فيه الآن ناصر. بل وكنت سأقول نفس العبارات التي يرددها كلما تلاشى مفعول المورفين في دمه، وسأبكي بنفس الحرقة التي يبكي بها كلما نظر حوله.

أتذكر ملامح وجهه حين كان يبكي بمرارة مثل طفل صغير ضائع ويضرب رأسه على الحائط في ذلك اليوم، وأندم لأنني كذبتُ عليه حين أخبرته أننا لمْ نربط قدمه مطلقاً. الشعور بالندم يرهقني ويجعلني أشعر بأنني كنت شريكة في تلك المؤامرة دون قصد مني. ربما في ذلك الوقتْ كان متاحاً لي أن أساعده.

تظل كلماته عالقة في ذهني وهو يصرخ بصوت عالٍ: أنا لستُ مجنوناً يا دكتورة.

***

أتقلب في الفراش عدة مرات أدفن رأسي في المخدة، وأصمم ألا أتحرك ولا أفتح عيني، أحاول أن أنام وأتخلص من نبرة ناصر العالقة برأسي المثقل بالذكريات، أحاول أن أفكر في أشياء أخرى غيره، لكنني أفشل وأجد نفسي غارقة حد الوجع فيه، في وجهه في دموعه في حزنه، في نظرته المثقلة بالحيرة، في تفاصيل جسده الهش، في قصته المثقلة بالخسارات، أحاول أن أنام لكن وجه ناصر أعادني إلى أحزاني القديمة.

لماذا حدث كل هذا؟ لماذا الحياة قاسية لهذه الدرجة؟ ولماذا علينا أن نصبر؟ وهل من الضروري أن نواصل الحياة وقد سرقت منا الأقدار أجمل ما نملك؟ لماذا دوماً يرتبط مصيرنا بمن حولنا؟

الفصل الرابع

ناصر بن على

الأحد 23 دسمبر 2018

مستشفى الرازي للأمراض العقلية

طنجة

مرتْ علي عشرة أيام وأنا وسط هذه الغرفة التي تشبه الزنزانة. وشهر ويوم واحد على دخولي إلى هذا المشفى. خلال هذه المدة التي تبدو قصيرة خسرتُ نصف وزني وكل رغبتي في الحياة.

إنها تمطر الآن بغزارة في الخارج. وهذا المطر يذكرني بقصيدة بدر شاكر السياب "أنشودة المطر" التي كنت أحفظها في فترة الدارسة بالقسم الثانية إعدادي، وكنتُ أرددها كلما أمطرتْ السماء.

***

وتغرقان في ضبابٍ من أسى شفيفْ

كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساءِ،

دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريفْ،

والموت، والميلاد، والظلام، والضياءْ؛

فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاءْ

ونشوةٌ وحشيّةٌ تعانق السماءْ
كنشوة الطفل إذا خاف من القمرْ!
كأن أقواس السحاب تشرب الغيومْ
وقطرة فقطرةً تذوب في المطرْ
وكركر الأطفالُ في عرائش المكرومْ،
ودغدغت صمت العصافير على الشجرْ
أنشودةُ المطرْ
مطرْ
مطرْ
مطرْ

مطر بارد، خائر القوى والعزلة. العزلة تحزننى لكنها مكنتنى من فهم ذاتي بشكل أفضل، وجعلتنى أدرك كم كنتُ غبياً ومندفعاً طوال حياتي. ولمْ أكن أستوعب المنطق الذي تسير به الحياة. كنت أتوقع أننى أتحكم في كل تفاصيل ما يقع حولي، لكن اكتشفتُ متأخراً كثيراً أن أغلب القرارات التي اتخذتها كانت متسرعة وعشوائية وغير مقنعة.

مطر بارد وحزين والخوف. الخوف لمْ يعد يزعجنى حتى أننى لمْ أعد أشعر به. صرتُ صلباً وقاسياً مثل الحجر. الخوف حرمنى من الامساك بأجمل لحظات العمر، وجعلها تتسرب من حواسى فخسرتها إلى الأبد، وخسرتُ معها الدهشة والنشوة والحب. الخوف صنع منى إنساناً جافاً غير قادر على الانطلاق صوب المغامرة التي كنت أعتبرها شيئاً من الجنون.

الآلام التى كانت تملأ قلبى ليلة البارحة، خَفت، وصرت أحس اليوم أننى قوي بما يكفى لأنتزع دماغى من مكانه. هذا الدماغ الذي شوه أمامى الحياة وجعل الواقع يتماهى مع الخيال. الدماغ الذي عجز فجأة عن التمييز بين الحقيقة والكذب. بين الليل والنهار، بين الأبيض والأسود، بين الفرح والحزن. الدماغ الذي حول حياتي إلى كتلة ثقيلة من الضباب.

تفاقمت جروحى الخفية التى لا يراها أحد غيري، شيئاً ما داخلى يحترق، أشم رائحة قلبى وهو يتقلب في الجمر المتقد. تساءلتُ في أعماقى: هل للقلوب رائحة حين تحترق وتتفحم وتصير مجرد حفنة رماد أسود؟

لمْ أعد أصرخ كما كنت في السابق، بت أتوجع في صمت وهدوء. وكأننى فهمت أن لا جدوى من ذلك الصراخ. أتهاوى ببطء لكيلا يكون سقوطى ثقيلاً ومدوياً، أريد أن أتآكل شيئاً فشيئاً من الداخل دون أن أحدث أي ضجيج في هذه الغرفة الصماء. أبكى في أعماقى وأستخسر على نفسي هذا البكاء.

انزويتُ أتأمل المطر الذي لمْ يعد يعنينى في شيء. أحدق في تلك الكوة الصغيرة المسيجة. وأردد بصوت خافتْ: مطرْ، مطرْ، مطرْ. كل شيء يموت أمامى ويتحول إلى حفنة يأس حتى المطر. مطرْ، مطرْ، مطرْ. أتهاوى بقوة، أغمض عينى لكى أسترجع البياض الهارب وأتخيل شكل المطر. مطرْ، مطرْ، مطرْ.

أتقلص في فراشى، وأبرد وأنسى-أو أتناسى- وجه أمى لكيلا يقف أمامي ككل مرة ويحجب عني مشاهدة المطر. أعود فجأة إلى ذكريات

الطفولة حين كنت أركض حافياً تحت المطر. أتحسس بشهوة ملامح وجهى وأتساءل هل تغير؟

تضع الممرضة في فمى أقراص المهدئات، لا أسأل ولا أمانع ولا أحتج ولا أصرخ ولا أبكى، ولا أشعر بأي ألم. مستسلماً لها وأنا أردد في قرارة نفسى مطرْ، مطرْ، مطرْ. تضع في فمى قرصاً آخر أشربه ولا أقاوم. لأننى فقدتُ الأمل في الخروج من هذا السجن، وأيقنتُ أن هذا المصير هو مصيري، وأنا موافق عليه.

أشعر بشيء غريب في كل جسدي، شيء لمْ أشعر به من قبل. لا يشبه الألم ولا الخوف ولا العجز، شيء عصى عن الإدراك والفهم. شيء أختبره لأول مرة منذ فقدتُ عقلي وصار اسمي المجنون.

أستكين، وتحاصرني الرغبة في النوم من كل الجهات. لكننى اليوم لا أريد أن أنام. أشتهى أن أظل صاحياً وأتفرج على المطر وهو ينقر زجاج الكوة الصغيرة بانتظام. يُعيدُني المطر إلى بيتنا في الحسيمة في الطابق العلوي، حيث أول ما كنت أسمعه في كل صباحيات الشتاء هو صوت المطر، أقوم، أتدحرج نحو الشرفة. تأتينى رائحة الماء حين يمتزج بالتراب، أمد كفى لتتساقط عليها بعض قطرات المطر، أحاول أن أتذوقها بلساني. وأشم رائحتها، ثم أمرر يدي المبللة على وجهي.

فجأة يدخل الدكتور يونس وأنا ساهم في الكوة الصغيرة أتلصص على المطر، أتأمل وجهه من وراء الفراش، وأرى البشاعة مجسدة أمامى بكل تفاصيلها. أزيل عنى الغطاء أدرك بسرعة أنه موعد الحقنة التى تقتلنى بشكل يومي وببطء وهدوء. قال وهو ينظر إلى عيني الحائرتين:

– كيف حالك اليوم؟

كنت أتمنى أن أقول له من كل قلبى: أتدرى يا دكتور، تنتابنى شهوة لمْ أعد قادراً على مقاومتها، هى أن أغرس فى صدرك تلك الإبرة الحادة وأفرغ في قلبك مباشرة ما بداخلها. وحينها ستعرف تماماً كيف حالى، وبماذا أشعر. لكننى غير قادر على الوقوف للآسف. نظرتُ إليه وقلت بنبرة حاولتُ أن أجعلها هادئة ومسالمة:

– لا أعرف. وفي الحقيقة يا دكتور لمْ يعد يهمني أن أعرف.

تعقد الدهشة لسانه ويتلطع إلى في ذهول. فهو لمْ يتوقع منى هذا الرد البارد. وبعد تردد طويل أعاد السؤال من جديد:

– كيف حالك اليوم؟

كررتُ نفس الجواب للمرة الثانية، وكنت مستعداً لتكراره عدة مراتْ لأننى لمْ أكن أملك جواباً غيره. ولمْ تكن لى رغبة في البحث عن جواب آخر، لأننى متعب والأفكار والمشاهد تتدافع في مخيلتى تباعاً. ورغم ما تناولته من أقراص التى عادة ما تجلب النعاس، لكننى أشعر أننى غير محتاج إلى النوم. أنظر إلى الدكتور يونس وهو يحمل بين أصابع يده حقنة المورفين، وأشم رائحة عطره، وأسمع في الخارج صراخاً وشتائم وبكاء يمتزج بوقع الأمطار. ولسبب غامض لا أدرى ما هو، ضحكتُ كثيراً. ربما لأننى لمْ أعد معنياً بما يقع في هذا المكان، ولأني بت ولسبب مهم قريب من وضع حد لكل هذا العبث الذي يستفز دواخلي.

تتلعثم الكلمات في حنجرتي. أصمت، ثم أرتعد كورقة شجر يابسة أنهكها الخريف، أسمع صوت المطر الذي أيقظ في هذا الحزن العميق الذي

ليس له أي علاقة بما عشته في هذه الغرفة البيضاء القاسية، حزني قديم، أقدم من جنوني ومرضى وهواجسى وهلوساتي. أسمع نقرات المطر وهى تسقط قطرة، قطرة على الزجاج، وعلى صوت المطر الذي لمْ يتوقف بعد أن اشتد وقعه قال لى الدكتور يونس وهو يقترب منى أكثر بخطوات ثقيلة وخائفة:

– إلى متى ستظل مضرباً عن الطعام يا ناصر؟ هذا الأمر ليس في صالحك بتاتاً. لقد خسرت ثلاثين كيلو من وزنك. هل تريد أن تموت جوعاً؟ أعرف أنك مرهق. وأنك مللْت من تلك الأشياء الغامضة التى تتحرك في ذاكرتك وتنخر دماغك من الداخل. وأنك لمْ تعد تفهم العالم ولا تفهم نفسك أيضاً. ولكن ليس لديك خيار ثانٍ، إما أن تلتزم بتناول الأدوية وتضع حداً لهذا الإضراب الذي يأكل من جسدك كل يوم أكثر. على الأقل إذا كنت تريد أن تموت، فمُتْ وأنت واقف.

أنفض رأسى وأحاول أن أطرد تلك الفكرة من رأسى، أقبض على فمى بيدي وبقوة حتى أتأكد أننى لن أقول أي شيء. لكننى في لحظة ضعف قلت بنبرة منكسرة:

– أشعر باليأس، وأشعر بالرغبة في الموت السريع. لتفادي العذاب. أنا مرهق وهش ومريض ومنهار. اكتفيتُ من الحياة. تفاديتُ طوال حياتي منعطفات صعبة وقاسية لكن هذا المنعطف يبدو مستحيلاً يا دكتور. لمْ يعد لي متسع من الوقت للمحاولة مرة أخرى. وكلما حاولت وجدتُ نفسى في عمق الخسارة أجدف بيد واحدة منهكة. كل هذا وتطلب منى أن أقاوم. ولماذا أقاوم؟

صمت قليلاً وصوبتُ نحوه نظرة مكسورة مثل نبرة صوتي ثم واصلت:

– من كثرة محاولة إقناعك بأن عقلي سليم، اقتنعتُ بأنني مجنون. وصرتُ مستسلماً في الخانة التي وضعتني فيها أنت ومن معك. لا أحد منكم حاول فهم ما جرى معي. في النهاية وجدتُ نفسي وحيداً في مكان لا يصلح لشيء سوى للموت الصامت، وها أنذا صامت وهادئ ومستمتع بقطرات المطر التي صارت ثقيلة وأردد في سري مطرْ، مطرْ، مطرْ.

ثم تمالكتُ نفسي، عندما شعرتُ بأن دمعة ساخنة تمس رموشي، فصمتُ. لكنني في قرارة نفسي كنت أصرخ بكل قواي، وأركض خارج مدارات الأرض في عالم داخلي وحدي أراه. باغتني الدكتور يونس قائلاً وهو ينظر إلى وجهي ملياً وأنا أحاول أن أقاوم الرغبة في الصراخ والرغبة في نوم:

– اسمعني جيداً، يا ناصر، أنزع من رأسك فكرة الموت، ولا أحد هنا يُريدُك أنْ تموت. نعرف جيداً أنك متعب، ولكن نحن هنا لمساعدك في تخطي المرض والعودة إلى حياتك الطبيعية، لكن يزعجني حين أراك ترفض الأكل وتصرخ وتوزع الشتائم على الممرضات. صدقني هذا لنْ يوصلك إلى مسلك، ستظل هكذا حتى تخرج روحك في أية لحظة، نحن نريد إنقاذك من موت مؤكد، أما فيما يخص مرضك فهذا حقيقي وليس افتراء، أنت مريض بالفصام.

ضحكتُ كثيراً وبنبرة عالية ثم قلت:

– لقد قلت كل ما لدي، وتعبتُ من تكرار نفس الكلام كل مرة. أرجوك ابتعد قليلاً عن ذلك المكان لأنك تحجب عنى الرؤية، لأننى أريد أن أشاهد قطرات المطر وهي ترتطم بزجاج الكوة.

وقبل أن يغادر غرفتي نظر إلي متفاجئاً، ثم قال غاضباً:

– أوقف هذا الإضراب. فأنت في مستشفى وليس في معتقل.

قال هذه العبارة ثم مشى بخطوات ثقيلة نحو الباب. في تلك اللحظة قررتُ أن أصمت لأن لا شيء يوازي ما أشعر به إلا الصمت، الصمت وحده قادر على وصف ما أحس به، أنظر إلى الزمن الذي يمر أمامى، وقد رضيتُ بشكل كامل بحقيقة قدري ومرضى وجنوني. لا أحد في هذا المكان الموحش يفهم ما أشعر به.

يستولى علىّ إحساس عميق بالألم يخالطه شيء من الشعور بالندم والذنب. لكن هذه المرة أسيطر على مشاعري، أقف قبالة الكوة الصغيرة أنظر فيها مباشرة. وأحاول أن أستعيد علاقتى بالحياة وبالمكان وبالزمان. أرجع بالذاكرة خطوة للوراء إلى تلك اللحظة التى قررتُ فيها العودة إلى المغرب. وأطرح على نفسى سؤالاً مهماً من وجهة نظري. هل كان رجوعى خطأً، سأدفع ثمنه حياتي؟ هل كنتُ أنانياً حينما قررتُ العودة إلى هنا؟ هل يعاقبنى الله على ذلك الخذلان الذي تركته مرسوماً في قلب عالية؟ هل يعاقبنى الله على تلك الأشياء القبيحة التى قمتُ بها طوال فترة عملى في تهريب الحشيش؟

أحتاج إلى أجوبة بقدر هذا الجنون الذى ينهش عقلى، لأنى أريد على الأقل أن أمضي حيث أرغب وأنا مرتاح من وجع الأسئلة. لوهلة خطر لي

أن هذه الأسئلة التى تنزل على جسدي مثل أكوام من الحجر مخلوقات بشعة ومتعبة ويجب أخذها على محمل الجدّ، تغرس أنيابها عميقاً في صدري، ولكن اكتشفتُ هذا الأمر بعد فوات الأوان، وقد أدمنت كل ما مررت به.

الهزائم لا تأتي دون مقدمات، دوماً ما تسبقها الأسئلة المستحيلة، والأخطاء التى لمْ ننتبه لها في اللحظة المناسبة. ولا هزيمة دون نهاية حادة وقاسية وموجعة، هزيمتى اليوم سبقتها مجموعة من الأخطاء التى اقترفتها سهواً. وأول هذه الأخطاء هى الطريقة التى كنت أتعامل بها مع الحياة وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة. في السابق كنت أظن أننى دوماً على حق وأننى أعرف كل شيء. وأننى الوحيد القادر على توجيه مصيري كما أشتهى. لمْ أكن أسمح لأي شخص أن يتدخل في شؤوني الخاصة. أو أن يقرر معى في موضوع يخصنى. كنتُ أتوقع أن ذلك الأمر يجعلنى أكثر قوة وأكثر دقة في الوصول إلى ما أحلم به دون التعثر بكلام الآخرين. وآخر هذه الأخطاء هو رجوعى إلى هذا الوطن. في ذلك المساء الذي وضعتُ فوق الطاولة الزجاجية فنجان القهوة وتراجعتُ ثلاث خطوات إلى الوراء ممسكاً بين أصابع يدي مكعب سكر صغير. وأنا أقول في قرارة نفسى: سأرمى هذا المكعب باتجاه فنجان القهوة. لو فشلتُ في وضع المكعب داخل الفنجان سوف أعود إلى المغرب. ولو نجحتُ في الأمر سأبقى هنا في بروكسيل. فهل كان يستحق هذا القرار المصيري كل هذا العبث الطفولي؟

انتبهتُ للتو إلى حجم الكارثة التى رميتُ نفسى في عمقها دون أن أدرك. وفهمتُ أن للحياة منطقها الخاص الذي يتجاوز رمية النرد. الحياة

ليست حسابات دقيقة ومفصلة وليست كذلك اندفاعاً ومغامرة وعبثية. الحياة تقف بين الإثنين. ومن يفشل في معرفة هذه المعادلة البسيطة يجد نفسه على أبواب الهزيمة التى تبدو في البداية مفاجئة وغير متوقعة لكنها في الحقيقة ما هي إلا نتيجة للأخطاء العفوية.

كيف أستطيع الآن أن أصف هذه البراكين وهى تقترب منى خطوة، خطوة؟ وهى قادمة لتسحقنى، وتحولنى في غفلة من الجميع إلى رماد؟ ما الذي يمكن قوله عن الحياة، التى حين قررتُ أن أعيشها كما أشتهى غابت فجأة، وتركت خلفها جسدي يغمض إغماضته الأخيرة؟ كيف أصف الموت حين ترك الأخرين واختارني أنا؟ وكيف أصف نفسى حين اخترتُ الموت وتركتُ الحياة؟ في النهاية يمكننى أن أعترف أننى أشبه كثيراً بل أنتمى إلى تلك الكائنات الضعيفة الهشة والمهزومة التى تحتاج أكثر ما تحتاجه هو حضن وقبلة وعناق طويل لا ينتهي.

لمْ أنتبه مطلقاً قبل هذه اللحظة إلى أن الحياة لا يجب أن تعاش فقط بل أن تُلتهم. أشفق الآن على نفسى فقد كنت على بعد خطوة واحدة من الحياة، لكن مع ذلك لمْ أصل ولمْ ألتهمها كما كان ينبغى. فشلتُ فشلاً كبيراً في أن أتنفس الحياة وأجعلها تملأ صدري كالهواء الرطب. ما أسوأ أن تكون قريباً إلى هذا الحد دون أن تصل.

حسناً، كى أكون صريحاً مع ذاتي أولاً. لا أتذكر ماذا كنت أريد في الفترة السابقة، كنت مشوشاً تائهاً لا أستقر على حال. يعترينى تردد هائل في كل خطوة أنوي فعلها. صحيح أننى لمْ أكن قوياً بما يكفى للوقوف في وجه الأشخاص الذين سببوا لي هذا الألم، ومع ذلك فقد نلتُ شرف دخول المعركة.

لكن هل هناك فعلاً ما هو أهم من الحب؟ أحببتُ عالية بشكل لمْ أكن مستعداً له في تلك المرحلة، تمنيتُ لو كنتُ قادراً على التجاوب معها ومع طريقتها في الحب، تمنيتُ لو أننى بقيتُ معها على حال واحدة، بحيث لا أرهق روحها بمزاجيتى وأنانيتى ونظرتي المتضخمة للذات. لكننى لا أملك مزاجى ولا أملك تقلباته الكثيرة. في الحقيقة توجد أشياء أهم من الحب.

طوال طفولتى وأن أشعر بأننى غير مرغوب من طرف أبي الذي كان يضربنى بقسوة ثم يعتذر بعد ذلك ويمطرني بالقبل ويعدني أنه لنْ يضربنى مرة أخرى وأنها أخر مرة. لكن كل مرة كانت آخر مرة. كلفتنى إحدى نوبات غضبه كسراً في ذراعى، كان الألم شديداً فأخذني إلى المستشفى في الليل وأخبرهم أننى زللتُ وسقطتُ من على الدرج، ظللتُ صامتاً ودموعى تنهمر، شعرتُ بأن الطبيب المناوب لا يصدق كلام أبي لكنه اكتفى بنظرات شكاكة، فكرتُ بأن أصرخ وأخبره أنه ضربنى، لكننى لمْ أكن أملك القدرة، خفتُ أن يضربنى أكثر حين نعود إلى البيت. أو يطردني منه نهائياً كما يقول دائماً. شعرتُ أننى مجبر على الصمت وأنا أنزف ألماً داخلياً.

كل ما أعرفه الآن أننى لمْ أعد أرغب فعلاً بمزيد من العبث. شعرتُ لأول مرة بحاجة إلى الرحيل والابتعاد عن هذه الغرفة الصماء الباردة، والهرب بعيداً عن هذه الحياة بأوجهها الكثيرة، وقد أصبحتُ مرهقاً من كثرة الأسئلة التى تهاجم عقلى طوال الليل والنهار. أريد أن أشفى من مرضي لكن بطريقة لا وجود فيها للحقن والأدوية والعقاقير، أريد أن

أموت لأتخلص من هذا الألمْ. يقال إن بعد الموت لا وجود لأي شيء. أشتهي العدم.

إنها تمطر الآن بغزارة في الخارج. حملتُ الكرسى الذى كان منسياً في زاوية الغرفة ثم وضعته تحت الكوة مباشرة. توجهتُ إلى جاكيط المجانين التى تركت معى في نفس الغرفة وكأن الدكتور يونس فهم أننى سأحتاجُها ذات لحظة. نزعتُ منه ذلك الحزام الذي يستعمل في ربط المريض. نزعته بعد مشقة كبيرة. لأننى لمْ أكن أملك الجهد الكافي لتمزيقه. صعدت فوق الكرسى وحاولتُ أن أمد يدي إلى الكوة الصغيرة لأفتح الزجاج لكننى لمْ أستطع الوصول، كانت مرتفعة قليلاً. التفتُ إلى السرير خطرت ببالى فكرة. طويتُ الغطاء ووضعته فوق الكرسى ثم وضعتُ فوقه المخدة، وبعد ذلك صعدت وفتحت زجاج الكوة. أدخلت الحزام بين القضبان الحديدية الخارجية ثم ربطته بقوة كى لا ينفلتْ. أزحت المخدة والغطاء ثم أدخلتُ عنقى في الحزام المربوط. ولمْ يتبقَّ أمامى سوى أن أدفع الكرسى بقدمى وينتهى الأمر. أحس بقطرات المطر وهى تتسلل من الكوة المفتوحة وتسقط على رأسي باردة. إنها تمطر يا الله.

لا شيء يفصلنى عن النهاية سوى حركة بسيطة. آه لنْ أشعر بعد هذه اللحظة بالألم. عشتُ ما يكفى من الهزائم والخسائر وقد حان الوقت لأتخلص من هذا الثقل الذي ينهك صدري. الآن أشعر بالسعادة. ليس لأننى سأرحل عن هذا العالم الحقير بل لأننى أنظر إلى الحائط الأبيض وأسمع صوت المطر وأحس به وهو يتسرب إلىّ ببطء، إلى أعماق رأسى كما كنت أفعل في الصغر. سأرحل عن الذين أحببتهم وعن الذين كرهتهم، سأترك الحياة التي عشتها والتي تمنيتُ خوضها ولمْ أستطع. صار الموت

قدراً لا فكاك منه. الموت الذي فقد هيبته حين قررت في هذه اللحظة مواجهته.

أعجبنى أننى لمْ أشعر للحظة بالخوف، شعرتُ أننى أمام نهاية تليق بى، سأستسلم أمام هذا المصير وسأسلم روحى المنهكة للموت. جسدي لمْ يعد لِى، ترتخى كل العضلات وتضيع الرغبة في الحياة دفعة واحدة، وتتحول كل آلامى إلى أنينٍ خافت ممزوج بصوت المطر. شىء يشبه الضباب يسحب جسدي الذي أصبح كتلة صعبة التحمل بسرعة نحو القاع. لا أدري لماذا أشعر أننى سعيد في أعماقى، ربما لأن شيئاً ما عميقاً يخترق كل الهواجس والمخاوف يقودني نحو الخلاص.

أريد أن أنام، أن أنسى كل ما حدث لِى. أشتهى في هذه اللحظة أن أنسى دفعة واحدة وجه أمى وأبي وأخى ووجه عالية. الدفعة الواحدة ثقيلة وصعبة لكنها لا تُقسط الألم. لا أدري ما الذي جعلنى أفكر في الانتحار الذي كلما تفاديته وجدتُ نفسى مجبراً على القيام به، لكى أشفى من حرائقى الداخلية التى لا يمكن إخمادها إلا بالموت. على هذا البؤس أن يتوقف بشكل نهائى. لست الأول ولا الأخير الذي سيسلك هذا المعبر. أغمضت عينى لكيلا أرى انعكاس وجوه من أحببتهم على الحائط. رفعتُ قدمى اليمنى من على الكرسى وتركتُ اليسرى مكانها. ورحتُ أردد بصوت مرتفع جداً:

أتعلمين أيَّ حُزنٍ يبعث المطرْ؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمرْ؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياعْ؟

بلا انتهاء ـ كالدَّم المراق، كالجياعْ،
كالحب، كالأطفال، كالموتى ـ هو المطرْ!
ومقلتاكِ بي تطيفان مع المطرْ
وعبر أمواج الخليج تمسح البروقْ
سواحلَ العراق بالنجوم والمحارْ،
كأنها تهمّ بالشروقْ
فيسحب الليل عليها من دمٍ دثارْ.

عالية الحكيم

الأحد 23 دسمبر 2018

بروكسيل

لمْ يكن لدي ما أقول، أو بالأحرى لمْ تكن لي الرغبة في قول أي شيء. حين أخبرني صديق ناصر في رسالة صوتية عبر المسانجر، أنه عرف بعض المعلومات تقول إن ناصر يوجد بمستشفى للأمراض العقلية. للحظة شعرتُ أنني عاجزة عن فعل شيء سوى سماع ذلك التسجيل أكثر من مرة. لمْ تتفاجأ دواخلي كثيراً وكأن شيئاً ما فيها كان ينتظر هذه اللحظة. كنتُ أتوقع أن يفقد ناصر في يوم من الأيام عقله. خصوصاً بعد الفواجع التي تساقطتْ على رأسه تباعاً.

هذا الخبر المفاجئ تركني مفزوعة ومعلقة في الفراغ. كنتُ أنوي أن أفعل شيئاً لكن ما هو؟ بقيتُ كثيراً أنظر إلى صورة ناصر المعلقة على الجدار. ثم قمتُ من مكاني ونزعتها من مكانها ضممتها إلى صدري وأنا في كامل انهياري، لكنها أعطتني الاحساس بأن ناصر سيعود إليّ لأنني الوحيدة التي بقيتْ له في هذه الحياة بعدما فقد كل شيء. حتماً سيرتمي في حضني حين يراني. قلتُ في نفسي: ما الذي قاد هذا الشاب الحالم إلى الجنون؟ أي خسارة هذه التي حولتْ ناصر من شخص مهووس بالتخطيط والتركيز ولا يُقدم على خطوة إلا بعد أن يفهمها جيداً إلى

شخص مجنون؟ أعتقد أن الكثير من التفاصيل تنقصنى لأفهم الموضوع كما يجب.

أخطر شيء أن تشعر أنك وحيد في مدار يضيق من حولك ويشد على عنقك بعنف. ويزيد تصلباً يوماً بعد يوم. ناصر صار وحيداً ولمْ يعد له أي أحد في هذه الدنيا. أفهم تماماً شعوره لأننى مررتُ من نفس التجربة تقريباً فقدتُ أبي ثم أمى وقبل ذلك خسرتُ وطنى. أنا وناصر تجمعنا الخسارة والفقد والاغتراب. وأشياء أخرى يصعب وصفها وفهمها.

لا أستطيع أن أمنع نفسى من الخوف. أخاف أن يكون ناصر بحاجة إليّ وأنا هنا لا أعرف ما حدث له بالضبط. اغتسلتُ بسرعة، ارتديتُ ثيابي وغادرتُ الشقة إلى وجهة غير معلومة، هكذا أنا حين أشعر بالخوف أو الحزن أخرج إلى الشوارع وأحاول أن أتغلب على تلك الأحاسيس بمراقبة الناس وتفحص الوجوه والملامح.

شوارع المدينة خالية. والأرصفة تبدو أكثر اتساعاً. والطقس ليس بارداً خلافاً لما كنت أنتظر. أسير على غير هدى. أوسع الخطى في البداية، كأننى أريد أن أهرب من خوفي ومن ذلك الخبر الذي أثقل خاطري. كأني أريد أن أبتعد بسرعة وأقصى ما يمكن عن المكان الذي جمعنى بناصر وعشنا فيه أجمل اللحظات. وبعد أن أعبر مسافة طويلة أتمهل في السير.

تبدأ الحركة في الشوارع، وشيئاً فشيئاً تتكاثر الباصات، ويتزايد عدد السيارات. عُمال النظافة بمكنساتهم الضخمة يدفعون القاذورات المنتشرة على الأرصفة إلى مجاري المياه المحاذية لها. وهم يتكلمون ويضحكون بأصوات عالية. معظمهم سود. وسط ذلك الصخب الصباحي بدأتُ

أتخلص من وطأة ما سمعتْ. أفرح لذلك وأقرر أن أواصل السير لكى أستعيد هدوئى قبل أن أعود إلى الشقة وأفكر في ما يمكن أن أقوم به من أجل ناصر. أتطلع طويلاً إلى الأبواب الخشبية الموصدة. أتفرج على سيارات التاكسى وهى تعبر الشوارع بسرعة هائلة، وأراقب العجائز الذين بدأوا يخرجون كلابهم للتبول والتبرز على الأرصفة، بإمكاني أن أشم رائحة القهوة والخبز الخارج لتوه من الفرن في المخابز التى فتحت أبوابها مبكراً.

أشعر في قرارة نفسى أن ناصر قد استيقظ الآن في ذلك المكان البعيد. أتخيله وهو ينظر حوله. فهل سيبحث عنى كما كان يفعل كل يوم حين يستيقظ ولا يجدني بجانبه. سيبحث عنى في المطبخ ثم في الحمام ثم في المرحاض. سينادينى مرتين أو ثلاثاً ليتأكد من أننى لستُ مختبئة في مكان ما من الشقة.

حركة المارة تشتد على الأرصفة. كأن أغلب سكان العمارات المجاورة خرجوا من بيوتهم في الوقت نفسه، يتعالى هدير وزمير الشاحنات والسيارات والباصات. بين الفينة والأخرى ينضاف إلى ذلك صراخ وشتائم السائقين الذين نفد صبرهم.

لا أدري ما الذي يقودني نحو ناصر؟ رغم أنه سرق منى الحياة وتركنى محروقة القلب والجسد، ومضى حيث يرغب. أحاول أن أفهم ما الذي جعلنى أشعر بهذا الحزن الكبير على ما وقع له. أحاول أن أستوعب أيضاً فكرة أن ناصر يوجد الآن في مستشفى للأمراض العقلية. في أعماقى لا أكاد أصدق الأمر.

أسمع همسه الخفى الآن، وهو يقول بنبرة مهزومة: عالية أنا محتاج لك ونادم على كل وجع سببته لك. عالية لا تتركينى أرجوك. أنا بحاجة ماسة إلى مساعدتك. لقد فقدتُ عقلى ولا سبيل لاسترجاعه سوى أن أكون معك وبين أحضانك.

هذه العبارات التى ظننتُ سهواً أننى سمعتها منه جعلتنى أشعر بفرح كبير، أحببتُ أن أشاهد ناصر أمامى وهو محطم ومهزوم وضعيف وغير قادر على فعل أي شيء. القدر منحنى هذه الفرصة وجعلنى على الأقل أكون شاهدة على خسارة ذلك الرجل الذي ظننتُ أنه سندي وحائطى، وظننته سيكون بجانبى في كل الأوقات. لا أدري إذا كنت قد أحببته؟ كلما تذكرتُ ناصر، أدركتُ كم كنتُ غبية.

في انتظار أن تخف حركة السير ويتناقص عدد المارة. وهرباً من الضجيج وخصوصاً من رائحة دُخان المحروقات والغازات التى تطلقها الشاحنات، أدلف بسرعة إلى محل تجاري يعترضنى، أكتشف بعد خطوات قليلة أجد نفسى في قلب الجناح الذي يحتوي على العطورات وعلى الملابس الداخلية. عشرات السراويل القصيرة ومشدات النهود بألوان يطغى عليها الأحمر والوردي الفاتح مصنوعة من أقمشة شفافة ناعمة مخرمة بالدنتلا، ومصممة لا لتحجب وتستر وإنما لتكشف وتثير. مرايا ضخمة في كل مكان.

أقوم بجولة طويلة في الجناح. أفعل ذلك بتمهل شديد. أتحسس الملابس الناعمة. أشم العطور المعروضة للتجريب. أشعر أن كل الأحاسيس التي كانت تغمرني منذ فتحتُ عيني صباحاً على تلك الرسالة

الصوتية تلاشت ليحل محلها شعور يشبه الانتشاء. وأنا أقول بصوت مسموع: ماذا يساوي جنون ناصر أمام حرقتي وانكساري؟

لو خيرت بين أن أقدم المساعدة إلى ناصر أو أجلس وأتفرج عليه وهو يتلاشى شيئاً فشيئاً. سأختار الجلوس على أقرب مقعد أصادفه وأنا في طريقي إليه. سيقولون عني أنني امرأة قاسية، بل وحقيرة. لكن غير مهم. ويشتمونني لأنني لمْ أكن عند حسن ظنهم بي. ولكنهم لا يستطيعون منعي من أن يكون لي رأي في هذه الحكاية.

وإلا ما جدوى وجودي في حياة ناصر إذا لمْ أقل وجهة نظري بكل حرية. لا أدري أنا هكذا كلما اهتز فيَّ شيء صرتُ قاسية كالوطن.

كمال الشرقاوي

الأحد 23 دسمبر 2018

سالامانكا

شعرتُ نحو إميلدا بشيء غريب، مزيج من الرأفة والخوف، حين وجدتها تقف عند باب شقتى والدموع تملأ عينيها. قالتْ بنبرة باكية والرعشة تهز كامل جسدها:

– أريد أن أتحدث إليك قليلاً.

أنظر إليها وهى جالسة بجانبى على الكنبة. في تلك اللحظة تضمنى إلى صدرها طويلاً. شممتُ عطرها. غمغمت بكلمات لا تكاد تسمع:

– لقد ضربني أنخيل، ولا أعرف ماذا أفعل. أنا تائهة وخائفة.

ضحكتُ في أعماقى وكدتُ أقول لها: هذا ما كنتُ أريد وأنتظر منذ زمن. الآن يمكننى أن أقول إن القصة ستصبح أكثر تشويقاً وإثارة. حاولت أن أتظاهر بالحزن والحسرة على ما وقع لها وعلى المنحى الذي تسلكه علاقتهما. ضممتها إلى صدري بقوة أكبر وأنا أهمس في أذنها:

– أنتِ هنا في مأمنٍ.

همست في أذني كأنها خائفة من أن يسمعها شخص ما:

– أريد كأس ماء من فضلك.

توجهتُ إلى المطبخ بخطوات سريعة. وأنا أقول في قرارة نفسى: هل تنوى أن تستلف منى مبلغاً من المال؟ أم فقط تريد أن تفرغ قلبها دفعة واحدة ثم تعود إلى بيتها. يمكننى أن أقول بكل صراحة أننى شعرت ببعض الارتباك وأنا أقطع المسافة بين المطبخ والصالون. وصار كل همى حينها أن أتخلص منها قبل أن تطلب مني شيئاً لنْ أقدر على منحها إياه.

وضعتُ الكأس على الطاولة وأنا أقول:

– أنتِ في مكان آمن. لا خوف عليك الآن.

التفتت نحوي، شعرتُ بألم عميق في قلبها وعينيها، وأنا أرى الدمع وهو يرسم خطين مستقيمين على خديها. قالت بعد أن أخذت رشفة كبيرة من الماء:

– هذه هى المرة الثانية التى يضربنى فيها خلال هذا الأسبوع. لقد صار عنيفاً أكثر من اللازم. لقد تحول فجأة إلى شخص عصبى ولا يقدر على التحكم في غضبه. لمْ أكن أتخيل مطلقاً أن تنقلب حياتنا بهذه الطريقة الموجعة. أنخيل لمْ يكن هكذا. لقد تغير كثيراً منذ وصلنا إلى هنا. الحياة في هذه المدينة تتطلب الكثير من الجهد والعمل. أنخيل لمْ يكن معتاداً على هذا النمط السريع من العيش. ولمْ يكن يتوقع أن يجد الأمور بهذه الصعوبة في اللحظة التى قررنا فيها الهجرة وترك البلاد التى ولدنا وكبرنا فيها. لكن للحياة دوماً مفاجآت غير متوقعة. لقد اتفقنا على الطلاق لكنه يريد أن يعود بصحبة خافير إلى الأرجنتين. وأنا أرفض أن يرجع ابنى الوحيد إلى تلك الأرض. يكفي ما عانيته فيها. لنْ أسمح له بأن يسرق مني خافير.

صمتت للحظات طويلة وهى تحاول أن تسيطر على ملامحها وتمسح دموعها بمنديل ورقى سحبته من العلبة التى توجد أمامها على الطاولة. مجرد رؤيتها أمامى أعادت لى كل المشاعر السيئة التى حاولت طوال الفترة الماضية تجاوزها وعدم الالتفات إليها. كنتُ حذراً جداً من القيام بأي تصرف. أردتُ أن أكون في تلك اللحظة كائناً غير مرئى، شيئاً فاتراً، لا يترك أثراً على الإطلاق.

نظرتُ إليها دون أن أنطق بكلمة ولا أعرف لماذا. كان يناسبنى تماماً أن أستمع إليها فقط. لكن ثمة فضولاً جعلنى أطرح عليها ذلك السؤال الذي خطر ببالي لحظتها:

– لماذا يريد زوجك أن يأخذ معه خافير؟

ردت بنبرة حازمة:

– لأنه يقول إننى أم غير صالحة بتاتاً. وبقاء خافير معى سيشكل خطراً على تربيته. كما يقول أيضاً إنه يرفض فكرة أن يكبر ابنه تحت ظل رجل آخر كما حصل له مع زوج أمه الذي كان يعنفه بشكل كبير.

قلت بصوت خافتْ:

– وأنتِ لماذا لا تريدين أن يكون خافير معه؟

ضحكتْ بصوت عالٍ، وعادت البسمة إلى ملامح وجهها الغارق في الحزن والدموع:

– أنخيل شخص غير مسؤول، ويحب الشرب كثيراً. لا أتوقع مطلقاً أن يتعامل مع الصبى بشكل جيد، هذا أولاً. ثانياً لا أستطيع أن أتخيل نفسي بعيدة عن صغيري. مجرد التفكير في الأمر يجعلني في حالة حزن

وحالة مرض لنْ أقدر على تحمله. خافير بالنسبة لي هو السبب الوحيد الذي يجعلني مستعدة لمواجهة الحياة بكل قسوتها. أنا هنا من أجل خافير. أريد أن أحقق له مستقبلاً يليق به.

نظرتْ إليّ كأنها كانت تنتظر مني أن أوافقها الرأي أو على الأقل أن أعطي وجهة نظري في الموضوع. لكنني فضلتُ الصمت وعدم اقحام نفسي في هذه المشاكل الأسرية، ولأن الموضوع يخصها هي أولاً وبشكل أكبر. حاولتُ أن أحتفظ بما كنت أفكر فيه في قرارة نفسي. ثم قلتْ بلا تردد وبصفاءٍ كبير:

– أتمنى أن تمر هذه المشاكل دون الانفصال لأن هذا الأمر ليس في صالح الصبي مطلقاً. ولا في صالحكِ أنتِ أيضاً. الحياة صعبة وقاسية كما قلتِ. ونحتاج للعيش فيها إلى سند نتكئ عليه لحظة الضعف.

ضحكتْ بالرغم منها وهي تقول:

– لنْ تمر. لقد وصلنا إلى الباب المسدود. وصار من الصعب أن ترجع علاقتنا كما كانت من قبل. لقد جرحنا بعضنا بطريقة يستحيل معها الشفاء أو النسيان. أحياناً نضطر إلى قطع علاقتنا بمن نحب لنحافظ على أنفسنا. أنا وأنخيل لا يمكن أن نستمر مع بعضنا البعض. وحتى لو حاولنا ذلك من أجل خافير لا أعتقد أننا سننجح. لأننا لمْ نعد نشبه تلك النسخ القديمة فينا التي عشقت بعضها بجنون. الحب تقتله صعوبات الحياة وتحرقه العوائق التي تعترض طريق الإنسان خلال رحلة حياته. يمكنني أن أقول ببساطة إن الحب الذي كان يجمعني بأنخيل، مات وانتهى وصار من الماضي.

ظللتُ صامتاً أراقبها وهى تحكى كلاماً نابعاً من أعماق قلبها الذي انهكته قسوة الحياة. أحنتْ رأسها قليلاً لكيلا ألمح الدموع المنهمرة التى ترفض أن تتوقف، ولمْ تضف شيئاً. أردتُ أن أقول شيئاً لكن الكلمات خانتنى، وخاننى جسدي الذي بدأ يرتعش من شدة الخوف والحزن. شعرتُ في تلك اللحظة أننى أمام قصة يصعب علىّ كتابتها. قصة أكبر من أن أختصرها في أربعة فصول. قصة وجع وحب يموت قطرة قطرة. أدركتُ حينها مدى صعوبة أن نكتب عن أشياء تقع أمامنا. ونراها بكل جوارحنا، ونعيشها لحظة بلحظة.

قلت وأنا أبحث عن كلماتي بحزن:

– في الحقيقة، لا أعرف ما أقول. لكن سأكرر ما قلت قبل قليل. أتمنى أن لا يحدث كل هذا. الفراق شيء محزن للغاية. أقول لك هذا الكلام لأنني مررتُ من نفس التجربة تقريباً. ولا أريد أن تعيشي ما عشته أنا.

لمْ ترد على كلامى وبقيت على حالها منكمشة ومنطفئة، لمْ أمنع نفسى من الاقتراب منها. ضممتها إلى صدري كأني منذ زمن بعيد لمْ أضم امرأة. كنتُ أفعل نفس الأمر مع جدتي، قبل انسحابها من هذه الدنيا. عانقتها كما في المرة الأولى، وربما بشكل أكثر حرارة. أحستْ بذلك، قرأت إحساسها حين طوقتنى بذراعيها وسحبتنى نحوها بقوة. ابتسمت وهى تقول بكلمات منتظمة:

– منذ زمن طويل لمْ أشعر بهذا الاحساس الجميل.

جمد لسانى، ولمْ أجد أية رغبة في الكلام. بل انتابتنى رغبة كبيرة في النوم بأحضانها، لأنني بدوري لمْ أحس هكذا إحساس منذ زمن بعيد. حتى

عندما مررت أنفها ببطء متعمد بمحاذاة فمى لمْ أشعر بالحرج. بل على العكس تماماً. حاولتُ أن ألتصق بها أكثر فأكثر. ولمْ أعد أبالى بردة فعلها. رائحة عطرها تقتحم مسامى كلها، وتتسرب إلى أعمق نقطة بداخلى. كانت هادئة في حضنى كقطة مبللة. ازددتُ اقتراباً منها، وركّزتُ نظري على صدرها الذي يكاد يكون عارياً. رفعتْ رأسها ونظرتْ إلى بشكل يدل أنها لاحظت أننى أسترق النظر إلى تفاصيل جسدها. لمْ أشأ أن أتحرك من مكاني لكيلا ينفضح أمري، تظاهرتُ بعدم الانتباه إليها وهى تتفحص وجهى الذي لمْ يعد يعرف كيف يخفى تلك الشهوة التى ظهرت عليه. ولمْ أشعر بالاطمئنان إلا عندما خفضتْ رأسها قليلاً. لمْ يحدث أن اشتهيتُ امرأة بمثل هذه القوة التي أشتهي بها الآن إميلدا.

ألتصق بها أكثر فتفهم أننى أريد أن آتيها. تستدير نحوي بكامل جسدها. تتفرس في وجهى للحظة كأنها تريد أن تؤكد لى أنها موافقة، ثم تقبلنى قبلة طويلة ساخنة، جعلتنى أتصبب عرقاً ساخناً. كنت واثقاً من أنها أدركت بحدسها الأنثوي أننى أشتهيها منذ أول مرة رأيتها فيها. ربما لاحظت أن رغبتى فيها صادقة وكاملة وجامحة. وأن حركاتي وأفعالى كلها كانت تقول إننى معجب بها. لكن الغريب أن الأمور حصلت بسرعة لا يمكن للعقل أن يستوعبها. عناق دافئ ثم قبلة ساخنة.

تشتد وطأة الصمت بعد تلك القبلة، أشعر أننى لمْ أعد قادراً على احتماله، ليس لأنه طال أكثر من اللازم فحسب وإنما أيضاً لأنه يحرمنى من الغوص في جسد إميلدا المرتخى بين ذراعى، ولمْ أعد قادراً على احتمال الحمم الحارقة التى تتدفق في عروقى. فتبدو لى وهى منكمشة في حضنى ولا تفصلها عني سوى بعض الكلمات التي من المفروض أن أقولها لكي

تنشرح أمامى بكل أنوثتها. في تلك اللحظة أحسستها عصية منغلقة وصعبة المنال.

عيناك شهيتان، أقول، لكى أفلت من وطأة الصمت ومما يولده في نفسى من أحاسيس سيئة، تحرك رأسها بحركة خفيفة. لمْ أشتهِ امرأةً في حياتي مثلما اشتهيك. أضيف بحماس مفتعل. ترفعها رأسى مرة أخرى. أركز بصري للحظة على وجهها. وتبدو لي هذه المرة على كامل الاستعداد لممارسةِ الحب.

تتمدد تحتى، فأنحنى عليها، وأشرع في تحسس عنقها برؤوس أصابعى العشرة. أمررها ببطء ونشوة، ثم أضع سبابتى على شفتها السفلى. في تلك اللحظة ترفع يدها اليمنى وتتلمس ملامح وجهى بلطف ورِقّة لمْ أجربها من قبل. ثم تسحبنى إليها وتقبلنى بنفس الطريقة لكن هذه المرة أدخلت لسانها في فمي وراحت تداعب لساني.

تنزع ملابسها قطعة قطعة بحركة مثيرة، شهية وقاتلة. ثم تسبقنى بخطوات قليلة إلى غرفة النوم. أتبعها من الخلف وأنا مشدود إلى مؤخرتها العارية. ترتمى في الفراش فأتبعها بعد أن نزعتُ ثيابي أيضاً ووضعتها فوق الكرسي.

استجابتْ لكل ما طلبته منها ملبية ما يستحوذ علىّ من استهامات. ونفس الأمر فعلته معها. خلال تلك النصف ساعة التى جمعتنى بها في الفراش. تعلمتُ الكثير من الأشياء التى لها علاقة بممارسة الجنس. اكتشفتُ جسدي معها وجعلتنى أعيش أجمل لحظات حياتي على الفراش. إميلدا مختلفة تماماً عن كل من عرفت من النساء. أكثر من ذلك جعلتنى أحس في قرارة نفسي أني أستحق امرأة مثلها. إميلدا لمْ تتركني أشعر للحظة

واحدة وأنا معها. أنها مجرد امرأة لا تربطنى بها أية علاقة ولا أكنّ لها الود. بل على العكس شعرتُ وأنا أتمرغ فوق جسمها أننى أحبها وأعشقها. إميلدا لمْ تكن في تلك اللحظة بالضبط مجرد ثقب مبلل أسده بحثاً عن متعة فيزيولوجية عابرة.

وعند ذروة النشوة وفي لحظة رعشة تمنيتُ أن تستمر للأبد، مسكتْ عنقى بيديها وغرزتْ أظافرها الطويلة فيه. لكننى لمْ أشعر بالألم بل شعرتُ بالمتعة. أحسستُ في تلك اللحظة بقطرات الدم تسيل ساخنة على صدري ثم تسقط مباشرة على عنقها. تحسستُ تلك الخدُوش الدامية بأصابع يدي وأنا غارق في النشوة. لمْ يسبق لي أن جربتُ مثل هذا الإحساس.

بعدها توجهتُ إلى الحمام. وقفتُ أمام المرآة. أتأمل تلك الخدوش المرسومة على عنقى، وذلك الدم الأحمر الذي ينز منها. تبعتنى إميلدا وهى محرجة. اعتذرتْ منى وقالتْ أنها لمْ تكن تنوي أن تسبب لي تلك الجروح على عنقى. قلتُ لها: إن الأمر لمْ يزعجنى بتاتاً بل جعلنى أكتشف أن قمة المتعة هي الألم.

ترد إميلدا وهي تبتسم:

– هل جربت يوماً مثل هذا الأمر؟

أحدق في وجهها للحظة طويلة، فتضيف بلهجة هادئة:

– أقصد هل سبق لك وعشت تجربة جنسية عنيفة؟

لمْ أرد على سؤالها. الحقيقة أني لمْ أكن أنوي أن أطرح عليها أي سؤال كذلك. فأنا لا أشعر بأية رغبة في الكلام بعد ذلك الإحساس المختلف.

أظل أتطلع إليها بدهشة. ولا أفهم قصدها. تضيف وهى تقترب منى وتمسك يدي:

– معي ستجرب أشياء جديدة كل مرة.

تواصل بشيء من التباهي. يزداد صوتها ارتفاعاً:

– سأعوضك عن كل لحظة لمْ تعشها كما ينبغي.

ينتابنى الخوف من جديد. وأظل صامتاً أتطلع إلى ملامح وجهها. تضيف مرة أخرى كأنها أدركت من صمتي ما يشغل ذهني:

– لا تَخَفْ. لأننى لا أود منك أي شيء سوى أن نقضى لحظات جميلة على الفراش.

تضحك بصوت منخفض قبل أن تعود إلى الغرفة. أجلس على الكنبة في الصالون وأنا أحس أننى فعلاً جربتُ شيئاً جديداً معها. ارتدت ثيابها وغادرت. صحيح أننى تنازلتُ نهائياً عن كتابة حكاية أنخيل وإميلدا. لكننى أشعر بالكثير من السعادة. فأنا من دون أن أدري، وقبل أن يحصل ما حصل بيننا منذ حين. كنت قد فقدتُ الرغبة في الكتابة عن الآخرين. وقررتُ فجأة أن أكتب عن نفسي.

في هذه اللحظة أتذكر أمى التى تركتنى صغيراً لا أتجاوز السبع سنوات وسافرت برفقة أبي إلى ليبيا. ولمْ تعد إلا بعد مرور سنوات كثيرة لا أستطيع حسابها. ثم رجعت مرة أخرى إلى ليبيا وبقيت هناك حتى ماتت. أبي كان يزورنا مرة كل أربع سنوات أو خمس. عشت كل حياتي مع جدتي التى كانت تُعامِلُنِي معاملة جيدة. ولمْ تتركنى أشعر ولو مرة واحدة أننى طفل يتيم. لا أعرف عن أبي وعن أمي أي شيء. حتى ملامحهما لا أتذكرها في

هذه اللحظة. أمى في ذاكرتي مخلوقة نجسة وفاسدة وأنانية. لماذا أجد نفسى اليوم غارقاً مرة جديدة في تذكرها. ربما لأعاقب نفسى. تراني مسروراً، لأننى لمْ أنطق يوماً اسم أبي وأمى. حتى أخوتي الذين ولدوا في ليبيا لمْ يسبق لي أن رأيتهم. بشكل مباشر. كنتُ أرى من حين لآخر صورهم في ألبوم الصور الذي كان بحوزة جدتي. منذ وعيتُ في هذه الدنيا وأنا وحيد.

وجدتُ حياتي عبارة عن أنّةً طويلة ومع مرور الزمن اشتدّت وتحولتْ عويلاً. أذكر أننى كلما تذكرتُ أمى أو أبي كنت أجهش بالبكاء ولمْ أكن أعترف حتى بينى وبين نفسى أنهما السبب وراء دموعى وحزني ووحدتي. الجميع كانوا ينظرون إلي على أساس أننى طفل يتيم وهذا الأمر كان يزعجنى ويحملنى كرهاً لا طاقة لي على تحمله. عندما كنتُ أجد نفسى فجأة في موقف كهذا كنت أكتفى بالنظر إلى حدقاتهم القاسية. وإلى حركات أيديهم وأحذيتهم. لأننى كنت ببساطة أنزل رأسى إلى الأسفل كى لا ألمح الشفقة في ملامح وجههم.

نعم، كنت أحب القرية التى كبرتُ فيها، رغم أننى لمْ أولد فيها وأتيتها من وراء الجبال. في القرية عشتُ طفولتى ومرحلة قصيرة من شبابي. فيها تعلمتُ رعى الأغنام وحرْث الأرض وحصاد المحصول. فيها عشت أجمل سنوات عمري.

آه ها هو مجدداً ذلك الاحساس القاسى الذي ينتابنى كلما تذكرتُ هؤلاء. رغم أننى نادراً ما أتذكرهم. ولكيلا أقص على أحد شقاءنا. لمْ أفكر يوماً في الكتابة عن أسرتي. ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد، رغم أننى أدرك تماماً أننى أملك المعلومات والمشاعر واللغة الكافية للكتابة عن الذي عشته في طفولتي الأولى وعن الظروف القاسية التي كنت أتخبط

فيها. كم تكبدتُ من الحيل والصبر والصمت والمكابرة لكى أنجح في تجاوز بقايا تلك المرحلة من حياتي. كنت أحب قريتى الصغيرة التى كانت تغمرها الشمس وشجر التين. أما اليوم فلمْ أعد أحبها. ولكم أخشى يوم اضطراري إلى العودة إليها لزيارة قبر جدتي. في أحد الأيام طرحتُ على نفسى سؤالاً. ماذا لو أننى عشتُ مع أبي وأمى هل كنت فعلاً سأصبح كاتباً؟

في كل الأحوال لنْ أبوح لأحد بسري أو بالأحرى سرنا، أنا وأسرتي. ولنْ أكتب سيرتي الذاتية يوماً. حتى ولو فشلت في كتابة رواية متخيلة. أفضل أن أتوقف عن الكتابة وأن لا أكتب انطلاقاً من الذاكرة المظلمة التى تجمعني بأبي أو أمي.

***

إنه المساء وأنا تحت لحافي لا أزال أشعر بالبرد وأرتجف. وأفكر في نورة هذه المرة. وأفكر في ذلك الزواج الذي ذهب مع ريح. وفي تلك الزوجة التى أخذتها أمواج الحياة بعيداً ولمْ تلتفتْ إلى الخلف. قصتى مع نورة تحتاج إلى لغة أخرى جديدة للتعبير عن الحكاية بشكل أفضل. أؤكد أنها هى الوحيدة القادرة على أن تروي أفضل مني قصة زواجنا الذي مات فجأة.

أخبئ في صدري قُصاصتَيْن من حياتي، مطويتين بكل عناية، الأولى لها علاقة بأسرتي والثانية لها علاقة بزوجتى نورة. ولعلّ آخر شيء سأفكر فيه هو الكتابة عن هذه النقط الضبابية التي مرت بي وتركت لي شجناً قاسياً.

فجأةً، وجدتُ نفسى وحيداً مثل عصفور صغير خرج لأول مرة من العش. لا أدري لماذا أشعر بأني بحاجة ماسة إلى الكتابة إلى نورة. لا أدري

ما الذي يقودني نحوها. هناك جاذبية تتجاوزني. بي غضب داخلي لا أعرف سره. من أين أبدأ هذا الشوق الذي يحملني من عزلتي ويضعني وجهاً لوجه مع نورة وكيف أتغلَّب عليه؟ كيف أكتب لها وأكتبني أمامها وأنا أقاوم قلق الغياب.

لا خيار لي سوى أن أكتب لها وأكتبني.. أكتبنا.

كتبتُ لها في البريد الإلكتروني:

عزيزتي نورة.

غيابك يمر ثقيلاً ككتل الرصاص. ووجهك هنا، يحضنني ويهرب بي صوب الذاكرة المشتركة بيننا، ويسكنني فراشك. وجهك الذي يسرق من السماء بعض حلاوتها ويلون قلبي الذي صار رمادياً وحزيناً. وجهك الذي أقبله كلما رأيته وهو يحاول أن يهرب مني. أكثر من هذا كله، يمكنني أن أقول إنني في هذه اللحظة لا أشعر بالخوف الذي كان يترصدني في كل مكان ووقت.

يا الله كل هذا الكم من الأيام مر وما زلت حية بداخلي؟ أيام كثيرة مرت علينا، أنا غارق في البحث عن حكاية تصلح للكتابة وأنت من المؤكد أنك غارقة في تحليل شخصيات المرضى الذين يتساقطون على رأسك كقطرات المطر. كم أشتهي أن أراكِ. هل تدرين أن غيابك صار يقتلني. أحياناً عندما أحاول لمس كلماتك انزلقت الكلمات بهدوء واستقرت في القعر. لماذا أغلقت كل أبوابك في وجهي دفعة واحدة؟ وأصبحت المسافة بيننا تقاس بالمستحيلات عوض الخطوات والأيام.

أدركت الآن فجأة، أنني لمْ أقدر على نسيانك، وأنني بقيت بعد كل هذا الزمن على حافة حبك، وصرتُ أكثر هشاشة في بعدك. فهل كان من الضروري أن يمر كل هذا الوقت لأدرك هذا الأمر؟ لا سلاح لي سوى الكتابة عنك وإليك.

عندما تنتابني الكآبة، أفقد كل توازني، وتصبح حياتي مجرد كومة من الهواجس. اليوم كلما ملأني الشوق إليكِ، أتساءل بدون أن أستطيع الحصول على إجابة، ربما لأني لا أبحث عنها. لماذا لمْ تغير المسافة والمدة أي شيء في حبي لكِ؟ أخاف أن يكون ما يحدثُ لي الآن هو بداية شطط آخر أكثر قسوة من الحياة. هل الإجابة عن هذه الأسئلة التي تتكدس في عقلي ضرورية؟ الإجابة أحياناً تكون مرهقة أكثر من السؤال. لا أبحث عن الشيء الكثير سوى عن بعض الراحة والنسيان. أريد في هذه اللحظة الملتبسة أن أنساكِ.

في ذلك الزمن البعيد كنتِ بالنسبة لي أكثر من مجرد امرأة، كنت بالنسبة لي المرأة التي يتوقف عندها كل شيء. وكنت بعنادي، أصنع نهاية مفجعة لأجمل قصة حب. عرفنا كيف نبدأها ولكننا أخفقنا في إتمامها. لقد اشتركنا في قتل تلك المشاعر الجميلة وهربنا من بعضنا وتركنا عالماً كبيراً كان يجمعنا يموت اختناقاً. أشعر بنفسي أحياناً، وأنا أستعيد تلك التفاصيل السخيفة التي لمْ نكن ننتبه لها في تلك اللحظة، أنني خسرتُ كل شيء بسبب عدم الانتباه. كم ظلمنا أنفسنا حين قررنا عبثاً أن يسلك كل واحد منا طريقه بعيداً عن الآخر.

كم أشتهي أن يرجع الزمان خطوة واحدة إلى الخلف، إلى تلك الثانية التي حملتُ فيها حقيبتي وتوجهتُ إلى المطار. لو عاد الزمان قليلاً ما كنتُ

لأفعل هذا الأمر. أشعر بالكثير من الندم. وكلما اشتدت وحدتي وعزلتى زاد يقينى أننى هالك لا محالة. الندم ينخرني من الداخل كالداء الزمن. آه لو تدرين كم أن الندم ثقيل ومتعب، وحدها الكتابة تخفف من وطأته.

أيام، وأسابيع كثيرة مرت منذ سفري، وأعرف أننى سأعود في يوم ما إلى أصيلة وإليكِ، لكن هواجسى تقودني دوماً نحو المناطق الأكثر رعباً. ما الذي يمنعك في لحظة شوق لا يقاوم، أن تهربي من كل شيء وتأتي نحوي؟ ما الذي يمنعنى أنا أيضاً في لحظة مثل هذه أن أترك كل شيء خلف ظهري وأذهب نحوك بكل أوجاعى وندمى وخوفي؟ فأنا في النهاية بشر يمكن أن يقترف الخطأ في أية لحظة.

حلمت بك قبل أيام، لكننى لنْ أقول لك عن الحلم، على الأقل ليس الآن، سأتريثُ قليلاً. سأخبرك بكل شيء لاحقاً عندما يرتاح مخى من ضجيج هذا الخوف الممزوج بالحنين والحسرة. عندما نلتقى مرة أخرى سأكشف لك عن كل نقاط ضعفي وأمراضي الدفينة، وشروري أيضاً.

لا أدري كيف تتحرك الأشياء في عقلى، لكنى أشعر حقيقة بحركاتها. رأسى ملىء بالأسئلة التى لا أنتظر لها إجابات. وسط هذه العزلة الخانقة التى رميتُ نفسى فيها بكل حرية، تتحرر ذاكرتي من كل أثقالها، أصبحتُ فجأة خفيفاً مثل ريشة تلعب بها الرياح، صرتُ كغيمة ناعمة تسبح في سماء الدنيا بلا قيود.

في هذا الظلام المحيط بي من كل الجهات، أحلم أن أفتح عينى ثم أغلقهما، ليكون كل ما حدث ويحدث مجرد كوابيس عابرة. لا أريد أن أتركني عرضة لهذا الخوف الذي سكن عظامي منذ افترقنا. غيابك يا نورة

يقتلني ببطء. يمزق جسدي من الداخل ولا أستطيع أن أفعل شيئاً سوى مراقبة عمري وهو يمضي سريعاً صوب الموت الذي صرتُ أراه وأشمه في كل الأشياء التي تحاصرني.

صرتُ الأكثر إدراكاً للخسارة. ولا أعرف لماذا. هل لأنني الأضعف، أم لأنني لمْ أفهمك في ذلك الوقت كما يجب. كنت غبياً وكنت أريد إسعاد نفسي أولاً وقبل كل شيء، ولمْ أنتبه أنني أتصرف ببلاهة. لمْ أدرك حينها أن السعادة كانت تحتاج إلى شيء آخر. أبسط وأجمل. فلمْ تقدري على تحمل رجل أناني يحب أبطال روايته أكثر منك. كلما تذكرتُ تفاصيلك الصغيرة وكلماتك وحماقاتك انتابني الغضب. كيف سمحتُ لنفسي بخسارة امرأة مدهشة مثلك؟

أحلم أن أطير وأعود إلى حضنك. أحلم بغرفتي الصغيرة التي تطل نوافذها الواسعة على بحر أصيلة، أشتاق إلى مكتبي وكتبي. أعتقد أن حياتي أصبحت جدّ ثقيلة، ولا أدري إلى أي حد تصل طاقة التحمل لديَّ. أبحث عنك في ذاكرتي وبين سطور كتاباتي بشغف وقلق، فتزدادين بعداً وحزناً كلما اقتربتُ منك. لكن أنينك الذي لا يموت يأتيني رويداً رويداً ويقتحم أذني كموجات حزينة.

ههنا تماماً، حيث الفراغ والعزلة أحسك قريبة جداً بين النبضة والنبضة. أراك تقاومين الصمت لكن الكلمات تتسرب من بين شفتيك المطبقتين، قولي إنك لمْ تعودي تعرفينني. لكن لا تشيحي بوجهك نحو فراغات النهاية. قولي إنني تغيرت كثيراً وصار كلامي مليئاً بالإشارات التي لا يفهمها إلا من اكتوى بها. قولي إنك لا تعرفينني الآن. أتساءل

اليوم ماذا يمكننى أن أفعل لكى أرجع إلى وجهك الضحكة التى سرقتها منه؟ وأمنح قلبك الأبيض ذلك الحب الذي يستحقه.

لا أرانى مرتاحاً في هذا البعد الذي يفصلنى عنك. اعذرينى فأنا متعب هذا المساء ولا أحمل في ذاكرتي إلا الوجع. لكن لا تشيحى بوجهك بعيداً يا نورة. أعرف جيداً أني خيبت آمالك الكبرى. الخيبة التى سببتها لك لا توجعك أنت فقط بل تحطمنى أنا أيضاً. يحدث أن أتساءل بسذاجة الأطفال عن سبب كل هذه الخسارات التى ألحقت بنا دفعة واحدة. أسألك في غفلة من كل حواسى من فينا الفراشة؟ ومن فينا الإعصار؟ نورة هل انتهت قصتنا أم ما زلنا نتدرب شيئاً فشيئاً على الفراق؟ هل افترقنا حقاً؟ فهمت أخيراً، أن تلك التفاصيل السخيفة التى لا أحد يحسب نتائجها هى التى تؤدي في النهاية إلى السعادات الكبرى أو الحروب. واكتشفتُ أيضاً كم أحبك وأحتاجك وأشتهيك. أدرك الآن كم كنتِ مهمة وأساسية في حياتي. بعدك كل شيء مات فجأة. حتى الكتابة صارت صعبة بل ومستحيلة وكلما حاولتُ أن أكتب عذبنى بياض الورقة التى لمْ أعد أملك أمامها أي حل سوى الصمت والانكفاء، والسير نحو مزيد من الخوف.

لا أدري الآن، الساعة تزحف نحو أي رقم من الأرقام. أحاول أن أستحضر وجهك لكيلا أنساك أبداً. فسري رسالتى هذه كما يحلو لك، أردت فقط أن أقول لك ما يملأ قلبى، فأنا لمْ أعد قادراً على تحمل ما يملأنى. كم أريد أن أسمعك. مضى زمن ولا شيء منى وصل مسمعك. بعد كل ما جرى بيننا، هل من الممكن أن تجمعنا هذه الحياة التى تضيق كل يوم أكثر مرة أخرى تحت سقف واحد؟ مرت سنة أو أكثر أو ربما أقل. ولا

شيء تغير. أراك باستمرار من وراء حزني وقلقي ووجودك وحده قد يمنحني قدراً كبيراً من الراحة. صورك ونبرة صوتك العالقة بذاكرتي تؤنسني وتبعث فيّ القوة كلما وهنت قليلاً. أتمنى عندما أتعب أن أفتح عيني وأراك قريبة مني على مرمى البصر. منذ فترة طويلة وأنا أقاومك وأقاوم شوقي إليك يا نورة. ولكن هذه المدينة الممطرة تفتح شهيتي للكتابة إليك. أشعر أنني مزدحم بك. ولا أستطيع مقاومة صورتك المرسومة في مخيلتي. أكتب لك لأقول لك بكل بساطة أحبك ولكن...

***

أشعر بالبرد أتحسس جسدي، أتحسس كل ما يشدني إلى الحياة، وأرفض أن أستسلم لعزلة تسحبني نحو موت باكر أرفضه. أقاوم لكيلا أسقط في عمق الخيبة أي جنون ذاك الذي قادني نحو هذا المصير المبهم؟

مرت عليّ ثلاثة أيام لمْ أغادر فيها الشقة بتاتاً، هذه الأيام لمْ تكن كغيرها من الأيام. ولا أعرف لماذا. لمْ أشعر بالرغبة مطلقاً في الخروج إلى المقهى أو الحانة أو إلى الشارع. طوال هذه المدة وأنا أحس أن قلبي يحمل معاناة ثقيلة. وكان لابد أن أفكر في حل يمكن أن يريح قلبي ولو قليلاً. ولكن حتى التفكير يرهق قلبي وعقلي. لا أستوعب كيف شختُ فجأة وتحولت قوتي إلى هشاشة مفرطة. ولا أعرف لماذا أشعر الآن أن السماء قريبة ويمكن أن أمد يدي قليلاً لألمسها بأصابعي الباردة. كانت الشمس تطل بخجل كبير من وراء بناية زجاجية. ربما تمكنتُ أخيراً من أن أحب الحياة بشكل آخر. أصبح من الصعب عليّ أن أكتم حزني أكثر في عالم وحدي أعرف هزّاته العنيفة. ولكي أحب الحياة بشكل آخر كما أدعى عليّ أن أستيقظ من غفوتي بكلي. وأن لا أترك جسدي رهيناً للخوف والحسرة والندم.

***

فجأة...

وبينما أنا ممدد على سريري أرشق عينى في السقف كمن يبحث عن الخلاص الأخير. سمعتُ طرقات قوية ومتواصلة على باب بيتى، قمتُ من فراشى مذعوراً لأن اليد التى كانت تضرب الباب بقوة لمْ يسبق لها أن طرقتْ بابي من قبل. هذه اليد ليست يد أماندا مشرفة البناية ولا يد إميلدا. توجهتُ مسرعاً صوب الباب قبل أن يكسره الطارق. وقبل أن أضع يدي على مقبض الباب سمعتُ ضجيجاً وجلبة غير عادية. أصوات كثيرة متداخلة. وصفارات تشبه تلك التي تصدرها سيارات الشرطة.

في حركة بطيئة فتحتُ الباب. انتابنى الكثير من الخوف حين رأيت أمامى شرطياً طويل القامة وعلى وجهه ارتسمت ملامح الغضب، نظرتُ إليه بتوجس. وبمجرد أن وقفتُ أمامه قال بنبرة صارمة لكنه احتفظ بابتسامة مصطنعة:

– مرحباً سيدي. لقد وقعت جريمة قتل في البناية. أريد منك أن تعطيني بطاقة الهوية الخاصة بك.

مرة أخرى يأتينى ذلك الشيء المبهم الذي يَسْتَعصى باستمرار على فهمى. مزيج من الخوف والارتباك. ارتبكتُ ثم تماسكت. تركته يقف عند العتبة. ودخلتُ إلى غرفتى لأحضر له بطاقة الهوية. سحبت البطاقة بخفة من محفظة الجيب التى كنت أضعها فوق المكتب. وعند خروجى من غرفة النوم وجدت الشرطي يتجول في الصالون وكأنه يبحث عن شيء ما.

اقتربتُ منه بخطوات بطيئة، التفت صوبي ثم أخذ من يدي البطاقة وهو يقول دون أن ينظر في وجهي تماماً:

- ألا يهمك أن تعرف من المقتول؟

أهز رأسى نافياً في بلاهة، وقبل أن أرد على سؤاله، انتبهتُ إلى صوت جلبة في الخارج ثم دخل علينا شرطى آخر. اقترب منى ووقف أمامى، تفحصني بنظرة حادة ثم قال وهو يثبت بصره على عنقي:

- ما سبب تلك الخدوش التي على عنقك؟

وكمن أراد أن ينفى عنه التهمة التى لمْ توجه إليه بعد. قلت بنبرة حاولتُ أن أجعلها مرتاحة:

- مشاجرة بسيطة لا أكثر.

صمت قليلاً، قبل أن يكتسى صوته نبرة أكثر حدة من نظراته قال وهو يربت على كتفي:

- تفضل معنا إلى مخفر الشرطة نريد أن نطرح عليك بعض الأسئلة.

عزلتنى كلماته في غلالة قاتمة، بدأ صدري يخفق بشدة، دقات قلبى تكاد تخترق أضلعى، ونفسى يتباطأ، كنتُ مشتتاً جداً. سرحتُ قليلاً وكأننى أمرر كلامه على ذاكرتي، ابتسمتُ مرغماً قبل أن أقول:

- في الحقيقة لمْ أفهم الموضوع بشكل جيد سيدي الضابط.

رد سريعاً:

- لقد وجدنا السيد ارتورو مقتولاً في شقته.

أربكنى الخبر. اختلطت علىّ المشاعر. ولمْ أعد أعرف كيف تتحرك الأشياء في دواخلى ككل مرة. أفتح عينى على خبر ثقيل وصادم. التفتُ إلى الضابط الأول فوجدته يرقبُ ردة فعلى. كنتُ مشوشاً غير قادر على التفكير. أحسستُ أننى وسط دوامة. كانت البناية ممتلئة برجال الشرطة. لكننى لمْ ألمح أي أحد من الجيران وكأن الأرض ابتلعتهم جميعاً. لمْ يتركوني أغير ملابسى. توجهتُ برفقتهما إلى مخفر الشرطة. وحينما وصلنا إلى المخفر. رأيت السيدة أماندا مشرفة البناية داخل أحد المكاتب وتظهر على ملامح وجهها علامات الخوف والارتباك. انتبهتُ أيضاً إلى أنخيل الذي كان يقف ورائي وبجانبه زوجته إميلدا.

اقتادني الشرطى إلى أحد المكاتب ثم أغلق الباب بسرعة. أضحك من نفسى كيف تحولت الأحداث إلى هذا المنوال الخطير. لا أنكر أننى كنت أشتهى حصول شيء ما في تلك البناية يستحق الكتابة ويصلح لأن يكون نهاية درامية لتلك الرواية التى أكتبها. أو بشكل أصح تكتبنى. حكاية أنخيل وإميلدا لمْ تكن كافية للكتابة كان ينقصها شيء ما.

سألني الشرطي دون أن ينظر إلى وجهي تماماً:

– أين كنت يوم الأحد الماضي؟

ألتفتُ صوبه وأنا أقول بنبرة هادئة:

– في البيت سيدي.

– مع من؟

كنت وسط الخوف والارتباكات المتتالية أحاول أن أتجاوز ذلك التشتت الذي تملكني، قلت:

– لا أحد.

اقترب منى وهو ينظر إلى عنقى مرة أخرى. ثم خرج مسرعاً من المكتب. بقيتُ متسمراً مكانى دون حراك. أفكر في هذه المصيبة التى نغصت علىّ عزلتى. قلتُ في قرارة نفسى: أنا بعيد كل البعد عن هذه الجريمة فلماذا الخوف إذن؟ لماذا أشعر بكل هذا الخوف والارتباك ما دمت لمْ أفعل أي شيء. مجرد تحقيق روتيني وسأعود إلى شقتي.

ولكن من قتل السيد أرتورو؟ مر هذا السؤال ببالي خاطفاً. أغمض عينى فيملأني الخوف. أحاول أن أستجمع أفكاري وأنزع من ذهنى كل تلك الأسئلة التى من المحتمل أن يطرحها علىّ الشرطى بعد لحظات. الأسئلة التي تجعلني في دائرة الاتهام بطريقة ما.

رجع الشرطى ومعه شابة في مقتبل العمر، شقراء نحيفة وطويلة القامة. نظر إليّ مطولاً ثم قال بنبرة مرتفعة:

– يجب أن نأخذ عينة من دمك وجلدك وشعرك من أجل إجراء تحليل الحمض الخلوي الصبغي DNA.

أرد مرتجفاً:

– لماذا؟

– ستعرف فيما بعد.

أصمت قليلاً ثم أواصل بلهجة غاضبة:

– من حقي أن أعرف أيها المحقق.

لمْ يرد على كلامى وكأنه لمْ يسمعنى مطلقاً. شعرتُ في تلك اللحظة أننى في ورطة حقيقية. ولكن ما كان يريحنى في أعماقى، هو أننى أدرك تماماً أن هذه الجريمة لا تربطنى بها أي علاقة. اقتربت منى تلك الشابة بخطوات واثقة. وهى تحمل في يدها بعد الأدوات الطبية. طلبتْ منى أن أفتح فمى قليلاً ثم أدخلت شيئاً معدنياً يشبه مبرد الأظافر، وحركته ببطء داخل فمى لخمس ثوانٍ على أكثر تقدير، ثم وضعته داخل كيس بلاستيكى صغير وشفاف. وبعد ذلك أخذت عينة من دمي وغادرتْ.

اقترب من الشرطى هذه المرة وهو يقول وقد ارتسمت على وجهه ملامح الشك:

– في الحقيقة أود أن أعرف منك تفاصيل أكثر عن المشاجرة التى سببت لك تلك الخدوش على عنقك.

ما إن سمعتُ تلك الكلمات حتى غرقتُ في أمواج من الحيرة. هل أخبره بحقيقة تلك الخدوش وأجنب نفسى مشقة الأسئلة والكذب. أو أواصل الادعاء بأن ما حصل معى كان بسبب مشاجرة. لكن ماذا لو أننى فعلاً أخبرته أننى قمتُ بعلاقة جنسية مع جارتي وهى التى غرست أظافرها في عنقى بقوة مثل ذئبة جريحة؟ هل سيصدقنى؟ أم سوف يسألنى عن هذه القصة، ويضعنى في موقف صعب أمامها وأمام زوجها الذي من المحتمل أن يعرف؟ وأنا لا أريد أن أكون سبباً في انفصالهما المحتوم. وفي نفس الوقت لو أننى واصلت كذبتى سأعرض نفسى إلى مزيد من الشك والأسئلة والاتهام.

حرتُ كثيراً وتطلب منى الرد على كلامه وقتاً طويلاً. فتعاظم الفضول داخل عيون المحقق الذي كان يقف أمامى منتصباً مثل تمثال حجري. لمْ أكن أعرف كيف أخبره بحقيقة ما وقع لى. حتى اهتديتُ أخيراً إلى فكرة بدت على الأقل أكثر إقناعاً من حكاية الشجار داخل حانة:

– لقد كذبتُ عليك في البداية أيها المحقق. سبب هذه الخدوش امرأة، كنتُ قد التقيتُ بها قبل أيام في حانة الميرادور. وأثناء ممارستنا للجنس قامت بحفر أظافرها الطويلة على عنقى. هذا ما وقع صراحة. كذبتُ عليك لأنني كنت محرجاً من أن أقول لك الحقيقة...

لمْ يتركني أنهي كلامي. قاطعني قائلاً:

– من تكون هذه المرأة؟ هل هي عشيقتك؟

شعرتُ أن نصف الحقيقة لمْ يُرْض فضوله وشكه. وكان من الصعب علىّ أن أفصح عن هوية تلك المرأة. عاودتنى الحيرة والارتباك. خطر لى أن أستعين بخيالى الخصب وأمنح تلك المرأة اسماً ومواصفات جسدية. لكن من المؤكد أنه سيذهب إلى الحانة ليبحث عنها. فقلت:

– لا أعرف تلك المرأة، ولا أعرف اسمها. وحتى شكلها لا أتذكره بشكل جيد. لأننى ببساطة كنت ثملاً جداً. لقد دفعتُ لها مقابل أن تمارس معي الجنس.

كان جلياً أنه لمْ يصدق كلامى. فكرتُ في تجاهل نظراته الحادة التى كان يصوبها نحو عنقى مباشرة. رسمت على وجهى ملامح الارتياح، فامتدّت يده تلقائياً تفتل شاربه، ثم التفت نحو زميله الذي كان قد دخل إلى المكتب في تلك اللحظة وكان يراقب الموقف بشيء من الحنق وهو يرمش بتوتر.

في المقابل كان شيء من الفرح قد تسلل إلى، وقد أدركتُ أن الرواية التى كنت قيد كتابتها، صارت في هذه اللحظة تستحق أن تكتب فعلاً. وأن الحدث الذي كان ينقصنى قد وقع الآن. وفي هذه اللحظة لا يهمنى من قتل السيد أرتورو. ما يمهنى فقط هو أنه مات. وموته بهذه الطريقة يمكن أن أستغله في صياغة نهاية درامية لهذه الرواية التي تسكن عقلي.

خطر ببالي أننى قد أكون أخطأت مرتين، مرة حين أخبرت المحقق أننى لمْ يسبق لى أن رأيتُ السيد أرتورو رغم سكننا المشترك في نفس البناية. ومرة حين لمْ أخبره بحقيقة تلك الخدوش التى ترتسم على عنقى. وبهذه الطريقة وضعتُ نفسى عبثاً داخل دائرة الشك. وفتحتُ كل أبواب الاتهام في وجهي.

شعرتُ أننى أمام طريق طويل من التحقيق. لقد سبق لي وجلستُ في مثل هذا المكان مرات كثيرة بسبب رواية في ذلك الزمن الذي صار يبدو لي الآن بعيداً جداً. واليوم أجلس هنا وجهاً لوجه أمام محقق غاضب بسبب جريمة قتل.

توالت الأسئلة علىّ تباعاً. وتساقطت على رأسى ثقيلة مثل الحجر. منذ متى وأنا أقيم في تلك البناية؟ وما طبيعة علاقتى بالسيد أرتورو؟ وهل أشك في أحد من الجيران أن يكون هو القاتل؟ أسئلة كثيرة ومتنوعة. شعور الارتباك الذي خلفته تلك الأسئلة كانت تخالطه مشاعر الخوف.

تذكرتُ جدتي وهى تخبرني يوماً أن المصائب تأتي تباعاً، تمنيتُ لو أننى كنتُ قريباً منها الآن لأركض صوبها وأغوص في صدرها وأغرق في نوم هادئ. وأشعر بأنفاسها قريبة، وأتلمس يديها.

مضى كثير من الوقت وأنا جالس على كرسى خشبى حتى يئستُ من الجلوس، لكننى لمْ أقدر على التحرك من مكاني خطوة واحدة، شعرتُ أننى مكبل وعاجز. رأيتُ في عين المحقق غضباً كبيراً وهو يخبرني بضرورة بقائى عندهم إلى حين صدور تقرير المختبر الجنائى. أردتُ أن أصرخ في وجهه قائلاً "لماذا" لكن شيئاً ما كان يثقل جسدي ويكتم أنفاسى ويكمم فمى. بذلتُ كل طاقتى وأنا أحاول مقاومة ذلك الغضب الممزوج بالرهبة الذي اجتاح قلبى ودماغى، تشاغلتُ بالنظر إلى السقف تارة وباستراق النظر إليه تارة أخرى. بعد لحظات قليلة سحبنى خلفه إلى القبو ثم أغلق علىّ قضبان الحديد وغادر بعد أن تركنى على حافة الهلع. هذه أول مرة أكون فيها خلف القضبان. أغلق علىّ باب القبو وحجب عنى منافذ الهواء والضوء فغرقتُ في العتمة.

عند هذا الحدّ شعرتُ بالكثير من الحزن، أحسستُ بيدي ترتجف، لمْ أعد أعرف ما إذا كنت قد قسوتُ كثيراً على نفسى حين قررتُ أن أقحم قلمي في تفاصيل من حولي وأحاول أن أجعل من حياتهم الخاصة رواية.

العتمة تحيط بي من كل الجوانب والجهات. أشعر بالبرد وهو يتسلل إلى أعماق جسدي. سلمتُ نفسى إلى الظلام. ورحتُ أفكر في تلك الرسالة التى كتبتها إلى نورة وأنا أقول في قرارة نفسى: من المؤكد أنها قرأتها، وأتمنى أن تكتب لي رداً على ما قلتْ.

انتبهتُ للتو إلى فداحة ما قمت به، ربما لمْ يكن من اللاَّزم أن أراسلها بعد هذا الغياب الطويل. نورة مثل الأشياء التى لا تحضر بقوة إلا حين تغيب. غيابها عني حولني من رجل صلب إلى آخر أكثر هشاشة من غصن

يابس. كتبتُ لها لأنني كنت أريد شيئاً ما يخرجني من حالة الانطفاء، من التفكير في الموت.

ما الذي يمكن قوله عن نورة في هذه اللحظة الملتبسة. كيف أصفها والعتمة تملأ قلبي وتخترق حواسي كلها. أتذكر نبرة صوتها ببحته المحبوبة. لمْ أنتبه مطلقاً قبل هذه اللحظة إلى جمال صوتها. صوتها الذي يسبح في دمائي في دورة لا تنتهي، صوتها مثل الهواء الذي أملأ به صدري. أو بالأحرى أملأ به قلبي.

لا أزال أتذكر فستانها القصير، الذي كان على بعد نظرة مني، لكنني مع ذلك لمْ أصل إليه ولمْ ألمسه. ما أسوأ أن نكون قريبين إلى هذا الحد، دون أن نصل. لا أزال أتذكر كل شيء.

حسناً، كي أكون صريحاً مع نفسي، أنا لا أتذكر كل شيء. لا أتذكر ما الذي كانت ترتديه في آخر يوم رأيتها فيه. ولا أتذكر ما الذي قالتْ لي وما الذي قلتُ لها. أتذكر فقط أنني اخترتُ الرحيل، ولمْ أترك لها أي مجال للعودة. كان القرار أحادياً، مبهماً، ودون مقدمات. قررتُ الرحيل من تلقاء نفسي، رغم أنني كنت مشفقاً عليها وعلى نفسي أكثر. صحيح أنها لمْ تُبدِ أي عاطفة نحوي في تلك المرحلة الحاسمة من علاقتنا حين أخبرتها أنني مخنوق ومحبط وحزين، ولمْ تحزن على حزني. اليوم صرتُ أعرف كم هو مُؤْذٍ أن يتخلى شخص عنك فقط لأنه يعيش أزمة داخلية خاصة لا يد لك فيها. تخليتُ عن نورة وانسحبتُ من حياتها ببساطة لأنني لمْ أكن قادراً على مواجهتها بقراري.

لماذا اخترتُ أن أكتب لها رسالة؟ هل لكى أحفظ أقصى ما يمكن من كرامتها؟ جهدتُ في اختيار الكلمات، شطبتُ كل الكلمات المباشرة، واخترت عوضاً عنها تلك التى تتسلل بهدوء حاملة المعنى نفسه، أو أقل قليلاً.

***

في صباح اليوم التالي..

فتح باب الزنزانة أخيراً. كنت أشعر بإعياء شديد، لأننى لمْ أنم طوال الليل. دلف المحقق إلى الداخل بعد أن أشعل المصباح الذي يتدلى من السقف وهو يحمل بين يده ملفاً ورقياً أبيض. اقترب منى وهو يقول بلهجة هادئة:

– يوجد هنا بين يدي نتيجة تحليل الحمض الخلوي الصبغي.

صمت للحظة قصيرة ثم واصل موجهاً سؤاله إليّ:

– لماذا قتلت العجوز أرتورو؟

صدمنى السؤال الذي لمْ يكن سوى اتهام مباشر لي بالقتل. للحظة ظننتُ أنه يمازحنى، لكن نظرته كانت تقول العكس. صعب على الأمر أكثر، انتبهت إلى المحقق وهو يضع أمامى على الأرض أصفاداً حديدية. وكأنه يطلب منى أن آخُذ الأمر على محمل الجد. تمنيت لو كنت قادراً على النطق. غاب تركيزي، ولمْ أجد شيئاً أقوله. نظرتُ إليه وأنا ألعن المصير الذي قادني إلى هذه المدينة.

إلى حدود تلك اللحظة الملتبسة، اكتفيتُ من الصمت وقررتُ أن أفتح فمي وأتجاوز الصدمة التي كبلتْ جسدي للحظات، قلت وأنا أتفحص تلك الأصفاد المرمية على الأرض:

– أنا لمْ أفعل أي شيء. لم أقتل السيد أرتورو أيها المحقق.

ضحك ساخرا، ثم رد بنبرة باردة وواثقة في نفس الوقت:

– تقرير الطب الشرعي يقول، إن الخلايا الجلدية التي وجدتْ تحت أظافر الضحية متطابقة تماماً مع خلاياك الجلدية، وأيضاً تحليل DNA يقول نفس الأمر. ولمْ يعد لك أي مجال للكذب. المطلوب منك الآن أن تحكي لي ما وقع بالتفصيل الممل.

صمت قليلاً ثم أردف قائلاً بنبرة مرتفعة:

– أو دَعْنِي أخبرك ببعض التفاصيل التي استنتجتها. عند الساعة الخامسة والنصف مساءً تقريباً، تسللت بطريقة ما إلى شقة السيد أرتورو، دخلت إلى غرفة نومه لكي تسرق الخزانة التي يضع فيها المال. بعد أن أخبرتك مشرفة البناية بهذه المعلومة. لكنك وجدته مُمَدَّداً فوق سريره. ولأنه كشف أمرك قررت قتله. وببساطة أكثر لأنك لمْ تكن تتوقع وجوده في البيت في تلك الساعة. وضعت ركبتك فوق صدره ثم خنقته بيدك. وفيما هو يحاول الدفاع عن نفسه قام بغرس أظافره في عنقك. ولأنك قاتل غير محظوظ، احتفظت الضحية بعينة من دمك وجلدك تحت أظافرها...

أجبته مُقاطعاً دافعاً عني تُهمة وأنا أتحسس عنقي:

– أرجوك، توقف. أنت تقول أشياء لمْ تقع. أنا لمْ أقتل أي أحد. هذه الخدوش التي على عنقي سببها أظافر امرأة.

يقول وهو يدير ظهره ويبتعد عني قليلاً:

– الأدلة الجنائية كلها ضدك. فلا تُرهق نفسك بمزيد من الكذب. لأنه لن يفيدك في شيء صدقني.

أنظر إلى الأمام ثم إلى الخلف، وكأننى أريد أن أتأكد أننى فعلاً داخل زنزانة، وأننى أمام تهمة كبيرة. وأن خلايا جلدي وبقايا دمى وجدتْ تحت أظافر القتيل. أكتشف أننى تحولتُ فجأة إلى فأر مذعور. أرد مدفوعاً باليأس وبمزيد من الخوف:

– أنا بحاجة إلى محامٍ.

رفع رأسه إلى السقف ولم ينظر إليّ، ثم قال:

– من حقك طبعاً.

تهدأ أنفاسى أخيراً، وتعود ملامح وجهى إلى طبيعتها. أحاول أن أتماسك أكثر، وألا أجيب عنْ أسئلته بتلك العفوية والاندفاع. الموضوع أكبر مما كنتُ أتصور، التهمة تلتصق بي والأدلة كلها ضدي كما يقول. أنظر إلى وجهه. أحاول أن أستشف منه إن كان صادقاً بخصوص تقرير الطب الشرعي.

كنتُ واثقاً بشكل أو بآخر أن ثمة خطأ ما في هذه القضية، وأني سأغادر هذه الزنزانة في أي لحظة. وأن هذه المصيبة ستنتهى. في الحقيقة لمْ أعد قادراً على التمييز بين الوهم والحقيقة. هل ما يحدث الآن مجرد كابوس؟ لا أعرف كل ما أعرفه هو أننى صرتُ متهماً في جريمة قتل. ولمْ يعد هناك أي حدود بين الأشياء.

أيّ حرب يقيمها القدر على؟ أفكار كثيرة تراودني، لكن سرعان ما تتبخر من رأسى، قبل أن أنطقها. أحاول بشدة أن أحذف من مخيلتى تلك الفكرة التى ترهقنى بمجرد أن تمر ببالى. أخشى فعلاً أن أكون متورطاً في تلك الجريمة وأنا لا أعلم.

قلت بنبرة عالية:

– أريد الاتصال بالمحامي الخاص بي.

رد المحقق بإيجاز وهو يهز رأسه:

– موافق.

نطق، وأنا أرى علامات الاستغراب تغمر وجهه، لمْ يكن أمامى خيار آخر سوى أن أطلب مساعدة شخص يفهم في القانون. ومن يدري ربما يكون هذا المحقق يريد أن يلصق التهمة بي لأننى العربي الوحيد الذي يسكن في تلك البناية. أو لربما لأنه يريد أن يغطى على القاتل الحقيقى مقابل شيء ما.

ببساطة أنا لمْ أصدق كلامه عن تقرير الطب الشرعى. وأظن أنه يريد أن يغلق ملف هذه الجريمة، ويجعلنى أعترف بأشياء لمْ أقم بها. غادر الزنزانة بعد أن حمل تلك الأصفاد من الأرض. سألنى عن اسم المحامى الذي أرغب في تعينيه.

***

بعد ساعات طويلة، رجع المحقق إلىّ مرة أخرى، وضع الأصفاد على يدي. ثم أخذني إلى مكتب صغير في الطابق الأرضي، حيث كان ينتظرني

المحامى. شعرت أننى أخيراً حصلتُ على الشخص الذي يمكن أن ينصفني، ويخرجني من هذه المصيبة التي وجدتُ نفسي فيها فجأة.

دخلت إلى المكتب بروح جديدة، كان المحامى قد خصص لى مقعداً إلى جواره. وبمجرد أن جلستُ عدل بأطراف سبابة يده اليسرى من وضعية نظارته الطبية السميكة، بينما كنتُ أتأمل ذلك الملف الذي بين أصابع يده اليمنى. نظرتُ إلى ملامح وجهه التى أربكتنى قليلاً. لكن الارتباك كان أكبر، حين فتح ذلك الملف، وها هو يغرق في تقليب أوراقه الكثيرة. يقرب الورقة من وجهه كثيراً ثم يمرر أصابعه على أسطرها ببطء أكبر. وما إن ينتهى حتى يعيد الكّرّة مع ورقة أخرى قبل أن يضعها فوق سطح المكتب الخشبي الصغير الذي بجانبه. ويحط عليها بعض الملاحظات.

انتهى سريعا من قراءة كل الأوراق. ثم التفت إلىّ سائلاً بنبرة منخفضة:

– أتعرف التهمة الموجهة إليك يا سيد كمال.

أرد بإشارة من رأسي فيواصل قائلاً بنفس النبرة:

– تقرير الطبيب الشرعى يقول إن هنالك تطابقاً بين عينة الدم والخلايا الجلدية التى وجدتْ تحت أظافر القتيل ودمك وخلاياك الجلدية. وهذا دليل جنائي لا يحتمل الشك. معنى هذا الكلام أنك القاتل...

قاطعته مفزوعاً:

– أنا بريء من هذه التهمة.

قاطعني بدوره وهو ينظر إلى عنقي بتمعن كبير:

– وبماذا تفسر وجود بقايا جلدك ودمك على أصابع الضحية؟

صمت للحظة قصيرة ثم استرسل:

– أنا هنا لتقديم المساعدة القانونية لك ولا يهمنى إن كنت مذنباً أم لا. أخبرني بكل شيء لكى أقدر على إخراجك من هذه المشكلة. رد على سؤالى بدقة.

أراحنى كلامه كثيراً، وقررتُ أن أخبره بحقيقة الخدوش التى على عنقى. ربما تكون هى الطريق الوحيد لفهم وجود دمى وجلدي على أصابع القتيل. قلت:

– قبل أيام قليلة زارتنى في البيت جارتي واسمها إميلدا. ووقعتْ بيننا علاقة جنسية، وأثناء الممارسة قامت بغرس أظافرها في عنقى حتى سال الدم...

قاطعني بنبرة من اكتشف شيئاً مهماً للغاية:

– هذا الكلام يعنى أن جارتك هى التى كانت وراء تلك الخدوش. ويعنى أيضاً أن لها يداً في الجريمة. سنفترض أنها بعد أن حفرت أظافرها على عنقك حتى سال دمك كما تقول. احتفظت ببعض من خلاياك الجلدية والقليل من دمك. ثم توجهتْ إلى شقة الضحية، وقتلته، وبطريقة ما قامت بوضع ذلك الدم والجلد تحت أظافر يده كي تورطك في جريمة القتل.

صمت قليلاً ثم أردف:

– ولكن لماذا ستقوم بهذا الأمر في نظرك؟

أجيب دون تفكير:

– لكي تبعد عنها أصابع الاتهام.

هز رأسه قليلاً. رأيتُ الزهو في عينيه قبل أن يتبدد سريعاً مع سؤاله:

– ولماذا في نظرك ستقوم بقتل السيد أرتورو؟

قلت:

– أتوقع أن الأزمة المادية التى تمر منها أسرتها. فقد طرد زوجها من العمل، وصارت بينهما مشاكل كثيرة في الفترة الأخيرة. وقالت إنها تنوي الانفصال عنه لأنه يريد العودة إلى وطنه. ربما جريمة القتل كانت من أجل السرقة.

أخذتُ نفساً عميقاً ثم واصلتْ:

– في الحقيقة أنا الذي أخبرتها أن السيد أرتورو يمتلك مبالغ مهمة في خزانة بيته...

قاطعني مرة أخرى بحركة من يده ثم قال بدهشة:

– ومن أين عرفت هذه المعلومة؟

ضحكتُ في سري ثم أجبت:

– من مشرفة البناية.

لمْ يرد على كلامى وكأنه كان ينتظر منى مزيداً من التوضيح. حكيت له عن تفاصيل ما جمع بينى وبين مشرفة البناية وحكيت له عن رغبتى في كتابة رواية عن أنخيل وزوجته إميلدا. حكيت له عن الصغيرة والكبيرة منذ وضعت قدمى في هذه المدينة. لكنه قال لى قبل أن يغادر أن كل تلك الأشياء التي قلتها لنْ تفيد كثيراً في قضيتي ويجب أن نبحث معاً عن دليل

معقول وملموس يمكن أن يخرجنى من مصيبتى. بدا أن ما قلته لمْ يقنعه ببراءتي.

شعرتُ كمن يغرق وسط الرمال المتحركة. أحمّل عقلى المجنون والمسكون بالكتابة الخراب الذي لحق بحياتي، ماذا لو أننى لمْ أضع أذني على جدار الغرفة وأسترق السمع إلى بيت الجيران، ربما ما كان ليحدث كل هذا. ماذا يساوي الكلام الآن أمام الخسارات الكبرى التى لا تعوض. سأخسر حريتى. لأننى تبعتُ الكتابة ونسيت أن الحياة لا تمنحنا كل شيء. ماذا لو أننى استسلمتُ للعجز ولمْ أرغم نفسى على البحث عن حكاية تستحق أن تكتب.

تمرَّدَ أبْطالي عليَّ. كنت أتوقع سهواً أننى أستطيع أن أتحكم في مصير من أكتب عنهم لكن في الحقيقة كانوا هم من يتحكَّمُ في مصيري. لمْ يخطر ببالي مطلقاً أن تنقلب عليّ الحياة بهذا الشكل وتحولني من كاتب إلى مجرم.

جريمتى كانت أني لمْ أحسن التصرف مع من حولي وظننتُ للحظات طويلة أنهم مجرد شخصيات ورقية لا تقدر على التحرك بعيداً عن الخطوط التى أرسمها لها. لكن ها أنذا أجد نفسى ضحية شخصيات ورقية كانت تفوقني قوة وخبرة وذكاء.

لمْ أكن أظن أن تقوم تلك الشخصيات الأدبية من مكانها وتغادر الورق الأبيض. وتمزقنى وتنزع أطرافي مثل دمية بدون أدنى ندم، وتبعثنى نحو حتفى بهذه السهولة. لمْ أكن أريد هذه النهاية. لكن أبطالي لهم وجهة نظر أخرى. ومن حقهم طبعاً أن يكتبوا النهاية التي تروقهم. هذه ليست

نهايتى، هذه نهاية أبطالى الذين شكلتهم من حبر وورق. في نهاية المطاف من أنا؟ هل أنا الضحية أم الجاني؟

كلما استعدتُ تفاصيل الحماقة التى قمت بها أجدنى مرغماً على الضحك من نفسى. أضحك وأضحك وأضحك ثم أهمس في سري. من فينا الفراشة؟ ومن الإعصار؟ من منا شَكَّل الدمار حول الآخر ومضى. أنا أم الكتابة؟

يحدث أحياناً أن نموت ونحن في طريقنا إلى الحياة. يحدث أحياناً أن ننظر إلى أنفسنا نظرة نرجسية متضخمة. ندفع ثمنها من أرواحنا. يحدث أن تمزق فراشة صغيرة مصائرنا دون أن نشعر.

نورة خير الدين

الأحد 23 دسمبر 2018

أصيلة

عزيزي كمال..

رداً على رسالتك التى وصلتنى قبل قليل. دعنى في البداية أخبرك أننى أكتب إليك مرغمة. لأننى لمْ أجد بداخلى أي سبب يدفعنى إلى التواصل معك بعد هذا الغياب الطويل. ولكن يمكن أن تعتبر أن هذه الرسالة ستكون الأولى والأخيرة التي ستصل إلى بريدك مني.

الحب كان معك، واليوم، بدأت أنساه. عندما صممت أن تتركنى، قبلت أن أعيش وجعى منفردة. فلا تنتظر منى أن أكون بحاجة إليك. في غيابك تعلمتُ كيف يمكن أن أدوس على جراحى وأمشى. وتعلمتُ كيف أواجه الدنيا مكسورة القلب والخاطر.

أنا لا أملك ما أقاوم به هذه الحرائق القديمة سوى النسيان. مشكلتى الوحيدة أن الذاكرة التى تربطنى بك ترفض أن تتلاشى دفعة واحدة. وترفض دواخلى أن تغادرك وتنساك. كما لو أن تفاصيلك سكنتنى وأغلقت معها كل أبواب المستحيل. أي شوق هذا الذي نبهك أني امرأتك الوحيدة، وأن الدنيا بدوني ضيقة ولا تحتمل. يوجعني شوقك إلي،

وتوجعنى أكثر هزيمتك أمام قسوة الحياة. دعنى فقط أسألك. أما زلت حقاً تحبني كما قلتْ أم صنع لك الغياب أوجهاً أخرى لمْ أعد أعرفها.

صرتُ أخاف عليك منك. وأنت هناك حيث يزهر الغياب. صغرت مطالبى كثيراً، ولا شهوة لِي سوى أن أعيش عمري كما أريد. لمْ يعد يهمنى أن تزرعنى فيك كى أُنبت من جديد. لنْ أنحنى لك رغم أننى مثقلة بالحزن والخوف وبك. ضاعت منى المسالك والسبل ولكننى ما زلت واقفة وأقاوم.

أنت تعرف سر ألمى، فلماذا سحبتنى نحوه دون أدنى شعور بالذنب. وحولتنى إلى رماد أسود عند قدميك. أنت من دس في قلبى الحب، ثم أخذتنى من كفى على حين غفلة، وركضت بِي صوب الجحيم. يوم خانتنى الحياة كنت أتوقع أنك ستكون بجانبى تحمل عنى بعض الثقل وتشاركنى الوجع وتهمس في صدري "أنا معك". يوم تخلت عنى مباهج الدنيا وصارت أيامى غائمة ومثقلة بالكآبة لمْ أجدك قربِي وكأنك تواطأت ضِدّي ورحلت فجأة. يوم احتل السواد عينى، لمْ أجد غير صدر أمى الذي لمْ يستمر معي طويلاً ثم رحل هو أيضاً. اليوم أنا قوية بدونك.

هل تذكرت يوماً وأنت غارق في غربتك، أن ثمة امرأة اسمها نورة تنتظرك في الضفة الأخرى من العالم؟ فكيف لِي أن التفت صوبك بعد كل هذا الغياب؟ كيف لِي أن أسامحك وأرجع إليك وكأن شيئاً لم يقع. لا أقدر ولنْ أقدر، صدقني.

في ذلك الزمن كنت قدري الأوحد. أما اليوم يمكنك أن تمضى حيث تشاء، وتشاء فيك صدفة الأقدار. صوتي لمْ يعد قادراً على الصراخ وجسدي أثقلته الهزائم التي كنت سبباً فيها.

امنحنى فرصة أن أنساك تماماً. ابتعد أكثر وأكثر، ولا ترجع إلى حتى وإن هزمتك منعطفات الحياة. لا تَعُدْ هكذا دفعة واحدة. فقد تعلمت معك أن أترك بين الجمل فراغات كبيرة وكثيرة. فلا تظن أننى سأحتضن ضعفك وحزنك بهذه البساطة.

لقد تغيرت كثيراً وصرت أنا أيضاً مليئة بالإشارات التى لنْ تفهمها. حتى وإن اكتويت بها. أين كنت قبل هذا الزمن الذي افتقدتك فيه؟ لمْ أعد كما عهدتنى أشياء كثيرة انسحبت وحلت محلها أخرى. غيرني غيابك وقتل المرأة التى كنت تعرفها. المرأة التى لمْ تكلف نفسك مشقة السؤال عنها. هل ما زالت حية أم ماتت؟

سأقول لك كالعادة تلك الجملة المستهلكة: الأشياء حين تنكسر لا يمكن أبداً أن ترجع كما كانت. وسترد بجملتك الشهيرة كعادتك أيضاً: المشاعر ليست شيئاً مادياً لكيلا تصلح إذا ما انكسرت. وسأضحك كعادتي دوماً، وأنا أسمع منك هذه العبارة.

افتح عينيك قليلاً، وتأمل حولك قليلاً. لقد تغير كل شيء. حتى أنت تغيرت ولمْ تعد تشبه نفسك. لقد صرت واحداً آخر. فلا تحاول أن تقنع نفسك بالعكس. هل تعرف ما معنى أن تفقد المرأة الرجل الذي وضعت كل أحلامها في كفه ونامت مطمئنة القلب؟ لا أتوقع أنك تعرف. لقد

سرقت من عينى تلك الأفراح الصغيرة ومضيت دون أن تلتفت ولو لمرة واحدة للخلف.

ماذا يجب أن أفعل لأقنعك أنني لمْ أعد أحبك؟

***

"مات ناصر منتحراً"

هذه الجملة القصيرة التى وصلتنى على الوتس آب، جعلتنى أجهش بالبكاء مثل الأطفال تماماً. مجرد ما قرأت هذا الخبر أعاد إليّ كل المشاعر السيئة التى رافقت دخول ناصر إلى حياتي. أخذتُ الهاتف دون أن أنطق بكلمة ثم اتصلت بالممرضة التى أرسلت إليّ الرسالة. وبمجرد أن سمعت صوتي المرهق من شدة البكاء، أكدت لى الخبر ووصفت لى الطريقة الموجعة التي رحل بها ناصر عن هذه الدنيا الظالمة. وترك خلفه سراً كبيراً.

صعدتُ إلى السيارة وتوجهت مسرعة إلى المستشفى. في الطريق تخيلته معلقاً وقد فارق الحياة نهائياً. لمْ أكن أتوقع منه مطلقاً أن يستسلم بهذه السرعة. ويفضل الموت على المقاومة. كنت أظن أنه سيتشبث أكثر بحياته وحريته إلى آخر لحظة. وسوف يقاتل من أجل رد الاعتبار إلى عقله الذي شكك في صحته الكل حتى أنا. كانت هذه هي النقطة الأكثر ألماً وحزناً.

أشعر الآن بوجع كبير في الرأس ووجع أكبر في القلب. ولا يمكننى أن أفعل أي شيء سوى الصمت. الصمت الذي يخفى بين طياته أمواج الحقد والغضب.

أحلامه الصغيرة اقتنصها هؤلاء الكلاب، لنْ أسمح أبداً أن تمضى حكايته هكذا. ولنْ أسمح بأن يكون موته رخيصاً إلى هذه الدرجة. حكاية ناصر، هي حكايتي منذ هذه اللحظة.

قبل هذه اللحظة لمْ أكن أعرف أن أجنحة تلك الفراشة الصغيرة التى كانت تحلق فوق رأسى، كانت مشبعة بالأنين. وأن التفاصيل الصغيرة يمكنها إحداث الفارق دائماً.

نعم التفاصيل الصغيرة يمكنها إحداث الفارق دائما.